من معالم الهدي القرآني
في التوبـة

تأليف
الدكتور/ سليمان الصادق البيرة
مكة المكرمة

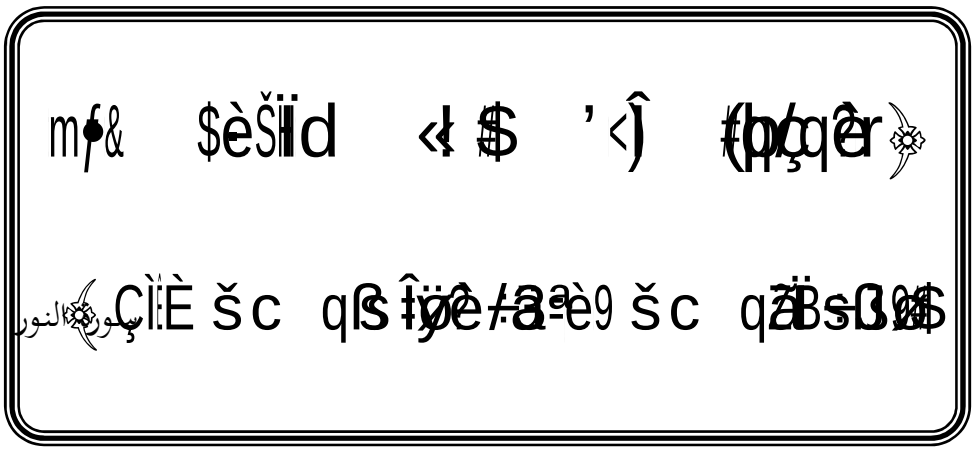

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن اتبع سبيله إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا بحث يدور الحديث فيه حول التوبة في القرآن الكريم، وذلك بالحديث عن معالم الهدي القرآني في موضوع التوبة. وهو الموضوع الواسع الذي له أبعاده، وآثاره القريبة والبعيدة على جميع الأصعدة، فـ «التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»(١)، «ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها»(٢)، وهي تدل على مدى عناية الله تعالى بالإنسان، وتكريمه له، فهو سبحانه لم يترك الإنسان يتخبط في أوحال ظلمه، وشركه، وذنوبه، وانحرافاته، فيَهلك بذلك، ويُهلك غيره، ولكنه سبحانه فتح باب التوبة واسعاً أمام الإنسان، وهو باب ليس عليه

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم: (١/٣٠٦).

(٢) نفس المصدر (١/٣٠٧).

بوّاب، ولا حُجَّاب يمنعون الداخلين إليه، فهو مفتوح لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها. فالتائب مسالم لربه، متصالح معه، والمعرض عن التوبة، محارب لربه، رافع لراية العصيان والتمرد عليه، وهو ظالم بكل ما تعنيه كلمة الظلم من معانٍ ودلالاتٍ وأبعادٍ قريبة وبعيدة، ظاهرةٍ وباطنةٍ، عاجلةٍ وآجلةٍ، قال تعالى: ¼ WVÙYÚØVWS pÂRÈÏMÎ D ÂS@ 0 ÏÕ ÜÙWÌ » [1]، وفي المقابل فإن الفلاح كل الفلاح في التوبة بكل ما تعنيه كلمة الفلاح من أبعادٍ، ومعانٍ وآثارٍ فاعلة على جميع مستويات الحياة العاجلة، والحياة الآجلة.

وهذا البحث محاولة للتعرف على حديث القرآن حول التوبة في آفاقها المتعددة، المتنوعة، من خلال الحديث عن معالم الهدي القرآني في الموضوع، وللقارئ الكريم غُنم هذا البحث، وعلى مؤلفه غُرمه، والله تعالى هو التواب الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د/ سليمان الصادق البيرة

العزيزية - مكة المكرمة

في ٥ رمضان ١٤٢٦هـ

---

(١) سورة الحجرات، الآية (١١).

شأن التوبة

إن شأن التوبة عظيمٌ عند الله تعالى، فهي باب الدخول إلى فضل الله وإحسانه ورحمته، وهي طريقُ الأنبياء الكرام عليهم السلام، وعباد الله الصالحين، «وهي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى (التوبة) وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، فإذن (التوبة) هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا، ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر. والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها وأكثر الناس لا يعرفون قدر (التوبة) ، ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علما، وعملا، وحالا، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن (التوبة) اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل (التوبة) وآثارها»(١).

والتائب إلى الله إنسان متجاوب مع فطرة الله التي فطر الناس عليها،

---

(١) مدارج السالكين : (١/٣٠٦-٣٠٧) .

والمتمرد على التوبة إنسانٌ ظالمٌ لنفسه مسيءٌ لها وهو يعمل ويتحرك ضدها، وضد ما فيه صلاحٌ وخيرٌ له. قال الله تعالى : ﴿ p̂ ÕŴØÝÚŴ ÜéÙŸá Ó@ØŚ Ð ÏÑÖèÑÊ ﴾(١). ومَنْ هذا الإنسان الخاسر الذي يرفع راية التمرد على الله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء وهو جل وعز القاهر القهار العزيز الجبار بيده نواصي الخلق جميعاً لا يفلت من قبضته أحدٌ منهم، قال الله تعالى: ﴿ ØŤŴŸ @ØŴÉŤR{ ŴŽØŇX ØŤŴÖŴÝ †Ŵ-ŞŽ Ý ŸŜ ,ŔX‡ŤŴÝÝ †ÚŴ ŇŤŴ ØŸŴŤ©Ŝx ŹŴ ØŴ ﴾(٢) قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله -:

«أخبر عن عموم قدرته تعالى، وأن الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته، وأنه آخذٌ بنواصيهم، فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم، ثم عقب ذلك بالإخبار عن تصرفه فيهم، وأنه بالعدل لا بالظلم، وبالإحسان لا بالإساءة، وبالصلاح لا بالفساد، فهو يأمرهم وينهاهم إحساناً إليهم، وحماية وصيانةً لهم، لا حاجةً إليهم، ولا بخلاً عليهم، بل جوداً وكرماً، وبراً ولطفاً، ويثيبهم إحساناً وتفضلاً ورحمة، لا لمعاوضة، واستحقاق منهم، ودين واجب لهم يستحقونه عليه، ويعاقبهم عدلا، وحكمة، لا تشفيًّا، ولا مخافة، ولا ظلما، كما يعاقب الملوك وغيرهم. بل هو

---

(١) سورة الحجرات، الآية (١١).

(٢) سورة هود، الآية (٥٦).

الصراط المستقيم، وهو صراط العدل، والإحسان في أمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه»(١) ا.هـ.

فلا بد من التوبة إلى الله تعالى والانخلاع من كل ما يسخطه ويغضبه، قال ابن تيمية – رحمه الله تعالى -: «وينبغي أن يُعرف أن التوبة لابد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحدٌ ويحصل له كمال القرب من الله ولا يزول عنه كل ما يكره إلاّ بها، ومحمدٌ أكمل الخلق وأكرمهم عند الله، وهو المقدَّم على جميع الخلق في أنواع الطاعات، فهو أفضل المحبين لله، وأفضل المتوكلين على الله، وأفضل العابدين له، وأفضلُ العارفين به، وأفضل التائبين إليه، وتوبته أكمل من توبة غيره، ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»(٢).

فمن أراد استنزالَ رحمة الله تعالى والظَّفَرَ بمرضاته، فعليه بالتوبة، فهي المفتاحُ لكل خيرٍ، والسبيلُ لكل غايةٍ كريمةٍ.

وشأن التوبة في حياة صاحبها شأنٌ عظيم، فالتائب حبيبُ الله، قريب منه، بعيدٌ من الشيطان، خفيفُ الظهر من إصر المعاصي والذنوب، طيب النفس، منشرح الصدر، مباركُ الحركات والسكنات ، وذلك من سبل النجاح في الحياة. والتوبة بهذا أمرٌ إيجابيٌ في حياة المسلم لما يترتب عليها من فوائد

---

(١) بدائع التفسير (٢/٤٣٠).
(٢) الفتاوى (١٥/٥٥-٥٦).

ومصالح تعودُ على التائب في دنياه وأخراه. وبالمقابل فإن المعرض عن التوبة والأوبة إلى ربه يلقى في حياته ظاهراً وباطناً من ألوان الضنك والتعاسة، والضيق والشدة، والمذلة والخذلان، ما الله به عليمٌ، وإذا أصرَّ المتمرد على أنه سعيدٌ بتمرده، وأظهر ما يدلك به على هذه السعادة المزعومة، فإنما مثله في حالته هذه مثل طائر مذبوح يرقص لا طربًا ولكن ألمًا من شدة ذبحه.

والتوبة بابُ رحمةٍ واسعٌ، فتحه الله لعباده رحمة منه وفضلاً، وتكرماً وإحساناً، فهي بذلك كما قال ابن تيمية - رحمه الله -: ليست نقصاً بل هي من أفضل الكمالات، وهي واجبةٌ على جميع الخلق كما قال تعالى: ﴿ Zwqß_ $Ygqè% b%. ¼çR) ß»|¡RM}$# $ygn=yJqr
Ì»)ÿ»YßJø9$#r ûüÉ)Ïÿ»ZßJø9$# ª!$# >Éjyèãè Ç9ÈE
'?ã ª!$# >qçGtr Ì».Îô³ßJø9$#r šú üÅ2 Îô³ßJø9$#r
ûüÏZÏBsßJø9$#
Ì»YÏBsßJø9$#r ﴾ (١). فغاية كل مؤمن هي التوبة(٢)، وهي مقامٌ شريفٌ كريمٌ، ولا يستغنى عنها أحدٌ من البشر.

q q q

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (٧٢-٧٣).

(٢) الفتاوى: (١٥/ ٥١) .

شرف التوبة ومكانتها عند الله

ولشرف التوبة وعظيم مكانتها عند الله تعالى فقد طلبها الأنبياء عليهم السلام، قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار: عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم، فقال آدم: ﴿[illegible]﴾(١). وقال نوح: ﴿[illegible]﴾(٢).

وقال الخليل إبراهيم: ﴿[illegible]﴾(٣).

وقال هو وإسماعيل: ﴿[illegible]

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٣).

(٢) سورة هود، الآية (٤٧).

(٣) سورة إبراهيم، الآية (٤١).

﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١). وقال موسى: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء، والله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٤).

ومن أواخر ما أنزل الله على نبيه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٨).
(٢) سورة الأعراف، الآية (١٥٦).
(٣) سورة الأعراف، الآية (١٤٣).
(٤) سورة البقرة، الآية (٢٢٢).

[illegible] (3) ﴾ (١) .

وقد روت السيدة عائشة - رضي الله عنها- قالت: «ما صلى النبي صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿ [illegible] ﴾ إلا يقول: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»(٢).

وقال أبو هريرة -رضي الله عنه -: «اجتهد النبي بعد نزولها حتى تورمت قدماه، ونحل جسمه، وقل تبسمه، وكثر بكاؤه»(٣) .

وقال عكرمة: «لم يكن النبي قط أشد اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها»(٤).

وجاء قول الله تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ (٥) وقوله سبحانه: ﴿ [illegible]

---

(١) سورة النصر. وانظر: الفتاوى لابن تيمية: (١٥/١٥-٥٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه (٤/١٩٠٠) رقم (٤٩٦٧)، ومسلم في صحيحه (٣٥١/١) رقم (٤٨٤).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٢).

(٤) تفسير القرطبي: (٢٣٢/٢٠).

(٥) سورة البقرة، الآية (٣٧).

[illegible] ﴾ (١) بياناً لمقام التوبة وشرفها، وأن نفوس الأنبياء الكرام تعلقت بها، وتوبتهم - عليهم الصلاة والسلام - تليق بمقامهم عند الله تعالى.

قال ابن العربي: «توبة النبي ردُّه من حالة الغفلة إلى حالة الذكر. وتوبة المهاجرين والأنصار رجوعهم من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وانتقالهم من حالة الكسل إلى حالة النشاط، وخروجهم عن صفة الإقامة والتعود إلى حالة السفر والجهاد»(٢) . وقال القرطبي: «توبته عليهم أن تداركَ قلوبَهم حتى لم تَزِغْ، وكذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطبِ ووطنوا أنفسهم على الهلاك، أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم»(٣).

وقد سُئل ابن تيمية - رحمه الله- عن معنى توبة النبي ، والتوبة إنما تكون عن شيء يصدر من العبد، والنبي معصوم من الكبائر والصغائر؟ فأجاب – رحمه الله تعالى-: بأن الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم، ويعظم حسناتهم، فإن الله يحب التوابين ويحب

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٧).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ١٠٢٤).

(٣) تفسير القرطبي: (٢٨١/٨).

المتطهرين(١).

جاء عن عائشة –رضي الله عنها- أنها قالت: «كان رسول الله يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»(٢). الحديث.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما- قال: إنا كنا نعدُّ لرسول الله في المجلس الواحد يقول: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة (٣).

وعنه - رضي الله عنه - عن النبي أنه قال: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة**»(٤).

---

(١) الفتاوى لابن تيمية : (٥١/١٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥١/١) رقم (٤٨٤).

(٣) صحيح، أخرجه أحمد في المسند (٢١/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٦٢، رقم ٦١٨)، وأبوداود في السنن (١٧٨/٢ رقم ١٥١٦)، والترمذي في السنن (٤٦١/٥ رقم ٣٤٣٤). وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٣٠-٢٣١ رقم ٤٨١).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٧٥/٤) رقم (٢٧٠٢).

تعريف التوبة وحكمها

وقبل أن نسترسل في الحديث عن معالم الهدي القرآني في التوبة، وبيان بعض المعاني والدلالات المتصلة بموضوع التوبة. نودُّ أن نُطِل على بعض النقاط الهامة في الموضوع ومن ذلك:

أولاً: تعريفها، فهي: تركُ الذنب لقبحه، والندمُ على ما فرط منه، والعزمُ على ترك المعاودة، وتداركُ هفواته ما أمكنه، وردُّ المظالم إلى أهلها.

ثانياً: وحكمها الوجوب، وذلك أخذاً من ظاهر الآيات القرآنية الكريمة، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١) وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (٢).

وقال جل من قائل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣) وجاءت السنة النبوية تدل على وجوب التوبة ومن

---

(١) سورة النور، الآية (٣١).
(٢) سورة التحريم، الآية (٨).
(٣) سورة الحجرات، الآية (١١).

ذلك قول النبي : «يا أيها الناس توبوا إلى الله»(١) الحديث. قال أبوحامد الغزالي: «اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات»(٢)، وهي واجبة على الفور. وذكر ابن قيم الجوزية «أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرضٌ على الفور، ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبةٌ أخرى وهي توبته من تأخير التوبة»(٣) .

ويبين أبوحامد الغزالي «أن من أراد أن يعرف وجوب التوبة فعليه أن ينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة، فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأنْ يعلم معنى الواجب ما هو واجبٌ في الوصول إلى سعادة الأبد، والنجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنىً»(٤).

وقال القرطبي في تفسيره: «لا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة وأنها فرضٌ متعين»(٥) . وينبغي أن يقدر هذا الحس عند علمائنا بأهمية التوبة، وأنها واجبة على الفور. وشأن العلماء في أمتهم أنهم بما وهبهم الله تعالى من

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.
(٢) إحياء علوم الدين: (٤/٤).
(٣) مدارج السالكين : (١/ ٤٨٧-٤٨٨).
(٤) إحياء علوم الدين : (٤/٤).
(٥) تفسير القرطبي : (٢٣٨/١٢).

سعة العلم وقوة النفس وفراستها، أنهم يستشعرون الخطر على أمتهم أكثر من غيرهم، ومن ثم تجدهم لا يدخرون جهداً في البيان والتنبيه، وذلك كما فعل ويفعل العلماء في هذه الأمة في حثها على التوبة إلى الله تعالى، وبيان شأن التوبة وشرفها، وبيان وجوب المسارعة بها، فالتسويف بها وتأجيلها من المهالك، فليس أضر على الأمة من ذنوبها ومعاصيها.

وهذا أحد علماء هذه الأمة الناصحين لها ابنُ قيم الجوزية -رحمه الله- يحذر أمته من خطر الذنوب والمعاصي فيقول: «وهل في الدنيا والآخرة شرٌ وداءٌ إلا سببه الذنوب والمعاصي، فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب، وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، ومسخَ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّلَ بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى»(١).

وإذا كانت التوبة واجبةً، كان ما يتوصل به إليها واجباً، فمعرفة الذنوب واجبةٌ، أي معرفةُ آثارها وأخطارها القريبة والبعيدة، والعاجلة والآجلة، وبهذه المعرفة يفرُّ المذنب منها ليتوب إلى الله تعالى. والذنوب هي عبارةٌ عن كل ما خالف أمر الله تعالى في تركٍ أو فعلٍ أو قول.

---

(١) الجواب الكافي : (٤٣). وقد أفاض -رحمه الله- إفاضة جميلةً في عد آثار ومضار الذنوب والمعاصي في كتابه الرائع: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي).

شروط التوبة:

ثالثاً: ومن شروط التوبة:

١- الإقلاع عن الذنب.

٢- وتركه.

٣- والندم على ما فات، وعلى ما حصل من تفريط في جنب الله تعالى.

٤- والعزم على عدم العودة إلى ما كان.

٥- مع كراهته واحتقاره.

٦- ورد المظالم والحقوق إلى أصحابها.

٧- وتدارك ما فات، والرسول قال: «الندم توبة»(١). وفي ذلك بيان واضح أنه لابد في صحة التوبة من الندم، وهو ندم باللسان والفعل والحال، وليس هو مجرد ترديد ألفاظ الندم باللسان، وتَصنُّعَ ذلك أمام الناس. ويشعر قول الله تعالى: ﴿ ¾ÙÈÆÔÙÝÆÉÝÚÚ/ÿèÈ‡ †ÍÝÚÚ,ÑÆ
ÆÈHÆÐÆ/ØÄÝÍÆÍÆ/Š@ÕPÍ/šÐ ÍÐ,ØÈÐÆÍ†™ÕÆÍ ﴾

---

(١) صحيح، أخرجه ابن ماجة في السنن (١٤٢٠/٢ رقم ٤٢٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢٤٣/٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وقال البوصيري: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٥٠/٢ رقم ٦٨٠٢).

(١)، أنه لابد من تعويض ما صرفه العبد في عمره في اللهو والمعصية بالعمل الصالح، فالتائب المقلع عن الذنب دون أن يعوض ما فاته بأعمال صالحة لا يرجى فلاحه، فالآية تشترط الإيمان في التوبة، والإيمان قول واعتقاد وعمل، والعمل في الإيمان عمل بالفرائض، وبجميع شعب الإيمان البضع والسبعين قدر المستطاع؛ وهذه الشعب كلها أعمال صالحة فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس.

والإقلاع عن الذنوب وهجرها يجب أن يكون لله تعالى، لا لشيء سواه فإن أقلع عنها لأنها ضارة بصحته، أو بماله، فليس ذلك بتوبة وإنما هو عمل بهوى النفس لا لوجه الله تعالى. قال تعالى: ﴿[illegible]﴾ (٢) ولم يقل: توبوا حفظاً لصحتكم، أو لأموالكم، فمراعاة الصحة والمال، والأولاد، والمصالح العاجلة ليس هدفاً رئيساً للتوبة، وإنما هو أمر ثانوي لا يجوز أن تتجه إليه نية التوبة (٣).

ومن لم يحس بالندم يحرق قلبه على ما بدر منه في حق ربه بارتكاب معاصيه وإتيان مساخطه، فتوبته توبة قاصرة.

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٧٠) .
(٢) سورة التحريم ، الآية (٨).
(٣) التوبة للمحاسبي (٥٢).

إن من شرط التوبة أن يكره المرء ما كان فعله من الذنوب والمعاصي، ويحتقر في نفسه فعله ذلك، أما أن يجد المرء في نفسه ميلاً إلى ذكرياته الآثمة الحرام، ولا يجد في قلبه نفوراً منها واحتقاراً لها فذلك دليل على فساد التوبة.

ومن هذا القبيل ما يظنه كثير من الناس من أن العمل الصالح مع البقاء على الذنوب ينفع الإنسان عند الله، ويقولون: إن هذا في جانب السيئات، وهذا في جانب الحسنات، ولعل ميزان الحسنات يرجح على ميزان السيئات فيفلح العبد غداً عند الله. وقد رد الحارث المحاسبي على هؤلاء موضحاً أن تطهير النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل وأعمال البر الأخرى، والحال أنه مقيم على المعاصي، وفصَّل ذلك تحت أسباب أربعة هي:

أولا - أن قبول الله لأعمال البر من عبد مقيم على المعصية غير مُحَقَّق؛ لأن النفس المشغولة بلذة المعاصي قلما تُخلِص عمل الخير، فضلاً عن أن محل النية – وهو القلب – ملوث بالشهوات، فيستحيل أن يَخلُص العمل الصالح إذا كثر عليه الران (١) من تتابع الذنوب وتشبعه بها.

ثانيا - أن الإنسان مطالب بترك الشر كله، وليس مطالباً بفعل الخير كله؛ وعلى هذا أصبح ترك الشر في المنزلة الأولى الواجبة على الإنسان.

---

(١) الرَّان : كالصدأ يغشى القلب، وكل ما غطى شيئا فقد ران عليه اهـ. لسان العرب (١٩٢/١٣).

ثالثا - أن ترك الشر يوقع الإنسان في الخير من تلقاء نفسه، فالتائب عن الزنا يصبح عفيفاً، والتائب عن الكبر يصبح متواضعاً، والتائب عن البخل يصبح كريماً، والتائب عن الكذب يصبح صادقاً، وهكذا جميع السيئات يتوب منها فاعلها، فيقع في أضدادها وهي فضائل صالحة.

رابعا- لا خير في عمل من أعمال البر خالطه الشر في قلب واحد، فعمل البر إذا خالطه الشر أصبح شرا، والشر شر كله(١).

وبناء على ما تقدم من هذه الأسباب، فإن المحاسبي يرى أن انصراف العبد إلى خصلة واحدة من الشر: يفرغ نفسه للتوبة منها، ويجاهد لاقتلاع جذورها من القلب، ويشغل نفسه بها ليل نهار- مع القيام بالفرائض وحدها- خير ألف مرة من نوافل البر وهو مقيم على تلك الخصلة من الشر، فإذا تاب من هذه الخصلة اتجه إلى غيرها. وهكذا يقتلع جميع الجذور الشريرة من قلبه، فيصبح قلباً خالصاً صافياً، تصدر عنه أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله، وهذا هو معنى الآية الكريمة ﴿[illegible]﴾ (٢) فقدم الله تعالى التوبة - وهي اقتلاع جذور الشر والمعصية من القلب أولاً -

---

(١) التوبة للمحاسبي: (٥٣،٥٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٧٠).

ثم أتبعها بالإيمان، وكأن العاصي يحتاج إلى تحقيق أمنه إلى جوار الله، بدلاً من أمنه في جوار الشهوات التي أفسدت عقيدته في الله، واتبع ذلك بالعمل الصالح، وهو آخر ما يجب على التائب، فالعمل الصالح حينئذ يصدر عن قلب تائب مؤمن، وحينئذ تحل الصفات المضادة لخصال الشر محل خصال الشر، ولعل ذلك سبب تتبدل به السيئات حسنات (١).

ولكن هل إذا تاب العبد عن بعض المعاصي دون بعض، تكون توبته مقبولة؟.

قال القرطبي: «وتصح – أي التوبة – من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه، خلافاً للمعتزلة في قولهم:- لا يكون تائباً من أقام على ذنب. ولا فرق بين معصية ومعصية – وهذا مذهب أهل السنة»(٢).

وقال ابن قيم الجوزية: «والذي عندي في هذه المسألة أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه، فتصح، كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً، فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه أو بالعكس، أو تاب من

---

(١) انظر: التوبة للمحاسبي : (٥٤).
(٢) تفسير القرطبي : (٥/ ٩٠).

تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس فهذا لا تصح توبته: وهو كمن يتوب من الزنا بامرأة، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها»(١).

ومن شروطها أن تكون توبة لله نصوحاً قال الله تعالى: ﴿†ãVÕKHÏW @ÝÏÿYÝ ÍÊÞÞV ÙÏÔÏ ŠéŠ ÏXÏÍ@ ÐÓÏVÏÝVÏ ÈàÏ Ë ŠéŠ[†﴾(٢).

والتوبة بهذا لا ينبغي - كما تقدم - أن تكون من أجْل شيء سوى الله تعالى، كتوبة من تاب من الخمر لأنها أحدثت له تليفاً في الكبد، أو كتوبة من تاب من الزنا لأنه خاف ذهاب بصره، أو صحته، أو خاف أن يصيبه مرض الإيدز، أو مرض السيلان، أو أمراض أخرى، أو لأنه لم يعد قادراً على الزنا بدنياً ومالياً، ويقاس على هذا كله من ترك معصية لغير الله تعالى.

فالتوبة يجب أن تكون حياء من الله، وخوفاً من غضبه، ورجوعاً وأوبةً إليه سبحانه، فهو الله جل جلاله الذي ينبغي أن يتاب إليه وحده.

وإذا كانت توبة العبد لله تعالى حياءً منه، وخوفاً من غضبه، وطمعاً في رحمته ومغفرته، فهل يكفي فيها ذلك؟

إن الإجابة على هذا السؤال تحددها الآية الكريمة من قول الحق تبارك

---

(١) مدارج السالكين: (١/٤٩٢).

(٢) سورة التحريم، الآية (٨).

وتعـــــالى ﴿àVéVZŠ @œÙXÍé ŠéŠ ŠéSÚ∫ ÝÿYŠ@äŠKÝV †ŠéS±P﴾ (١) فقـد وصـفت التوبـة في هـذه الآيـة بأنها نصـوح، وهـذا الوصـف لـه دلالتـه وأبعـاده المتصـلة بحقيقـة هـذه التوبـة، فمـا هـي يـاترى التوبـة النصـوح التي حددتها الآية الكريمة؟ قال القرطبي في تفسيره: «اختلفت عبارة العلمـاء وأربـاب القلـوب في التوبـة النصـوح على ثلاثـة وعشـرين قـولاً»(٢) . وسنورد هنا بعضاً من هذه الأقوال :

١ - قيـل هي التي لا عـودة بعدها إلى الـذنب، كما لا يعـود اللبن إلى الضرع، وروي عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم، ورفعه معاذ إلى النبي (٣) .

٢ - قال الحسن: النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره.

٣ - قال الكلبي: التوبة النصوح: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على أنه لا يعود.

٤ - قال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم.

---

(١) سورة التحريم، الآية (٨).

(٢) تفسير القرطبي : (١٨/ ١٩٧). ومن أراد الوقوف على الأقوال كلها فسيجدها في الموضع المشار إليه.

(٣) انظر : الدر المنثور للسيوطي : (٦/٢٤٥).

٥ - قال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الخلان.

٦ - قال سَرِيٌّ السُّقْطِي: لا تصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين؛ لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله (١).

والذي يظهر من لفظ (نصوح)، وإيثاره دون سواه من ألفاظ أخرى مثل: (صادقة – خالصة – كاملة – تامة) هو أهمية القوة والصدق والإخلاص، والعمل في التوبة حتى كأنها توبةٌ تنصح الآخرين، من خلال مقال صاحبها، وحاله وفعله، والحالُ أنه نصح بها نفسه أولاً.

قال القرطبي: «وأصل التوبة النصوح من الخلوص يقال: هذا عسلٌ ناصح، إذا خلص من الشمع، وقيل: هي مأخوذة من النصاحة وهي الخياطة، وفي أخذها منها وجهان: أحدهما: لأنها توبة قد أحكمت طاعته، وأوثقتها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته ويوثقه. والثاني: لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء الله، وألصقته بهم كما يجمع الخياط الثوب، ويلصق بعضه ببعض»(٢) ا.هـ. وعلى هذا فمدار كلمة (نصوح) تدور على الإخلاص والإحكام فهي توبة خالصة محكمة، وسيظل المدى الذي تشمله كلمة

---

(١) انظر فيما تقدم: تفسير القرطبي : (١٨/ ١٩٧-١٩٨).
(٢) تفسير القرطبي: (١٨/ ١٩٨).

(نصوحٍ) أوسع وأشمل من ذلك والعلم عند الله تعالى.

وقال الإمام النووي: التوبة النصوحُ ما استجمعت ثلاثة أمور:

١ - الإقلاع عن المعصية.

٢ - الندم على فعلها.

٣ - العزم الجازم على ألا يعود إلى مثلها أبداً (١).

والذي يظهر لي - والله تعالى هو العليم بالمراد من كلامه جل جلاله - أن كلمة (نصوح) جاءت شاملة لشروط التوبة التي تكلم عنها أهل العلم بين مكثر ومتوسط فيها، وذلك دليل واضح وبرهان ساطع على عظمة هذا القرآن وسموه، فهو كلام الله عز وجل الذي أحاط بكل شيء علماً.

فالتوبة النصوح هي التي اتسم صاحبها بالفاعلية، والصدق، والإخلاص والعمل،والحرارة، والجد في السير على طريق الأوبة إلى الله تعالى، ومحاولة إصلاح ما فسد، وتدارك ما فات، وكراهية المعصية، ورد المظالم إلى أصحابها. وهكذا شملت هذه الكلمة - القليلة في مبناها، الواسعة في معناها- تلك المعاني وسواها.

ومن شروط التوبة: المسارعة في رد المظالم إلى أهلها، فلا تصح التوبة إلا بردها لأصحابها والخروج عنها سواء كانت عيناً أو غيره. وذلك إن كان التائب قادراً على ذلك، فإن لم يكن قادراً فعليه أن يصدق نيته بالعزم على

---

(١) رياض الصالحين: (٢٤-٢٥).

ردها وأدائها لأصحابها إذا قدر عليها في أعجل وقتٍ وأسرعه.

والحال كذلك فيمن آذى بظلم أحداً من المسلمين بيده أو بلسانه، سواء شعرَ هذا الأحد بذلك أم لم يشعر، فإن على المؤذي طلب السماح والعفو ممن آذاه ظالماً له، فإذا عفا عنه فقد سقط الذنب عنه، وإن أرسل من يسأل ذلك له فعفا ذلك المظلوم عن ظالمه - عرفه بعينه أو لم يعرفه - فذلك صحيحٌ(١).

ومن شروط التوبة: تدارك ما فات. يقول أبو حامد الغزالي: «وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلقٌ بالحال، وهو يوجب ترك كل محظور، وهو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال، وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط، وبالمستقبل وهو دوام الطاعة، ودوام ترك المعصية إلى الموت، وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنةً سنةً، وشهراً شهراً، ويوماً يوماً، ونفساً نفساً، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها، وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها»(٢) إلى أن يقول: «وعد جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك طريق المضادة، فإن المرض يعالج بضده، فكل كلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة

---

(١) تفسير القرطبي : (١٨/ ٢٠٠).

(٢) إحياء علوم الدين : (٤/٣٤ - ٣٥ -٣٦) .

تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد، لا بالحرارة والبرودة»(١).

ملخص شروط التوبة:

ويمكن تلخيص تلك الشروط في ثلاثة أمور هي:

علم، وحال، وفعل. فالأمر الأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت كما حددها الغزالي في الإحياء(٢) وتبعه ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين(٣).

فالعلم هو معرفة ضرر الذنوب وخطرها وأثرها المدمر على حياة الإنسان حاضراً ومستقبلاً دينا ودنيا وآخرة. والإنسان من حيث هو إنسان يقيس أمره فيما يأخذ ويترك بمقياس الربح والخسارة، فإذا علم أن ثمة أمراً ما سيعود عليه بالخسارة الفادحة لا شك في ذلك فإنه سيترك هذا الأمر، ومن هنا تأتي أهمية معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، وأن كل ما يلقاه في حياته من الخذلان، والتسلط من الإنس والجان،

---

(١) إحياء علوم الدين : (٣٤/٤ - ٣٥ -٣٦) .
(٢) نفس المصدر (٣/٤).
(٣) المدارج (١٧٩/١) .

والمذلة والهوان إنما سببه الذنوب، فإذا عرف العبد ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، والمحبوب هنا هو كل ما يريد العبد تحقيقه من فرص تفيده في حياته، وأهمها فرص فعل الخيرات وترك المنكرات، فيحصل للقلب نوع من الندم على ذلك، فإن القلب كلما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفَوِّت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوِّت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث بالحال، وبالماضي، وبالاستقبال، وحصلت حركة مراجعة لحسابات العبد ومواقفه سرتْ في كيانه كله واستولت على مشاعره، وأصبحت لغة القلب هي التي تعبر عن هذه المراجعة وآثارها في النفس، فيقف القلب عندئذ وقفات صارمة مع صاحبه في أزمنته الثلاثة، فإذا تعلق الأمر بالزمن الحاضر، فإن موقف القلب صارم في ترك الذنب الذي كان ملابساً لصاحبه، وكذلك الحال بالنسبة إلى الزمن المستقبل إلى آخر العمر، أما بالنسبة للزمن الماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء.

ولا شك أن العلم بخطر الذنوب وشرورها هو الأساس في تلك الانفعالات التي سرعان ما تحولت إلى أعمال وسلوكيات، ولابد أن يكون هذا العلم في مستوى الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سمومٌ مهلكةٌ، واليقين عبارةٌ عن تأكد هذا التصديق، وانتفاء الشك

عنه واستيلاؤه على القلب[١]. وعلى ذلك فإن هذا العلم بهذا المفهوم أمر أساس في التوبة «فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدي، والثاني غي ينافي قصده وإرادته فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب والاعتراف به وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً»[٢].

وإذا تمكن هذا العلم بخطر الذنوب وآثارها المدمرة عاجلاً وآجلاً ظاهراً وباطناً، نتج عنه انفعال آخر في النفس يأخذ مداه قوة وعمقاً بقدر يقظة القلب عند ذلك، فيسأل المذنب نفسه سؤالاً خطيراً: إذا كانت الذنوب بهذه الخطورة المدمرة، فكيف خُلِّيَ بيني وبينها؟ وأين أنا من عناية الله الكريمة التي تدرك أحبابه إذا أشرفوا على الهلاك؟ وأين أنا من رياح تلك العناية المباركة التي أدركت يوسف – عليه السلام – في ذلك الموقف الصعب، فصرف الله عنه السوء؟ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

وعند هذه الأسئلة الخطيرة يحس المذنب بندم يسري في كيانه كله

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين : (٣/٤).
(٢) التوبة لابن قيم الجوزية : (٦).
(٣) سورة يوسف، الآية (٢٤).

ويستولى عليه، لأنه أحسن أنه عند مواقعة الخطيئة والذنب سقط من عين الله، فخلي بينه وبين الذنب والخطيئة يتخبط في أوحالهما وظلماتهما، وسقوطه من عين الله تعالى ناتج على أنه لم يعتصم بالله عز وجل، فإنه لو اعتصم بالله تعالى لما خرج عن هداية الطاعة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿Ø~ÝWÖ ÏQx .£Ng øÜXÆ ÝŠ ÝWÊW ÕØY± WÅWÝÚW﴾ (١). «فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبداً، قال الله تعالى: ﴿ðÅ ÝÈWø ÜÉÙÜ@ØÅ ÝÊWp ÑÜÉÙWŠ Ø ÕÝ ÑÙÝ± WpE@V SKg± Ý@﴾ (٢) أي متى اعتصمتم به تولاكم. ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله»(٣).

والاعتصام بالله تعالى لا ينشأ من فراغ، ولكنه ثمرة الطاعة لله تعالى والإقبال بحب واعتزاز عليه جل وعلا، مع كمال المحبة والعبودية والذل له جل جلاله وتعاظم كبرياؤه، وتعظيم ومحبة ما عظمه، وتحقير وكراهية ما حقره

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠١).
(٢) سورة الحج، الآية (٧٨).
(٣) مدارج السالكين : (١/٣٣٦).

وأبغضه، والإنابة والفرار إليه مما سواه، فراراً يتلاحم فيه القلب مع الفعل، والعاطفة والشعور، ولذلك فإن مواقعة الذنب والخطيئة والتلذذ بذلك ينافي الإيمان وكماله، قال : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعدُ»(١).

قال ابن قيم- رحمه الله -: «والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحة بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلا قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكابه للذنب وغاضه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام»(٢).

إذا كان العلم بخطر الذنوب والمعاصي شرطاً في حصول الهداية التامة إلى الصراط المستقيم، فإن هذا العلم ينبغي أن يأخذ الاهتمام به مدى واسعاً بين الناس فيقدم لهم في المستويات الدراسية المختلفة خاصة في مراحل التعليم الأولى، فينشأ المسلم منذ البداية وقد حصل عنده هذا العلم، ويعد كتاب ابن

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٤٩٧) رقم (٦٤٢٥)، ومسلم في صحيحه (٧٧/١) رقم (٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مدارج السالكين : (٣٣٧/١).

قيم الجوزية (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) كتاباً مناسباً تقديمه للناس في هذا الموضوع، فقد بيّن - رحمه الله - الآثار الخطيرة المترتبة على ارتكاب الذنوب والمعاصي في أسلوب سهل جميل.

إن كثيرا من الناس لا يهتمون بما تحدثه الذنوب والمعاصي من آثار خطيرة في حياتهم، فهم نيام عن إدراك ذلك، ولكنهم إذا دارت الأيام دورتها وأصبحوا يسددون الفواتير من سعادتهم واستقرارهم وقوتهم، استغربوا ذلك الأمر، وكأن هؤلاء الجهلة خلقوا ليفعلوا ما يريدون، ولم يعلموا أن الله سبحانه وتعالى رتب حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور فيهما في كتابه على الأعمال، ترتب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع، فتارة يرتب الحكم الخبري والأمر الشرعي على الوصف المناسب له - كقوله تعالى -: ﴿
ãVÙ§Ý ÌÈSéÈ ØSÔV †ÙÚS SÞ TÆV ÌÈSÓS †ÚÝ ÝÆV ÌÓT•ÆV †ÙÚÕÆV
-ãÝÚ§ÝŸ †ÙpŽÆK ÑÆV﴾ f û kÌÓ ÊÆV ﴿ (١)، وقوله سبحانه: ﴿
ãþ ŽÝŽÆKŸÚÕy SÞÚÆV †‰Y †ÛV ãŸ TÚÆV †ÙŸÆ KŸÚÕØ SÞ ÙTÆV
ŸÚÕy SÞÚÆV ð³ ¤Kß@ãŸ †ÙÉ ÆÆ ŸÚÕy SÞÚÆV ãSTV^ ã± Ö@
ÌÈS†V{ ÝÑ ÌÆÆV ÿ SÙÑ¥ ÙŸ ß @ÙTV{ †ÚÆV †ÙÚ£ÙÆ KÝ

(١) سورة الأعراف، الآية (١٦٦).

وقوله سبحانه: ﴿ ỳ ŠÆÉßK fû éÙŸ<ÿW ﴾(١) ﴿ þ†Ω ØŠ‰VÏÂ ‚Ö‰V ÄΩ‰Xõ ö@øÕ‰V ÑÙ‰Vå @ÆÖŽV †ÎŸVÆV ﴾(٢) وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال(٣).

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٤٠).

(٢) سورة الجن، الآية (١٦).

(٣) انظر: الجواب الكافي : (١٧ – ١٨).

سبب استخفاف الناس بالذنوب والمعاصي

إن استخفاف كثير من الناس بضرر الذنوب وخطرها يرجع إما إلى الجهل، وإما إلى الاغترار والمغالطة، وأمر الجهل بخطر الذنوب معيب، وهو من صفات الحمقى، وإلا كيف يعرف إنسان مصلحته من مضرته في أموره المعيشية، وهي أمور في النهاية ستفنى بفناء أصحابها، ولا يعرف منفعته ومضرته فيما هو باق وسيلقاه يوم القيامة. وأمر الاغترار والمغالطة يدل على انهزام نفسي وأن صاحبه ضعيف عاجز عن مواجهة أخطائه بشجاعة وصراحة، وهو يظن أن الروغان والهروب من مواجهة آثار الأخطاء والذنوب، وعدم محاولة علاج ذلك في ضوء هذه المواجهة سينجيه من العقاب المترتب على ارتكاب الذنوب والمعاصي، فنرى مثل هذا يلجأ إلى تبريرات واهية مثل قوله: يوم الجحيم ربي رحيم، ورحمته وسعت كل شيء، والله غني عن عذابه، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئاً، ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئاً، ويقول: أنا مضطر إلى رحمة الله، وهو أغنى الأغنياء، ولو أن فقيراً مسكيناً اضطر إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها، فالله أكرم وأوسع، ولسان حال هذا يردد قول بعضهم:

وكثِّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

ومثل هذا وغيره كثيراً ما يرددون قول الله تعالى في الحديث القدسي:

«أنا عند ظن عبدي بي»(١) فهم بزعمهم بمقتضى فهمهم لهذا الحديث سوف لن يعذبهم الله تعالى لأنهم يحسنون الظن به سبحانه، وقد رد ابن قيم على هؤلاء زعمهم ونقض قولهم قائلاً: «ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر، والظلم، والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه وهذا موجود في المشاهد، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به. ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل، وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مساخطه، وما يغضبهُ، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصر عليه، وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات له، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصف به رسول الله »(٢).

وليس معنى ما تقدم أن حسن الظن بالله تعالى مذموم مطلقاً، بل إن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٤٦٩٤ رقم ٦٩٧٠)، ومسلم في صحيحه (٤/٢٠٦١ رقم ٢٦٧٥).

(٢) الجواب الكافي : (٢٣).

حسن الظن إن حَمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح غير مذموم، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو مذموم وهو سبيل المغرورين.

يقول ابن قيم الجوزية: «وحسن الظن هو الرجاء فمن كان رجاؤه هادياً إلى الطاعة، وزاجراً له عن المعصية فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطاً فهو المغرور»(١).

وأما الحال: فهو الأمر الثاني بعد العلم، ولا شك أن حال التائب، أي ظاهر أمره يختلف عن غيره من الناس، فالانكسار لله تعالى والذل له، والندم الذي تظهر آثاره على وجه التائب كل ذلك وسواه مما يطلق عليه ظاهر حال التائب الذي يحس في أعماقه أثر ذنوبه عليه. يقول محمد بن سيرين لما اغتم لدَين ركبه: إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة(٢).

وقد حفل تاريخنا الإسلامي الوضيء بمواقف رائعة تعكس حال التائبين من سلف هذه الأمة ، وتصور عملهم في التوبة . والعمل أو الفعل هو الأمر الثالث من شروط التوبة بعد العلم والحال . والعمل في التوبة جاء الحديث عنه في آيات كثيرة في القرآن الكريم . ولنا معه وقفات عند الحديث عن معالم الهدى القرآني في التوبة.

---

(١) الجواب الكافي : (٣٩).
(٢) نفس المصدر : (٥٥).

q q q

مكانة التوبة عند المسلم وأثرها في نفسه

إن للتوبة مكانة في نفس كل مسلم عاقل؛ لأنه يعلم أنها بداية الطريق ونهايته، وأنه لا سبيل إلى رحمة الله تعالى ومغفرته إلا بالتوبة، ولذلك فإن التوبة تأخذ من اهتمام المسلم وشعوره مساحة واسعة، تفكيراً فيها وعملاً لها، ومصابرةً عليها، وسيراً على طريقها، ودعوةً إليها، وخوفاً عليها، ووفاءً بحقها وشروطها، وفراراً إلى الله تعالى بواسطتها، فالتوبة في النهاية هي فرارٌ إليه سبحانه مما سواه.

والتوبة بهذه المعاني هي طريقٌ لتربية النفس ومجاهدتها، وأطرها على الإنابة لخالقها سبحانه، وهذه المجاهدة لا تتم في يوم وليلة، ولكنها تنمو في كيان المسلم مع تجدد الليل والنهار نمواً يستفيد من خلاله المسلم من أحداث الزمان وأحوال بني الإنسان، وآثار الطاعات والمعاصي فيهم.

فالتائب ليس إنساناً سلبياً في الحياة، ولكنه إنسان يمثل الإيجابية في أعلى مراحلها، وأبهى وأجمل صورها، وأعز وأكرم مواقفها، فقد شرح الله صدره بنور الطاعة له سبحانه والإقبال عليه جل جلاله، ونوَّر قلبه بأنوار الهداية فأبصر الأشياء من حوله، وكأنها على حقائقها، ورأى الدنيا قد كشفت له عن خسائسها، فأدرك حقيقتها في أعماق نفسه، وكأنه على توافق مع مقولة مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز – رحمه الله- إذ

كتب له: «أما بعد، فإن الدنيا دار عقوبة، ولها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، فكن يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه، يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء»(١).

إن العناية بتربية النفس وتهذيبها ومجاهدتها على التحلي بالأخلاق الحميدة الجميلة التي يحبها الله تعالى ورسوله ، إن هذه العناية من أهداف الإسلام النبيلة التي جاء بها الرسول موضحاً لحقائقها، واصفاً لثمراتها وخيراتها دالاً عليها، مكملاً ومتممًا لمكارمها. قال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٢). وكل خلقٍ نبيلٍ في الإسلام، وكل صفةٍ كريمةٍ حث عليها جاءت مؤسسة على التوبة إلى الله تعالى، فالصدق والمروءة والكرم، والعفة والإحسان والرحمة - مثلاً - ليست مؤسسة في الإسلام على هدف مادي أو نفسي، ولكنها مؤسسةٌ على طاعة الله تعالى. وطاعته سبحانه لا تكون إلا بالتوبة إليه، والتوبة هي السبيل التي يُصغِي من خلالها القلب إلى سماع صوت الحق والاهتداء إليه قال الله تعالى: ﴿ ÜÄIŠĚAŽÜÜ @ø Ÿ

(١) إحياء علوم الدين: (٤/٥٦).

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨ رقم ٢٧٣) من حديث أبي هريرة. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١١٢ رقم ٥٤).

ŸWÍÊV ÞEÅWV tÌWRÏŠéSŠ ﴾ (١).

وبغير التوبة يظل القلب مغلَّفاً بالحجب عن ذلك الإصغاء.

وهذا أمرٌ يضع أيدينا على ثمرة من ثمار التوبة العظيمة الكثيرة، والتي تعود على الفرد والمجتمع والأمة بالخير العميم في جوانبه المتعددة حسيةً كانت أو معنوية. فقلب التائب قلبٌ يقظ حاضرٌ، يبصر بفراسته القوية الأشياء إبصاراً لا يتأتى لغيره. ولذلك فإن التائب يتحول عن أشياء ظاهرها النفع ويهجرها، والناس الذين لا يعرفون يستغربون، وربما يقدحون في ذلك العمل؛ لأنهم لا يعرفون عن هذه الأشياء أكثر مما يتعلق بظواهرها. على أنه مما تجدر الإشارة إليه ويتوجب التنبيه عليه في هذا المقام أن التوبة لا تعني توقف الإنسان عن الحركة والفاعلية والإبداع في الحياة، والتمتع بطيباتها الحلال، فمن الناس من يرى التوبة قطعاً لحركة الحياة، وذلك فهمٌ خاطئ تسرب إلى ديار المسلمين عن طريق الاتصال بالنصارى، وبالأجناس الأعجمية، وعلى الخصوص ما تحفل به ديانات بلاد الهند من رهبنةٍ مفرطةٍ وتنسك منحرفٍ، وهذا الفهم الخاطئ ألقى بظلاله على نفوس كثير من المسلمين فأصبحوا يرون أن التوبة هجرٌ لمعاني الحياة، وتجد أحدهم يقول: إنه سيتوب حين يأخذ حظه في التمتع من الدنيا، وذلك حين يخرج من دائرة الشباب إلى دائرة العجز والضعف حين يصبح عاجزاً عن الحركة والقوة والفاعلية في الحياة. إن

---

(١) سورة التحريم، الآية (٤).

التوبة في حقيقتها حياةٌ وحركة وفاعلية وتجدد، وانفعال بالحياة الطيبة وتفاعلٌ معها، وهي تمتعٌ بالحلال الطيب في أجمل صوره وأطيب أحواله، والتوبة هي عنوانُ كل مؤمنٍ وشعاره، فما وجد مؤمنٌ إلا وهو تائبٌ.

وفي قول الله عز وجل: ﴿f û èŸ\YÑ\Ö@ f û é\ŠÑ\Ö@ f û é\ŠÑ\Ö@ f û é\Š{ .Ð\Ö@ f û èŸ\ÙÑ\Ö@ f û é\Š\ÑÖ@ f û è\Ÿ\ÑÖ@ ÖÉ\Ç f û é\Š\ÑÖ@ Ç è\Š\ÑÖ@ Ÿ\ÑÖ@ f û é\Š•@ f û èŸ\ÑÖ@ f û k\ÑéŠ\Ö@ Ÿ\ÑÖ@ èŸ\ÑÖ@ é\Ÿ\ÑÖ@ \ÑÖ@ ÞŠ\Ö@ (١١٢)﴾[(١)] بيانٌ واضحٌ جلي لشأن التوبة وأثرها في وجود الأفعال الحميدة، والصفات النبيلة التي يحبها الله تعالى ورسوله . فقد حوى هذا النص الكريم من كلام ربنا العظيم سبحانه بيان صفاتٍ جليلةٍ نبيلةٍ دلت على نبل وفضل أصحابها، وهي صفات لا يرومها إلا من سمت نفسه وعلت همته، والملاحظ أن هذه الصفات قد صدرت بصفة التوبة دليلاً على أنها هي المفتاح لأبواب الخير والكمال، ودليلاً على أن التوبة تأتي بالعبادة والحمد، والصوم والركوع والسجود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله، ودليلاً على أن التوبة، هي بداية طريق المؤمنين الذين هذه بعض صفاتهم.

q q q

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٢).

من صفات التائبين

إن النص الكريم من قول ربنا عز وجل ﴿[illegible]﴾(١) يدل على أن التوبة حركةٌ وفاعليةٌ في الحياة وإيجابيةٌ فيها. وذلك لأن مجيء صفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله إلى جانب ما سبقها من صفاتٍ دليلٌ على ذلك، فلو ورد النص الكريم مثلاً مقتصراً على الصفات السابقة لصفاتِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله لأمكن القول بأن التوبة أمرٌ يتصل شأنه بصاحبه لا يتعداه إلى سواه، فالعبادة والحمد والصوم، والركوع والسجود، هي أفعال وصفات تتصل بمن يقوم بها أو يتصف بها، ونفعها عائد إليه، وبهذا المعنى فالتائبون، العابدون الحامدون، السائحون الراكعون، الساجدون هم قومٌ يعيشون لإصلاح أنفسهم ولا علاقة لهم بسواهم، فالتوبة بهذا الاعتبار وما جاء بعدها هي أمور بين الله تعالى وبين هؤلاء العباد المتصفين بها ولكن مجيء الصفات التالية من الأمر بالمعروف، والنهي عن

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٢).

المنكر، والحفظ لحدود الله بيانٌ واصف كاشف على أن التائبين لا يعيشون لإصلاح أنفسهم فقط، بل ويعيشون لإصلاح غيرهم أيضاً، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليلٌ على الإحساس بالمسئولية تجاه الآخرين وهي مسئولية لها شأنها وأثرها في الإصلاح، والنفوس التي تتعلق بها وتحبها هي نفوس همتها عالية، وغايتها نبيلة شريفة كريمة، فهي نفوس رجالٍ يحبون الخير لغيرهم، ويبذلون من أجل ذلك الجهد الكبير، ويضحون براحتهم، وهكذا يكون صنيع المؤمنين أينما كانوا وحيثما حلوا .

والأمة إنما يقوم كيانها على الرجال وليس على أشباه الرجال.

والصحابة الكرام - رضي الله عنهم - كانوا طلائع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الأمة، فكانوا الرجال الذين أقاموا كيان الأمة العظيم، الذي كان ومازال وسيظل بعون الله تعالى كياناً شامخاً قوياً لا تؤثر فيه معاول شياطين الجن والإنس، ويزداد مع الأيام قوة وصلابة.

والله تعالى وصف هؤلاء الصحابة الكرام بالرجال وصفاً يشمل كل ما تدل عليه هذه الكلمة (رجالٌ) من معانٍ وأبعادٍ ودلالاتٍ بما يدل على قدرهم وفضلهم، وقوة نفوسهم، وعلو همتهم وتعلقهم بكل ما يرضي الله تبارك وتعالى ويرضي رسوله . قال سبحانه: ﴿ †ÚVÑ ÓSÝVÙÅVÅ Ô†ÅVÅZ

ØSÝÙVÑ ÅSÝV™ VÙø ÝVÎVÝ ÚØSÝÙVÝVÅ~ÙVÅVÅ@ÑÙSÅVÅV

ØÚÝ×ÚÅ•¥ÔŠèŠÚ×ŠÞÕŠèÑŽ‰Ÿÿ¾ ﴾(١).

فالتائبون إذن هم أناسٌ كبحوا جماع نفوسهم وسيطروا على شهواتهم وغرائزهم، فأصلحوها بالتوبة، ونشروا الصلاح في مجتمعهم فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. وحبُّ المعروف والأمر به، وكراهية المنكر والنهي عنه دليل الخير والنبل والشرف والطهر في النفوس، ودليلٌ واضح وبرهان ساطع على قوة الإيمان ونوره في نفوس أصحابه.

وتأتي بعد صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة الحفظ لحدود الله، وهي تعني حفظ معالم الدين في ذات النفس أي أنهم يحفظون حدود الله في أنفسهم فلا يتعدونها، ولا يرضون تبعيتها من غيرهم، ومعنى ذلك أن معنى التوبة وحقائقها قد أخذ عمقه في نفوس هؤلاء المؤمنين حتى لكأن التوبة معنى قائمٌ بهم فهم التائبون. وكذلك العبادة فهم العابدون، وقل ذلك في باقي الصفات التي وصفوا بها، والتي جاء الوصف فيها على صيغة اسم الفاعل المسند إليهم دليلاً على أنهم قد حققوا تلك المعاني والصفات في نفوسهم فأصبحت جزءاً منهم، وجاء ترتيب هذه الصفات في الذكر بناءً على ترتبها وترتب أثرها فيما بعدها في الوجود. فالتوبة هي باب الدخول إلى ما بعدها، والعبادة والحمد والصوم والركوع والسجود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله كلها مبنية على التوبة، فغير التائب هو إنسانٌ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٢٣).

ظالم بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ ð ÏMÅ¯ÏèøRÊp ô SÜW/ØÐÝÚ/ÙÈ
ÙÊéÙÒÎ ö@ÎøŠ ﴾ (١) والتائب مسالمٌ لربه وخالقه، وغير التائب محاربٌ له، فكيف يتأتى لظالم محارب التحلي بهذه الصفات الكريمة التي وردت وصفاً للمؤمنين بعد وصفهم بأنهم التائبون، ومن تاب إلى الله وأناب إليه فسيعبده، لأن أول دلائل التوبة العبادة، والعبادة هي طريق المعرفة لله تعالى، والصلاتُ مبنية على الصفات، وإلا فكيف يمكن أن تكون العبادة صحيحة بغير معرفةٍ للمعبود، ومن شأن العبادة الصحيحة التي يتربى بها المؤمن على العبودية لله تعالى أن يكون لها أثرها الواضح في وجود الشخصية المؤمنة التي تعرف ما وجب لله تعالى عليها من حق الحمد والثناء بما هو أهله، لأنها تدركُ عن معرفة صحيحة أن نعم الله تعالى ظاهرةً وباطنة لا يحاط بها ولا تحصى بنص قوله تعالى: ﴿ Ÿ @ŒÈÙÅYNèÇQŠŠZÜÑŸV
†ÞÅéS ™TŠ,W ﴾ (٢) ففي ساحة الحمد لله تعالى تعبيرٌ صادقٌ عن الإقرار والاعتراف له سبحانه بنعمه وسائر أفضاله التي لا يحصيها لسان محصٍ من خلقه، فلا يُحمد حمداً مطلقاً إلا الله جل جلاله الذي له سبحانه صفات الجلال والكمال. وهو عز وجل يحمدُ على صفاته الجليلة العظيمة. قال تعالى: ﴿ @ÐÙWÙŸÑÈ@ÈŒY ÷ VŽÙÒ@ÖÈÙÈ .g

(١) سورة الحجرات، الآية (١١).

(٢) سورة إبراهيم، الآية (٣٤).

وقال سبحانه: ﴿ ÞÞ @ ÚÛ 0 âW ÜW ÃB@ ÍÛ ö ÖÛ 0 @ÔÛ Ï ÑÛ 0 @ÉÇ ÀRŽ ﴾(١) ÝÑÛ ÕŒ ÜW ÖÛ ìX ÊÌ ÞÞ @Ý Ð ÙÛ ÔÜ Ï Ý ÜW ÷ ÑÛ ÉÛ ÜW Ñ âV ÜÝ ÜW ÜV ÝÔÛ Ö ÜÛ ÅÛ ÝŽ ÜV ÑÛ ÄÛ ÜV Ý Ð ÎÛ ÜW @Ý ÞÛ ÀÛ ÜV ÝŽ ÜV ﴿ ÜV ÞÛ ÓÛ ÐÛ ÀÛ ÉÛ ÄÛ ÙÛ ÎÛ ÚÛ ÐÛ 0 @Ý ÜV ÄÛ ﴾(٢).

وإنه حين يتأمل المتأمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ @ÜWÞ ÇÛ ÞÚ é ûf @ 0 ÜWÞ ÇÛ ÐÛ é ûf @ÜÛ ÛÛ ÐÛ Ÿ è ûf @ÜW ÔÛ ÜW ÔÛ Ÿ è ûf @ÜÝ ÑÛ Þ ÂÛ ÜW è ûf @ ÚÝ ÙÛ ‚ ÜV ÝŽ ÜV ÜW ÝÛ ÖÛ ÜW @ÝÛ è ÇÛ Ñ @ÜW ÅÛ ÙÛ ÃÛ ÜV ÝŽ ÜV é ûf @ÝÛ ÍÛ Ü ÀÛ ÜW ÃÛ ÐÛ Ÿ ÜV ÝŽ ÜV Ÿ ÜV ÃÛ è ÍÛ ÁÛ @ ÜW ÄÛ ÞÛ ÂÛ Ÿ ÜV ÝŽ ÜV ÑÛ ÜV Ÿ ÜW ÑÛ ÓÛ ÐÛ ÞÛ ÜV ÝŽ ÜV ÝÛ ÀÛ ÉÛ ÄÛ ÜW @ÝÛ Ý ÑÛ 0 ÜV ÝŽ ÜV ÃÛ è ÍÛ ÁÛ @ÜV ÄÛ ÛÛ ÜV ÝŽ ÜV ÝÛ ÀÛ ÉÛ ÄÛ ÜW @ÝÛ Ý ÑÛ 0 ÜV ÝŽ ÜV ÃÛ è ÍÛ ÁÛ @ ÞÛ ÂÛ ﴾(٣) ويقف عند كل صفة من هذه الصفات الكريمة الجليلة وكأنها تشكل حبات عقد لؤلؤي جميل يتلألأ جمالاً وضياءً، وقد نظمت في هذا العقد البهي نظماً، اتصل بحقائق هذه الصفات، ووجودها، وأبعادها وآثارها يدركُ عن يقين وتسليم بأن هذا كلام مَنْ علم غيب السموات والأرض وأحاط بكل شيءٍ علماً جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته، فالترتيب في ذكر هذه الصفات مقصودٌ، كما أشرنا، وله دلالاته وأبعاده المتصلة بوظيفة كل صفة وأثرها في وجود ما بعدها، فهو

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١).

(٢) سورة الإسراء، الآية (١١١).

(٣) سورة التوبة، الآية (١١٢).

ترتيبٌ مقصودٌ، والبشر لا يحسنون مثل هذا فهم لا يستطيعونه، فالبلغاء منهم وإن ملكوا ناصية البيان إلا أنهم عاجزون تماماً عن معرفة الأسرار والحكم المتصلة بحقائق الأشياء سواء كانت أشخاصاً، أو أفعالاً، أو صفاتٍ، ومعرفة الآثار المتصلة بذلك كله، سلباً وإيجاباً، عاجلاً وآجلاً، ظاهراً وباطناً، والذي يعلمُ ذلك كله وسواه هو الله تعالى خالق الخلق والعليم بأسرارهم، وأحوالهم، وصفاتهم ﴿ SKYAVÄ@ÈÈ ~YW@ÉSÈVÌÏZV ÝÚVSÅJV,VK ﴾ (١).

q q q

---

(١) سورة الملك، الآية (٣١).

التوبة وحقائق القرآن

ومن ثم فإننا نضع أيدينا على حقيقة هامة من حقائق القرآن الخالدة. هذه الحقيقة التي ينبغي أن يعيها كل مسلم يتعامل مع كتاب الله تعالى هي أن القرآن كتاب حقائق ثابتة خالدة لا تتبدل، ولا تتغير ولا تضعف، ولا تشيخ، ولا يطويها الزمان، ولا يُبْليها المكان، ولا يتحايل عليها الإنسان، فحقائق القرآن أقوى من الزمان والمكان، وأقوى من حيل الإنسان، فالقرآن هو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد عليم، ومن ثم فكل شيء في القرآن الكريم من ترتيب، أو تقديم أو تأخير، أو وصفٍ، أو حذف، أو إضافة أو غير ذلك من أنواع الخطاب القرآني الكريم له دلالاته وأبعاده، وحقائقه المتصلة بذلك الشيء ظاهرا وباطناً، عاجلاً وآجلاً، مما علمنا منه شيئاً وجهلنا منه أشياء، والله تعالى هو العليم بمراده من كلامه، والعلم عنده سبحانه.

وينبغي على المسلمين في هذا العصر - عصر المعارف والعلوم - أن يعدوا أنفسهم للدخول إلى منافذ المعرفة القرآنية الخالدة، فإنه لا توجد اليوم أمةٌ من الأمم بيدها كتابٌ يحوي حقائق الوجود كله وحقائق الدين، والدنيا والآخرة، إلا أمة محمدٍ ، وهي بذلك تستطيع أن تسوق غيرها من الأمم سوقاً إلى حيث تريد. فالأمم الغربية تنفق مئات البلايين من أموالها على

موضوع يتصل بأمة أخرى في شأن من شئونها، ومع ذلك فإن ما تصل إليه في النهاية لا يصل إلى الحقيقة الثابتة التي لا تتغير، وهب أنها وصلت إلى شيء من ذلك، فهو أمرٌ لا يعدو أن يكون موقوتا لا يستمر وذلك أن عوامل التغيير التي تطرأ على بني الإنسان وعلى زمانه، وأحواله تجعله عرضةً للتغيير، فما ثبت عن أمة اليوم ليس بالضرورة أن يكون ثابتاً إلى ما لا نهاية. وذلك أن بحوث البشر واستبياناتهم واستنتاجاتهم وكافة جهودهم لا يمكنها أن تقف على الحقيقة المطلقة الثابتة، لأنهم وإن علموا ظاهراً من ذلك، فإن علم ما خفي عليهم هو أعمق وأكثر، وهم قد علموا ذلك الظاهر المتحول الآن، فماذا بعد الآن؟ وماذا عن الغد وعن المستقبل؟ وفي النهاية فهم لم يخلقوا شيئاً حتى يمكنهم معرفة القوانين التي تحكمه، بل هم مخلوقون مثل غيرهم، وشتان مابين الخالق ومخلوقاته فما يصدر عن الخالق جل وعلا كله حقائق ثابتة كاملة خالدة، لأنه سبحانه العليم بأسرار وقوانين خلقه، فإذا أخبر سبحانه عن خلق من خلقه بأن صفته كذا وكذا فذلك هو الحق الثابت الذي لا يتغير، وهو الذي يعبر تماماً عن حقيقة ذلك المخلوق مهما حاول هذا المخلوق أن يمثل على الآخرين، أو يعمد إلى استعمال إمكانيات تجعله يخفي على الناس حقيقته، فلا عبرة في إدراك هذه الحقيقة ومعرفتها بميزان البشر غير المؤمنين، فهو ميزان يميل حسب المصالح والأهواء؛ فمثلاً نجد القرآن الكريم يكشف للمؤمنين حقيقة من الحقائق المتصلة بالعلاقات بين أفراد عدوهم وذلك قول الله تعالى ﴿ [illegible]

øÑÑV ﴾ (١).

إن الحقيقة القرآنية الخالدة في هذا القول الكريم هي أكبر من كل تمويه أو تمثيل يقوم به العدو لإظهار العلاقة بين أفراد مجتمعه بغير ما بيَّنَ الله تعالى في كتابه الكريم، وهي أكبر من كل ما يحسبه الناس بحسب ما يظهره العدو الذي يجيد فن التمويه والتمثيل والخداع إجادة كاملة فالحسبان بأن مجتمعه مجتمع متآلف، راجع إلى غيرهم الذي وقع في شراك التمويه، والخداع والتمثيل، ولذلك كان التعبير الكريم ﴿ †Å~ðÝ ỳ ãÑÑÕ ñ﴾ وفرقٌ كبيرٌ بين ما يحسبه الناس، وبين ما هو حق ثابت خالد.

ومجال الحقائق القرآنية مجال رحب واسع قد آن لأمة الإسلام أن ترتاده حتى تقف على قدميها وقفة حق وصدق لا تؤثر فيها رياح التضليل والخداع والتشكيك التي عصفت بها طويلاً، لتكون بهذه الوقفة قادرة بعون الله تعالى على استخراج كنوز المعرفة القرآنية، والوقوف على أسرار هذه المعرفة بإدراك الحقائق القرآنية في شتى مجالات الحياة: سياسة واقتصادا، تربية وتعليماً، وبناءً وتشريعاً، وتزكيةً، وقوة، وجهاداً، وسبيلاً لحياة عزيزة كريمة يتصل سبيلها بسبيل الحياة الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ øÛêÑÔ@ÑÑÑÝ›„ Û†ÑÑÜÑÑV (13) ﴾ (٢).

---

(١) سورة الحشر، الآية (١٤).
(٢) سورة الليل، الآية (١٣).

إن التوبة إلى الله تعالى والإنابة إليه سبيل الوصول إلى إدراك الحقائق القرآنية، والوقوف على المعرفة القرآنية في شتى المجالات، وقد بينا أنه آن الأوان لأمة الإسلام أن تهيئ نفسها لاستشراف آفاق هذه المعرفة، وإدراك تلك الحقائق. ونبين هنا أن ذلك كله لا يتم للأمة إلا بأوبتها إلى خالقها أوبة تشمل سائر مجالات حياتها وليس مجال العبادة الظاهرة فقط.

وتأسيسا على ما تقدم بيانه، فإن حقيقة التوبة في القرآن الكريم ثابتة لا تتغير، وهي حقيقة تتصل بشأن التوبة، وأثرها الفاعل في حياة أصحابها، أثرا يعود بالخير العميم العاجل والآجل، عليهم وعلى مجتمعهم، وعلى أمتهم، وعلى الإنسانية، فحين نقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿ÿ ÑÏWÖÄ f û éSÿèÙö@ãYÅ[Å~Ÿ Ÿ @øÜÏMÖšèSèv éSÑÏÉŠ f û﴾ (١) ندرك حقيقة قرآنية ثابتة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي أن التوبة من صفات المؤمنين، فالأمر بها جاء موجها إليهم. وأن الفلاح متحقق بتوبتهم توبة جماعية.

والقرآن الكريم في دعوته للتوبة وبيان أثرها المترتب عليها يخاطب جميع المؤمنين وليس الأفراد وحدهم، فهو يدعو إلى التوبة الجماعية التي تعود من خلالها الأمة - وفي جميع مجالات حياتها - إلى الله جل جلاله دليلاً على أهمية هذه التوبة وشأنها وبياناً للآثار المباركة المترتبة عليها، وهذا معلمٌ من

(١) سورة النور، الآية (٣١).

معالم الهدي القرآني في الدعوة إلى التوبة، حيث يركز القرآن على الدعوة إلى التوبة الجماعية في خطابه، فلم يرد في القرآن الأمر بالتوبة موجهاً إلى الفرد. وعلى ذلك فلابد للأمة من التوبة الجماعية حتى يرفع الله عنها ما تعانيه من الشدة والضيق في حياتها، وتتهيأ بذلك إلى سبل الفلاح والنجاح مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿f û éSŸëÙè@àŠÿ[Å~Ÿ Ÿ@ø¼ÜàkŠéŠŸV f û éSŸÕÉŠ ỳÑÐÜ (٣١)﴾ [1] والفلاحُ هنا معنى عام يشمل الفلاح في الظاهر والباطن، ويشمل ما يتصل بحركة المؤمن في حياته العاجلة، وما يتصل بشأنه في حياته الآجلة.

وأول منازل هذا الفلاح معرفة الله تعالى معرفة تؤدي إلى الفوز بمرضاته، وذلك أن هذه المعرفة هي بداية كل خيرٍ، وقوام كل معروفٍ، وأساس كل صلاحٍ وفلاحٍ وعمرانٍ. وسائر المشاكل التي تملأ حياة الأمة الإسلامية اليوم على المستوى الفردي، والجماعي، إنما هي ناشئة عن الجهل بالله تعالى، والمشاكل في حياة الأمة تنشأ عن المعاصي والذنوب. وتحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور. وما عصى الله تعالى إلا جاهلٌ به وبحقه سبحانه وتعالى، ولسوف تزداد المشاكل المعقدة في حياة الأمة كلما ازداد جهلها بالله تعالى وازدادت معاصيها وذنوبها بناءً على ذلك.

وبالتالي فإن هذه المشاكل سوف تقل كلما ازدادت الأمة معرفة بربها

---

(١) سورة النور، الآية (٣١).

وخالقها، بل وربما تلاشت كلية بقوة هذه المعرفة ونورها.

إن معرفة الخلق لربهم هي أساس وجودهم بنص قول الله تعالى: ﴿ÜèŠSÅ¬W, FMö ß,XMÝMÓÝ ë@ŒÍÎÑŽ†ÚWV﴾ (١) وقد فسر بعض أهل العلم العبادة هنا بالمعرفة أي: إلا ليعرفوني(٢) ولا شك أن لازم المعرفة: العبادة، فمن عرف الله عبده وأطاعه. والتوبة هي بداية الطريق في العبادة بنص قوله سبحانه وتعالى: ﴿f û èŠYÅÄ@û éŠXMÄ@﴾ (٣) الآية.

فللتوبة منزلةٌ ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرحٍ يقدر، كما مثَّله النبي (٤) بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة، بعدما فقدها، وأيس من أسباب الحياة، ولم يجئ هذا الفرح في شئ من الطاعات سوى التوبة ومعلومٌ أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ونفسه ومشاعره وعواطفه، وحياته كلها، تأثيرا لا يسعه رحب الأرض الواسع، عداً لآثاره ولا يحيط به وصف واصف، «فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية،

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

(٢) انظر : تفسير القرطبي (٥٦.٥٥/١٧) .

(٣) سورة التوبة، الآية (١١٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٣) رقم (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

فيصير حبيباً لله، فإن الله يحب التوابين»(١).

والتوبة الصادقة من أفعال المتقين، والمتقون موعودون من الله بالعلم والتعليم بنص قوله سبحانه: ﴿ ÙŠØ¹Ù„Ù…ÙƒÙ… Ø§Ù„Ù„Ù‡ ﴾ (٢) وتقوى الله تعالى تبدأ من نقطة التوبة له سبحانه، والقرآن الكريم بين أن الله تعالى يؤيد المتقين بمعرفةٍ نورانية في قلوبهم يمكنهم بواسطتها التفريق بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وهو أمرٌ لا يتأتى لغيرهم؛ قال الله تعالى: ﴿ ÙŠÙŽØ§ Ø£ÙŽÙŠÙ‘ÙÙ‡ÙŽØ§ Ø§Ù„Ù‘ÙŽØ°ÙÙŠÙ†ÙŽ Ø¢Ù…ÙŽÙ†ÙÙˆØ§ Ø¥ÙÙ† ØªÙŽØªÙ‘ÙŽÙ‚ÙÙˆØ§ ﴾ (٣) الآية، كما بين القرآن الكريم أن الله تعالى يجعل للمتقين في قلوبهم قوة نورانية تهديهم في سيرهم إلى أقوم طريق وأشرفها قال سبحانه ﴿ ÙŠÙŽØ§ Ø£ÙŽÙŠÙ‘ÙÙ‡ÙŽØ§ Ø§Ù„Ù‘ÙŽØ°ÙÙŠÙ†ÙŽ Ø¢Ù…ÙŽÙ†ÙÙˆØ§ Ø§ØªÙ‘ÙŽÙ‚ÙÙˆØ§ Ø§Ù„Ù„Ù‘ÙŽÙ‡ÙŽ ÙˆÙŽØ¢Ù…ÙÙ†ÙÙˆØ§ Ø¨ÙØ±ÙŽØ³ÙÙˆÙ„ÙÙ‡Ù ÙŠÙØ¤Ù’ØªÙÙƒÙÙ…Ù’ ÙƒÙÙÙ’Ù„ÙŽÙŠÙ’Ù†Ù ﴾ (٤).

فالتوبة هي بداية الطريق لإدراك حقائق القرآن الكريم، وارتياد آفاق المعرفة القرآنية، كما بينا سابقاً، وعلى ذلك فإن التوبة تمثل في حياة الأمة

---

(١) مدارج السالكين: (١/٥٢٧- ٥٢٨).
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٢٩).
(٤) سورة الحديد، الآية (٢٨).

الإسلامية ضرورة من الضروريات الأساسية في حياتها، فهي سبيلها إلى العلم والمعرفة بالقرآن الكريم، وهي سبيلها إلى التمكين والقوة والمنعة في الحياة، قال تعـــــالى: ﴿ ãŸ ÜWXÆÌ ŠéŠ ØQR ÿ ÑÏÜW ÌéŠÝá ¼Ûª @ÜÜÆV ÔÖR g èÜÆV ø ÜÖÆÔÛ Ôf — Kø ÜWXÆ Þ ÔÆV †Å HÜÖØ ÑÅ RÜÆ ǀ ÉÜÔµ ÊÆÛµ ÊÆV ÷ Ý ﴾ (١). وقـــال ســـبحانه: ﴿ Xé ÚÜÆV ø†ÜÏ Ö @ÔÝ ÝéŠ ãŸ ÜWXÆÌ ŠéŠ ØQR ÑÏÜW ÌéŠÝá ¼Ûª @ ÜÆV ØÑ ÝÖÔ øÜWXÆÔ ØS ` ÆÜÆV ¤ _ ÆÝÖØS ~ÜÆV ﴾ (٢) الآية.

والتوبة كما يقرر ابن قيم - رحمه الله - «لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها: الرجـوع إلى الله بسـلوك صـراطه المسـتقيم الـذي نصـبه لعبـاده موصـلاً إلى رضـــوانه، وأمـــرهم بســـلوكه بقولـــه تعـــالى: ﴿ ÆÜÆV ÅÜÆV ... ØÝ ÔÖÔ @ÔÆÖ ÜÆV ÆÖ ÆÆ @ÜÆV Ù ~ÝÆÔ ﴾ (٣)، وبقوله: ﴿ ÜÆV ÔÆÔ ÝàÆÆ ÝÆV ØÜÆ ... ÝÜ ÔÆ (٥٢) ÝÆ @ÝÆ ... ÝÆV ÷ ÝÆ @ ﴾ (١)، وبقوله:

---

(١) سورة هود، الآية (٣).

(٢) سورة هود، الآية (٥٢).

(٣) سورة الأنعام، الآية (١٥٣).

(١) سورة الشورى، الآيتان (٥٢،٥٣).

﴿ ŠãËYÔ ãóÐ@ Ö ôg ýÚ Û@ ïäé÷ ŠãËYÔ ãóÐ@ ø
ãg. @ Y÷Ó¹àÌ~ Ÿ ﴾ (١).

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلا إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة، رجع إليه في المعاد بالثواب، وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿ ÚÜÝÞ ŽÝ † å ÔÙÛÚ ÖÒÝ ™_† ÊÔÝØÕ ÝØáSÙ é ÍÙÛÖ@ ŠÙÙ‡ÒÔ ŽÞ† ﴾ (٢)، قال البغوي وغيره: ﴿ ÝØáSÙ é ÍÙÛÖ@ ŠÙÙ‡ÒÔ ŽÞ† ﴾ : يعود إليه بعد الممات متاباً حسناً يفضل على غيره» (٣).

---

(١) سورة الحج، الآية (٢٤).
(٢) سورة الفرقان، الآية (٧١).
(٣) التوبة لابن القيم: (١٤٢).

حاجة المكلفين إلى التوبة

إن التوبة لا يستغني عنها أحد من الثقلين، والإنسان محتاج إليها احتياج الحي إلى الحياة، فلا حياة إلا بها، ولا خير إلا من طريقها، ولا فلاح إلا بتحصيلها، وذلك أن التوبة هي الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوعٌ من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علّق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها فقال: ﴿ †[Å~Ÿ Ÿ @ø ÜWXlé ŠéŠèV
﴾ « (٣١) f û éŠ'ÕÉŠ ỳ ÑÑWV f û éŠé èŠé @ÕÙK (١).

فكل تائب مفلحٌ، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه. وقال تعالى: ﴿ ØŠ Ð ÌÑÕéÑ Êp ŠÜØÝÚV
﴾ « (١١) ÜéŠÒÕ Ö@ (٢) وتارك المأمور به ظالمٌ، كما أن فاعل المحظور ظالمٌ، وزوال اسم (الظلم) عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين.

وبناء على ما تقدم فإن ابن قيم الجوزية - رحمه الله - يرى أن الناس قسمان: تائبٌ، وظالمٌ ليس إلا، فالتائبون هم العابدون الحامدون السائحون الراكعون، الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود

---

(١) سورة النور، الآية (٣١).

(٢) سورة الحجرات، الآية (١١).

الله، فحفظ حدود الله: جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور(١).

وكثير من الناس يرى أن التوبة تكون من الذنوب خاصةً، وهذا فهمٌ سطحي لمعنى التوبة، وقصرٌ لها على أضيق أبوابها، فالتوبة معنى واسعٌ شامل، يتصل بحركة المسلم في حياته كلها، فهي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخلٌ في مسمى (التوبة)؛ وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله مَنْ فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه، ويدخل في مسماها: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر، والتوحيد جزءٌ منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها(٢).

وإذا كان شأن التوبة ما نبه إليه ابن قيم - رحمه الله - ، فقد انتهى إلى نتيجة مفادها: أن أكثر الناس لا يعرفون قدرها وحقيقتها فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسمٌ جامعٌ لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الربُّ تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس

---

(١) انظر: مدارج السالكين: (١/٥٤٠-٥٤١).

(٢) انظر: المصدر السابق..

من المقامات والأحوال هو تفاصيل (التوبة) وآثارها(١) .

وعلى ذلك فالتوبة في حياة المؤمن ليست أمراً عابراً لا ارتباط له بحياته إلا في أحوالٍ معينة، بل إنها جزءٌ من كيانه، ومشاعره، وعواطفه، لا ينفصل عنها، حالاً ومقالاً وفعالاً . ولعل هذا المعنى يوقفنا على ما كان عليه سيدنا رسول الله ، وهو إمام التائبين في حياته من ملازمةٍ للتوبة حالاً ومقالاً وفِعالاً، فكان لسانه ينطق معبراً عما استقر في أعماق نفسه من التوبة لله تعالى وطلب مغفرته، فقد روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما- قوله: إنا كنا لنعدّ لرسول الله في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم قوله: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور**»(٢).

والحال أن الله تعالى قد غفر لرسوله ذنبه ما تقدم منه، وما تأخر. فالمكلَّفون كلهم في مقام الاحتياج للتوبة إلى الله تعالى، ولا تخلو ساحة واحد منهم من ذلك الاحتياج، وهي ليست توبة واحدة، ولكنها مختلفةٌ باختلاف أحوالهم.

وقد بيَّن الغزالي - رحمه الله- في «الإحياء» أن الإنسان لا يخلو عن معصيةٍ، ولو خلا عن معصية الجوارح لم يخل عن الهمِّ بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن

---

(١) انظر: المصدر نفسه: (٥٤٢/١).

(٢) سبق تخريجه .

ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه لم يخلُ عن غفلةٍ وقصورٍ في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقصٌ، ولا يسلم أحدٌ من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك فلا بد منه (١).

وعلى ذلك فالتوبة لابد منها لكل مسلمٍ مهما كانت مكانته في الطاعة والعبادة والتقرب من الله تعالى، لأنها - أي التوبة - سترٌ وكمالٌ وجبرٌ لنقص المسلم المكلف بها ؛ لأن الإنسان في أصل خلقه ميال للشهوات، ولو ترك لذلك بغير توبة لهلك، وذلك أن كل شهوةٍ اتبعها الإنسان ارتفعت منها ظلمةٌ إلى قلبه، كما ترتفع عن نَفَس الإنسان ظلمةٌ إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صارت رَيْناً، كما يُصْدِئُ بخارُ النَفَس وجه المرآة عند تراكمه عليها، كما قال تعالى: ﴿ ŲŐ ĮŎ ÔŴŲ ÜŴŲ ŲŴŨø ŜŠéŸăxØŲ† ŲòŠŜéŴŸÑŜØŠéŲ (14) ﴾(٢) فإذا تراكم الرَّيْن صار طبعاً(٣).

إن التوبة من معالم جهاد المسلم لنفسه وشهواته، وسيئاته؛ ولذلك فينبغي أن تأخذ التوبة مكانتها وحظها في النفوس، اهتماماً بشأنها، وتعظيماً لأمرها، وإخلاصاً في العمل بها، وإقبالاً عليها،

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/١٠).

(٢) سورة المطففين ، الآية (١٤).

(٣) انظر: الإحياء (٤/١٠) .

ومتابعة لها، وتفقداً لأحوالها ومراجعة لسيرها وأثرها، وهي عملية تربوية يتعامل من خلالها المسلم التائب مع نفسه تعاملاً فيه المهارة والمعرفة بغرائب النفس وأحوالها، والصبر على مفاجآتها حتى يتمكن من حملها على السير في طريق التوبة، وقد هَجَرتْ ما كان محبوباً إليها بالأمس. إن قول الرسول : «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور**»(١) مائة مرة في المجلس الواحد لهو أمرٌ ينبغي الوقوف عنده طويلاً لإدراك بعض الأسرار والحكم والدلالات التربوية القريبة والبعيدة التي يدل عليها، حتى يمكن فهم دور التوبة وأثرها في تربية النفس ومجاهدتها على السير في طريق العودة إلى الله جل جلاله.

q q q

(١) سبق تخريجه .

التوبة تهدم اليأس

يظن بعض الناس أنه بعيد من التوبة، وهي بعيدة منه، وأن أمثاله لا يتوب الله عليهم، فالذنوب التي اقترفها هي في نظره شيء كبير وكبير جداً فكيف يُتاب عليه، ويغفر له؟ وهذا الظن قد يؤدي بصاحبه إلى مسالك خطيرة لها آثارها المدمرة في دنياه وآخرته. وأخطر تلك المسالك وأشدها أثراً عليه هو مسلك اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، وذلك هو أقصى ما يطمع فيه الشيطان من الإنسان المسلم ويطمح إليه، فإذا أيَّسَهُ من رحمة الله تعالى أصبح يلعب به كما يلعب الصبي بكرته، حتى يرمي به في وديان الكفر بالله تعالى، فينتهي إلى خاتمة السوء والعياذ بالله.

وينبغي ألا يغيب عن البال أن كثيرين ممن يوغلون في اقتراف الذنوب قد وقعوا ضحية لتيئيس الشيطان لهم، فسيطر على نفوسهم بذلك، وأوهمهم أنه لا فرق بين ذنب واحدٍ وبين ألف ذنب مادام الأمر أنه لا أمل في قبول التوبة. وإذا ذُكِّر الواحدُ منهم بالتوبة إلى الله تعالى، وجد في نفسه غربةً سحيقة وبعداً مخيفاً رهيباً عن التوبة. وذلك كله وسواه جهل بالله تعالى، وغفلة عن سعة رحمته وفضله وإحسانه.

ونقول لهؤلاء ولأمثالهم: ألم تَسِع رحمةُ الله تعالى ذلك الرجلَ الذي قتل تسعاً وتسعين رقبة وأكمل مائة برقبة ذلك العابد الجاهل حين أيَّسه من رحمة

الله الواسعة؟ ألم تسع رحمة الله تعالى وحشيًّا قاتل حمزة – عم سيدنا رسول الله وسيد الشهداء- فتاب الله على وحشي، وأنزل سبحانه قوله الكريم:

﴿ ,WØXY©ŠKwøÑŒV ŃŠÊŴ KÝYYŵ@Ð YŢf‰ÅŴHŴÔŜ
†[Å~Ŵ– ð‡ éŠRÖ@ØŠÝpÅŴWŴV@ŒŴKŴ @ØÙŠŒÝÝ ŃRŴÝŽV
ISŴXI@ŠÉŠŴÖ@ŒŴŠ~Ø (53) »[1].

ألم يغفر الله سبحانه لذلك الشاب المسرف على نفسه في بني إسرائيل، فقد كان في زمن موسى عليه السلام شابٌّ عاتٍ مسرفٌ على نفسه، فأخرجوه من بينهم لسوء فعله، فحضرته الوفاة في خِرْبةٍ على باب البلد، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إن ولياً من أوليائي حضره الموت فاحضره، وغسِّلْه وصلِّ عليه، وقل لمن كثر عصيانه يحضر جنازته لأغفر لهم، وأحمله إليَّ لأُكرم مثواه، فنادى موسى في بني إسرائيل. فكثر الناس، فلما حضروه عرفوه، فقالوا: يا نبي الله! هذا هو الفاسق الذي أخرجْنا، فتعجب موسى من ذلك. فأوحى الله إليه: صدقوا وهم شهدائي، إلا أنه لما حضرته الوفاة في هذه الخربة نظر يمنة ويسرة، فلم ير حميماً ولا قريباً، ورأى نفسه غريبةً وحيدةً ذليلة فرفع بصره إليَّ وقال: إلهي عبدٌ من عبادك غريبٌ في بلادك، لو علمتُ أن عذابي يزيد في ملكك، وعفوك عني ينقص من ملكك

(١) سورة الزمر، الآية (٥٣) ، وانظر : تفسير القرطبي (١٥/٢٦٨، ٢٦٩).

لما سألتك المغفرة، وليس لي ملجأٌ ولا رجاءٌ إلا أنت، وقد سمعت فيما أنزلت أنك قلت: إني أنا الغفور الرحيم، فلا تخيب رجائي. يا موسى! أفكان يحسن بي أن أردَّه وهو غريبٌ عن هذه الصفة، وقد توسل إليَّ بي، وتضرع بين يديَّ؟ وعزتي، لو سألني في المذنبين من أهل الأرض جميعاً لوهبتهم له لذل غربته. يا موسى! أنا كهف الغريب وحبيبه وطبيبه، وراحمه(١).

وكيف كانت أحوال كثير من الزهاد والعباد في هذه الأمة قبل توبتهم إلى الله تعالى. كيف كانت حال الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم، ومالك ابن دينار وبشرٍ بن الحارث وسواهم قبل أن يتوب الله عليهم؟

كان بشرٌ بن الحارث في زمن لهوه في داره وعنده رفقاؤه يشربون ويطربون، فمرَّ بهم رجل صالح البصر والبصيرة، فسمع الطرب واللهو فوق باب بيت بِشْرٍ، فخرجت إليه جارية، فسألها عن صاحب الدار قائلاً: صاحب هذا الدار حرٌ أو عبد؟ فقالت الجارية: بل هو حر! فقال لها: صدقتِ: لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية، وترك اللهو والطرب، فسمع بِشْرٌ ما دار بين الرجل الصالح والجارية من الحوار، فقام مسرعاً من مجلس اللهو والطرب والشراب واتجه نحو باب الدار حافياً حاسراً وقد ذهب الرجل الصالح، فقال بشرٌ لجاريته: ويحك من كلَّمك على الباب؟ فأخبرتْه بما جرى،

---

(١) انظر: كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ص: (٨٢، ٨٣).

فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا، فتبعه بِشر حتى لحقه، فقال له: يا سيدي: أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم. قال: أعد عليَّ الكلام، فأعاده عليه، فمرغ بشرٌ خديه على الأرض وهو يقول: بل عبدٌ، عبدٌ. وكان ذلك بداية توبته وعودته إلى الله تعالى(١).

وكان الفضيل بن عياض من قُطَّاع الطرق، وكان يقطع الطريق وحده، فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلاً، فقال بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية، فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يقال له الفضيل: فلما سمع الفضيل ذلك أرعد، فقال: يا قوم! أنا الفضيل، جُوزُوا (أي مُرُّوا بسلام فلا خوف عليكم) ثم قال: والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبداً، فرجع عما كان عليه. وروي من طريق آخر أنه استضافهم تلك الليلة وقال: أنتم آمنون من الفضيل، وخرج يرتاد لهم علفاً، ثم رجع فسمع قارئاً يقرأ: ﴿[illegible]﴾(٢) قال: بلى والله قد آن، فكان هذا مبتدأ توبته(٣).

وكان زاذان أبو عبد الله الكندي التابعي الكوفي الضرير قد ظفر به عبدالله بن مسعود ذات يوم في موضع من نواحي الكوفة، وحوله فتيان فُسَّاق

---

(١) انظر: كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي، ص : (٢١١).
(٢) سورة الحديد، الآية (١٦).
(٣) انظر: كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي، ص: (٢٠٧-٢٠٨).

قد اجتمعوا يشربون، وهو يغني ويضرب على العود، وكان له صوت حسنٌ، فلما سمع ابن مسعود ذلك قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله، فلما سمع زاذان ذلك قام وكسر عوده، وأقبل على ابن مسعود يبكي وعانقه ابن مسعود، وكان ذلك سبباً في توبة زاذان الذي أصبح فيما بعد من أوعية العلم، ولازم ابن مسعود وأخذ عنه، وعن سلمان وعن غيرهما(١).

ويتضح لنا من خلال ذلك صورة التكامل العجيب في شخصيات أسلافنا السابقين بما عكسته التوبة في حياتهم من المعاني الجليلة الجميلة التي دلت بكل وضوح وجلاء أن التوبة لله تعالى تمثل التكامل الحي في شخصية المسلم، وهذا التكامل هو المفتاح لأبواب النجاح والفلاح في الحياة الدنيا والآخرة؛ فالله تعالى قد علَّق في كتابه الكريم الفلاحَ على التوبة، فقال عز من قائل: ﴿[illegible]﴾ (٣١) (٢) فالتوبة تهدم جدران اليأس ، وتحطم حصونه ، وتهزم جنوده ، فهي تجدُّدٌ وأمل ، وثقة ، وتفاؤل ، واستعلاء على كل المعوقات والمثبطات التي تقف في طريق المسلم وهو يسلك طريق التوبة إلى ربه التواب الرحيم ، الذي يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي .

---

(١) نفس المصدر، ص: (٢٠١-٢٠٢).

(٢) سورة النور، الآية (٣١).

q q q

التوبة تمكن صاحبها من تخطي عقبات الشيطان

إنه لا فلاح للمسلم إلا بالتوبة النصوح لله سيده وخالقه، وأعني بها التوبة التي يتخطى بها المسلم عقبات الشيطان الرجيم السبع التي يطلب عليها ابن آدم وهي: الكفر، والبدعة، والكبائر، والصغائر، والمباحات، والأعمال المرجوحة، وتسليط جنده عليه بأنواع الأذى.

والشيطان الرجيم يرصد ابن آدم في كل عقبة من هذه العقبات وأكبرها وأشدها عقبة الكفر، فإن ظفر الشيطان اللعين بابن آدم في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح.

فإن تجاوز ابن آدم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية وسلم بنور الإيمان، طلبه الشيطان على عقبة البدعة، وهي عقبة خطيرة لها شرها المستطير وأثرها الخطير على صاحبها، وقد تهلكه وتدمره وهو لا يشعر بذلك، ويأخذ هوى النفسِ والإعجابُ بالرأي والتعصبُ مساحةً واسعةً في محيط البدعة تغذية لها.

وخطر البدعة أنها متصلة بما ألفه كثير من الناس في حياتهم من الأعراف والعادات التي لا صلة لها بالإسلام، فيعيش الفرد وهو يمارس البدعة من خلال تلك الأعراف والعادات التي ألفها وهو لا يحس بغرابة البدعة في حياته، بل يراها أمراً عادياً وجزءاً من حياته، ولذلك فلابد - في علاج البدعة ومواجهتها - من مراعاة ما ذكرنا.

فإن نجا ابن آدم من هذه العقبة الثانية وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، طلبه الشيطان على عقبة الكبائر وزيّنها وحسّنها له وأوحى إليه بفكر الإرجاء الضال، الذي يرى أصحابه أن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال، وأنه لا يضر مع التوحيد ذنبٌ. ولا شك أن فكر الإرجاء فكرٌ منحرفٌ ضال مضل، يهدم الإسلام من قواعده، وقد جرَّ على الإسلام والمسلمين بلاء عظيماً وشراً مستطيراً.

قال الغزالي: «والذي ليست له إلا شهادة لله بالألوهية ولنبيه بالرسالة، هو كإنسان مقطوع الأطراف، مفقوء العينين، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة؛ لا أصل الروح.

وكما أن مَنْ هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة – التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها – فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان، وهو مقصر في الأعمال، قريبٌ من أن تُقْتَلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة.

فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله، ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا كمن يُسْقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ

وثبت»[١].

وأما العقبة الرابعة - التي يكمن الشيطان فيها لابن آدم بعد تجاوزه لعقبة الكبائر- فهي عقبة الصغائر، وكثير من الناس يغويهم الشيطان بالصغائر ولا يرون بذلك بأساً ماداموا مجتنبين للكبائر في نظرهم، ولا يزال يهون عليهم أمرها حتى تكون محل إصرارٍ منهم، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منهم؛ ورُبَّ صغيرة مع الإصرار والاستخفاف كانت أعظم من الكبيرة، وقد تهلك الصغيرة صاحبها وهو لا يشعر، وذلك أن استقلال المعصية عين الجرأة على الله، وجهلٌ بقدر من عصاه وبقدر حقه، وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها وخفت على قلبه وذلك نوع مبارزة .

قال الغزالي: «اعلم أن الصغيرة تكبر بأسبابٍ منها الإصرار والمواظبة، ولذلك قال بعضهم: لا صغيرة مع إصرارٍ ولا كبيرة مع الاستغفار، واعلم أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد، ومثال ذلك قطراتٌ من الماء تقع على حجَرٍ متواليات فإنها تؤثر فيه ولو جمعتْ تلك القطرات في مرةٍ وصبَّت عليه لم تؤثِّر؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل**»[٢] .

---

(١) إحياء علوم الدين : (٨/٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٤١) رقم (٧٨٢).

ثم يمضي الغزالي رحمه الله في بيان الأسباب التي تعظم بها الصغائر قائلاً: «ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد كبر عند الله تعالى، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له، قال ابن مسعود – رضي الله عنه -: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا»(١).

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى رأى الصغيرة كبيرة»(٢).

وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدُّها على عهد رسول الله من الموبقات»(٣).

لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

ومن الأسباب: أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كأن يقول: أما رأيتني كيف مزَّقْتُ عرض فلان، وذكرت مساوئه حتى أخجلتُه. أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روَّجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبنته. فهذا وأمثاله تكبر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٢٤) رقم (٥٩٤٩).
(٢) إحياء علوم الدين (٤/٣٢-٣٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٨١) رقم (٦١٢٧).

به الصغائر.

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثما(١).

والشيطان اللعين لا يفتر عن اصطياد ضحاياه، فإذا سلم العبد من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار وأتبع السيئة الحسنة، كمَنَ له الشيطان في عقبة المباحات وطلبه عليها، وهي التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات.

والواقع المشاهد في حياة الناس أنهم يتوسعون في المباحات توسعاً يجدون من أثره في قلوبهم شدة وقسوة، ولا شك أن العاقل يدرك خطر التوسع في المباحات وأثرها على نفسه، فيتوسط فيها توسطاً لا يضره، فهو يدرك أن الوسائل لها حكم المقاصد، ويدرك أن سلف هذه الأمة لم يكن من سبيلهم التوسع في المباحات مع قدرتهم على ذلك، والأمر يحتاج إلى بصيرة وفهم وتدبر ومعرفة بآثار التوسع في المباحات، فالعاقل لا يقع في أخطاء الآخرين، حتى لا يتجرع كأس نتاجها المر.

والإكثار من الطاعات، والإقبال على العبادة والذكر، ومراقبة أحوال

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٢-٣٣).

النفس وتقلباتها، واليقين بأن موعد الرحيل عن الدنيا قريب، ومعرفة أن الله تعالى نعى على قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا فاستمتعوا بها، كل ذلك وسواه مما يعين المرء على التوسط في أمر المباحات وعدم الإغراق فيها.

ومن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هادٍ، ومعرفة بما يعين على النجاة فيها كَمَنَ له الشيطان اللعين والعدو المبين في العقبة التي تليها؛ وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات فأمره بها وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم كسباً وربحاً، وذلك لأن الشيطان اللعين لما عجز عن تخسير المسلم أصل الثواب طمع في تخسيره كمال الثواب وفضله، ودرجاته العالية فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضَى له.

إن الشيطان اللعين قد يأمر أحياناً ببعض الأعمال المرجوحة ويزينها ويغري بها في سبيل أن يصرف المسلم عن أعمال أخرى أعظم فائدة منها، وتلبيس الشيطان في هذا المجال على أهل الطرق المنحرفة والمنحرفين لا يحصى، فنجد الواحد منهم مشغولاً بقراءة أوراد وأحزاب ليس لها من السنة الصحيحة سند، بينما هو لا يقرأ في شهره سورة من كتاب الله تعالى اللهم إلا في صلاة مفروضة، ومهمة العلماء في البيان في هذا الأمر مهمة مسئولة، وهي مهمة تستمد أصولها في البيان والتوجيه من كتاب الله تعالى ومن سنة

رسول الله ، بياناً يستر ولا يفضح، ينصح ولا يجرح، يؤلف ولا يفرق، يقرب ولا يباعد، يرغب ولا ينفر، بياناً يدل الناس في ضوء هذه المعاني على معرفة وفقه الأعمال، ومراتبها عند الله تعالى ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، وفاضلها ومفضولها، ورئيسها ومرءوسها، وسيدها ومسُودِها.

يقول العلامة ابن قيم - رحمه الله - : «فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيساً ومرؤوساً، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي. لا إله إلا أنت**»(١) . وفي الحديث الآخر: «**الجهاد ذروة سنام الإسلام**»(٢). وفي الأثر: «إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته، وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن» ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم السائرين على جادة التوفيق قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه»(٣).

وأما العقبة السابعة فهي العقبة التي لا ينجو منها أحد. ولو نجا منها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٢٣/٥) رقم (٥٩٤٧).

(٢) صحيح، أخرجه أحمد في المسند (٢٣٥،٢٣٧/٥)، والترمذي في السنن (١٣/٥) رقم (٢٦١٦). وصححه الأرناؤوط في تحقيقه لجامع العلوم والحكم (١٣٤/٢).

(٣) مدارج السالكين : (١/ ٢٢٥).

أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه، وهي عقبة تسليط الشيطان اللعين جنده على المسلم بأنواع الأذى على حسب مرتبته في الخير. قال ابن قيم – رحمه الله -: «فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلَّط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة ولا ينتبه لها إلا أولوا البصائر التامة»(١).

ومراغمة الشيطان اللعين هي ميدان واسع تتجدد فيه أنواع المواجهة والأسلحة بين المسلم، وبين الشيطان الرجيم، والتوبة لله تعالى من أمضى الأسلحة وأقواها في مراغمة الشيطان اللعين وقهره، فكلما زيَّن هذا العدو الخطيئة للمسلم راغمه بالتوبة، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى، وذلك من أسرار وأنوار التوبة حيث يترقى المسلم بالتوبة في مدارج العبودية لله تعالى والقرب منه، ونوال محبته ومرضاته.

q q q

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤١٢-٤١٣).

التوبة نجاة وفلاح

التوبة هي سبيل النجاح والفلاح وهي سفينة النجاة من كل طوفانٍ، والتائب حبيب الله، والله تعالى يفتح أبوابه للتائبين ويعفو عنهم ويسترهم، ويسهل أمامهم السير على طريق العبودية له جل جلاله حتى يكونوا من عباده المقربين الذين يشملهم برعايته ومحبته. فالله تعالى هو المتفضل بالتوبة على عباده، فهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه، وهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، فله الفضل والمنة ومنه الرحمة والمغفرة والتوبة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قال: «**كان رجلٌ يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مُتُّ فأحرقوني ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذّبني عذاباً ما عذّبه أحداً، فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض، فقال: اجمعي ما فيك، ففعلت، فإذا هو قائم. فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا ربّ – أو قال: مخافتك – فغفر له**»(١).

ومن فضل الله تعالى ورحمته على عباده أن باب التوبة مفتوحٌ لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨٣/٣) رقم (٣٢٩٢)، ومسلم في صحيحه (٢١٠٩/٤) رقم (٢٧٥٦).

النبي قال: «**إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١). وعن النبي أنه قال: «**إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً، أو سبعون سنة، فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السماوات والأرض، فلا يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٢).

وطلوع الشمس من مغربها هو نهاية الأمد الذي جعله الله تعالى فرصة للناس جميعاً كافرين، ومنافقين وعصاة مسلمين، ليتوبوا إليه كلٌّ حسب ذنبه، فالكافر يتوب من كفره بالدخول في دين الله الحق دين الإسلام، والمنافق يتوب إلى الله من نفاقه، والعاصي من المسلمين يتوب إلى الله من معصيته.

أما الزمن المتاح للتوبة على مستوى الفرد فهو منذ بلوغه الحُلم حتى تبلغ روحه الحلقوم عند الموت. وذلك هو ما دل عليه قول النبي فيما رواه عنه عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما -: «**إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر**»(٣). والعاقل هو الذي يوقن بأن الأجل يأتي بغتةً، فلا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١١٠) رقم (٢٧٥٩).

(٢) حديث حسن، أخرجه الترمذي في السنن (٥/٥٠٩) رقم (٣٥٣٥). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٧٥) رقم (٢٨٠١).

(٣) حسن ، أخرجه الترمذي في السنن (٥/٥١١) رقم (٣٥٣٧)، وابن ماجة في السنن (٢/١٤٢٠) رقم (٤٢٥٣). وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/٣٨٦) رقم (١٩٠٣).

يُسوِّف في التوبة ويماطل فيها، أو يقيس حاله بحال غيره ممن يسّوف بالتوبة، فآجال الناس ليست واحدة، بل يشمر عن ساعد العمل ويسلك سبيل التوبة والرجوع إلى الله تعالى، فلعل الله سبحانه يقبل توبته ويعفو عنه.

سأل رجل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة؟ فأعرض عنه، ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس (١).

والتوبة تَرُدُّ عن صاحبها مقتَ الله وغضبَه، وتَرُدُّ عنه أذى كثيراً ظاهراً وباطناً، فهي علامة المسالمة مع الله تعالى، والتصالح معه سبحانه، وذلك أن من لم يوطن نفسه على التوبة له جل جلاله، فهو شاهرٌ لسلاحِ المعصية باحثٌ عن الفرصة التي تتاح له لاستعمال هذا السلاح الخبيث فهو في حرب مع الله تعالى، والويل له كل الويل إن أدركه أجله على هذه الحال، فهو سيموت ميتة الظالمين. قال الإمام مجاهد بن جبرٍ - رحمه الله -: من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظالمين (٢).

وقال عبد الله بن حبيب - رحمه الله -: إنكم لن تطيقوا غضب الله

---

(١) إحياء علوم الدين : (١٤/٤).

(٢) انظر: التوبة النصوح لمجدي فتحي السيد: (١٢).

تعالى عليكم كلما عصيتموه، فأمسوا تائبين وأصبحوا كذلك تائبين (١).

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله - يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد: عليكم بالتوبة فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف (٢).

وقال الإمام ابن قيم - رحمه الله -: «منزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه، ونزل به فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وقد قال الله تعالى: ﴿ [illegible] (31) » (٣) هذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالتراخي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون (٤). جعلنا الله منهم.

وللتوبة في حياة صاحبها من الفوائد والخيرات والبركات الظاهرة والباطنة والمحسوسة والمعقولة على مستوى نفسه، وبدنه، وعافيته، وعقله، ودينه،

---

(١) نفس المصدر: (١٢).
(٢) انظر: التوبة النصوح : (١٣).
(٣) سورة النور، الآية (٣١).
(٤) مدارج السالكين : (١/١٧٨).

وعلمه، وماله، وعمله، وحركته كلها، وعلى مستوى ذريته، وعلى مستوى أهله، وعلى مستوى أمره كله في حياته ومماته وآخرته مالا يعلمه ولا يحيط به إلا الله تعالى.

التوبة رحمة من الله وسعة

إن المرء ليعجب غاية العجب من رحمة الله تعالى بخلقه من بني الإنسان وإحسانه إليهم وهم يتقلبون في نعمه، وفي ملكوته، وكثير منهم يعصيه ويحاربه بنعمه، ولكن رحمة الله أوسع من معاصيهم فهو جل جلاله أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، يحب الإحسان والجود، والعطاء والبر، والفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له، ولو أن أهل السماوات والأرض، وأول الخلق وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوه فأعطى كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة، وهو سبحانه وتعالى يحب أن يجود على خلقه ويحسن إليهم، ويعطيهم ويَبَرَّ بهم، وينعم ويتفضل عليهم، ومحبته لذلك هي محبة تليق بجلاله وكماله، فهي لا تقع تحت حصرٍ أو وصفٍ، وهو سبحانه يفرح بتوبة عبده إليه كما جاء في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله : «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده - حين يتوب إليه - من أحدكم كان على راحلةٍ بأرضٍ فلاةٍ فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة**

الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»(١).

وهذه فرصة إحسان وبر ولطف، لا فرصة محتاج إلى توبة عبده فينتفع بها (٢).

فأين يذهب المعرضون عن التوبة؟ وإلى من يتوجهون؟ وأمام أي باب سيقفون؟ هل لهم إله غير الله؟ هل لهم رب يرحمهم ويقبلهم سوى الله؟ إنه لا إله إلا الله، ولا رب غيره ولا معبود سواه، فهو جل جلاله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليمٌ، وهو على كل شيء قدير وهو سبحانه الذي إليه المنتهى، وهو جل جلاله الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، وبيده النشأة الأخرى، وهو عز وجل الذي أغنى وأقنى، وهو تعالى رب الأرضين والسماوات العلى، وهو جلّت قدرته الذي أهلك عادًا الأولى، وثمود فما أبقى، وقوم نوحٍ من قبل إنهم كانوا أظلم وأطغى، وقوم لوطٍ قلب عليهم ديارهم فغشاها ما غشى، إنه لا مفر من الله إلا إليه، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

فالتوبة إليه، والفرار إليه، والخوف والخشية منه، فالتائب إلى ربه رابح ناجح، والمعرض عنه خاسرٌ فاشلٌ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٠٥) رقم (٢٧٤٧).

(٢) مدارج السالكين : (١/ ١٩٥).

q q q

فوائد التوبة

إن للتوبة فوائد وثمراتٍ لا يسعها رحب الأرض تعداداً لها ووصفاً لآثارها، ولا يحيط بها علماً إلا الله تعالى، ولكن حسبنا أن نلقي الضوء فيما يلي على شيء من هذه الفوائد التي تناولها بالحديث أهل العلم يرى العلامة الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) : أن المذنب التائب قد جرب العيوب وعرف مداخل الشيطان على الإنسان فيكون أهدى إلى الإحتراز من الشر، فالتائب – بذلك - محتشم قد غلب الخوف على قلبه، فيأتي باب مولاه وهو خزيان منكسرٌ فعاد وجلاً خائفاً، وهو قد حلب الدهر خيره وشره، حلوه ومره، فهو أرفق بالمذنبين فلا يعجب بنفسه ويزري بغيره(١).

وقد أفاض ابن قيم الجوزية في الحديث عن تلك الفوائد معدداً لها في العرض التالي:

إحداها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عنده، فإنه سبحانه يحب التوابين؛ ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عنده، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة، وزيادة محبته لعبده.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص (٢٣٣) .

ثانيتها: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرحٍ يقدر كما مثَّله النبي بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعدما فقدها وأيس من أسباب الحياة، ولم يجئ هذا الفرح في شيءٍ من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية.

ثالثتها: أن عبودية التوبة، فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله تعالى والتذلل ما هو أحب إليه سبحانه من كثير من الأعمال الظاهرة.

رابعتها: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل مما لغيره؛ فإنه قد شارك من لم يذنب من ذل الفقر، والعبودية والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية. والله سبحانه وتعالى أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله، وانكسار قلبه، كما في الإسرائيليات عن موسى عليه السلام قال: يا رب أين أجدك؟ قال عز وجل: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

وهذا - والله أعلم - هو السر في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم.

خامستها: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة بكثير

من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: " قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعات فيدخل بها النار" قالوا: وكيف ذلك؟ قال: " يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشى ذكر ذنبه فيحدث له انكساراً وتوبة واستغفاراً وندماً فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنة، فتكون سبب هلاكه .

سادستها: وهو قوله تعالى: ﴿[illegible]

[illegible]

[illegible] »[1]، وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح؛ وهو حقيقة التوبة.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما-: ما رأيت النبي فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿[illegible]

[illegible] (!) [illegible]

[illegible] »[2].

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين: فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها،

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٧٠).

(٢) سورة الفتح، الآية (١،٢).

فبدلهم بالشرك إيماناً، وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة وأعمالهم السيئة بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يُبَدَّل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافيةً.

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسناتٍ يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

سابعتها: وهو أن التائب قد بُدِّل كل سيئة - بندمه عليها- حسنة، إذ الندم هو توبة تلك السيئة، والندم توبةٌ، والتوبة من كل ذنبٍ حسنة فصار كل ذنب عمله زائداً بالتوبة التي حلَّت محله وهي حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار.

ثامنتها: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسناتٌ أكبر منه وأكثر وأعظم نفعاً، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب من ذلٍ وانكسار، وخشيةٍ وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه حتى يقول الشيطان: ياليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية، ومن أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال ما

يوجب إبدال السيئة حسنة بل حسنات، وتأمل قوله: ﴿ 8S @ÓŸ¨W§ ÏEÈHøWV§Vø%ÈYÏ`QV »﴾(١) ولم يقل مكان كل واحدةٍ واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل له، فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوعٍ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم اهـ (٢).

وهو كلام يدل على علم ومعرفة بفضل الله ورحمته، وبأسمائه وصفاته جل جلاله. وما أحوجنا إلى هذه المعرفة حتى نتربى بها، فتسمو نفوسنا بهذه التربية وتعانق أنوار وأسرار الهداية والعبودية لله عز وجل. فنبصر طريق التوبة لله سبحانه فنسير فيه فهو الطريق إلى تحصيل كل خيرٍ في الدنيا والآخرة.

وإن الشيطان الرجيم - عليه لعنة الله - ليشتد على العبد المذنب شدة يجد أثرها في نفسه حتى يوهمه أنه أصبح بعيداً عن ربه، ويذكره بصفات ربه من القهر والجبروت، وشدة العذاب والعقاب، وينسيه صفات الرحمة والرفق واللطف، والعفو والصفح والمغفرة، وقبول التوبة، والفرح بتوبة العباد، فيلتقي على العبد المذنب أمران شديدان عليه: شدة الشيطان الرجيم عليه، وجهله بأسماء وصفات ربه سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٧٠).

(٢) انظر فيما تقدم: مدارج السالكين : (١/ ٢٩٧ إلى ٣٠٤)..

أهمية معرفة أسماء الله وصفاته في حصول التوبة

ومعرفة أسماء الله تعالى وصفاته كما يقول ابن قيم — رحمه الله —: «من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة، فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال، وكل صفة لها مقتضى وفعل: إما لازم، وإما متعدٍ، ولذلك الفعل تعلق لمفعولٍ هو من لوازمه. وهذا خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها، ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات؛ كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله، وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته، وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه، ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى مالا يليق به وإلى ما يتنزه عنه، وأن ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدَره حق قدره، ولا عظّمه حق تعظيمه، كما قال تعالى في حق منكري النبوة وإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ [illegible] »

.(١)

وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب: ﴿ÑèSŸŴÎ†ÚÙèV

àÙWHÍ×@ŸèŸ¬ÌSÕû ‰ÎV†Å~ÙW-Vñ³ ¤Ì×@ÙV-àŸŸ ÎWÎPŠVÕV@

.(٢) « -àŸYÙWŸ-ŒEHÙXÞ†ÚWñ .èŸHÙÕ©Ö@ÙV

وقال في حق من جوَّز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمــؤمنين والكفــار: ﴿†ÙÕ©Ö@ÙéŠ¼ŸW-@ŸŸŸÙ@ ŸŠV×K g

ŒEHÙÕ×dÖ@ÙéŠÕÙŸÙèŠÚ¶ ŸŸŸÙ@Ù ÌÚŠÙ¶• ŸÜK

« (٢١) f û éÙŠÑ™ŸŸÚ¶†ŸØàŠ†ÙÚŸØàŠ†V™ÚÛ:¢ŸV

فأخبر أن هذا حكم سيئ لا يليق به تأباه أسماؤه وصفاته. (٣)

وقــال ســبحانه: ﴿†Ï‘ÙŸØÑ†ÙÝÕŸ†ÙÙKŸŠ©ŸÚKV

íÐ ÕÙ×@Ð @ŸÕÙŸŸ (١١٥) ÙéŠÁÐŠ,Ÿ†ŸÙÕØÑ†ŸV

« (١١٦) gÿ±Õ| ×@×ŠÙÙ×@‡ ŸŠ ,ŸÙÙÙÙŠÙ×@ (٤)

عن هذا الظن والحسبان الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٩١).

(٢) سورة الزمر، الآية (٦٧).

(٣) سورة الجاثية ، الآية (٢١).

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان (١١٥، ١١٦).

وصفاته، إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها. فاسمه (الحميد،المجيد) يمنع ترك الإنسان سدى مهملا، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه (الحكيم) يأبى ذلك، وكذلك اسمه (الملك)، واسمه (الحي) يمنع أن يكون معطلا من الفعل، بل حقيقة (الحياة) الفعل، فكل حي فعال، وكونه سبحانه (خالقا، قيوما) من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه(السميع،البصير) يوجب مسموعا ومرئيا، واسمه (الخالق) يقتضي مخلوقا، وكذلك (الرزاق)، واسمه (الملك) يقتضي مملكة وتصرفا وتدبيرا، وإعطاء ومنعا، وإحسانا وعدلا، وثوابا وعقابا. واسم (البَرّ، المحسن، المعطي، المنان) ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا، فمن أسمائه (الغفار، التواب، العفو) فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات، ولا بد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها، ... والرب تعالى يحب ذاته، وأوصافه وأسماءه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال، وكان تقدير ما يغفره، ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه، ويسامحه من موجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك»(١).

إن معرفة أسماء الله تعالى وصفاته - معرفة نربي بها أنفسنا على طريق العبودية والتوبة لله سبحانه، وإسلام الوجه له جل جلاله - لهو أمرٌ في غاية

---

(١) مدارج السالكين : (١/ ٤١٩،٤١٨،٤١٧).

الأهمية والضرورة للمسلم، والحاجة إلى هذه المعرفة هي أمس من الحاجة إلى الطعام والشراب والهواء، فهذه المعرفة من شأنها أن تنير الطريق أمام المسلم، وتنور قلبه وبصيرته، وتضيء حياته كلها بأنوار وأسرار الهداية والإنابة إلى الله تعالى.

فهذه المعرفة هي الشرف الأسنى والمقصد الأعلى، وهي حياة الروح وسعادة القلب وبهجته، وراحته، وسروره، وهي جنته التي يتقلب بين أعطاف نعيمها، وهي واحته الجميلة الهادئة التي يأوي إليها كلما اشتد لهيب الحياة.

وهذه المعرفة من شأنها أن تفجّر طاقات المعرفة الكامنة في النفس، وتفتح أبواب العلم المتصلة بحقائق الوجود، وحركة الحياة، ومظاهرها في شتى الجوانب، كما أن هذه المعرفة تهدي إلى معرفة حقيقة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها، وإن كان العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها.

وسيدنا رسول الله هو المثل الكامل لهذه المعرفة فهو - عليه الصلاة والسلام - أعرف الخلق، وأعلمهم بالله جل جلاله. وفي مناجاته لربه وهو واقف بين يديه في سحر الليل بقوله «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض»(١) بيان لمدى معرفته r بربه عزّوجلّ.

والله تعالى نور السماوات والأرض، النور الذي منه قوامها، ومنه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٧/١) رقم (١٠٦٩).

نظامها، فهو الذي يهبها جوهر وجودها، ويودعها ناموسها، ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة بعد تحطيم الذرة إلى إشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور، ولا مادة لها إلا النور، فذرة المادة مؤلفة من كهارب وإليكترونيات تنطلق عند تحطيمها في هيئة إشعاعٍ قوامه هو النور[(١)].

فأما القلب البشري فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون وقرون، وكان يدركها كلما شف ورفَّ وانطلق إلى آفاق النور، ولكن قلب سيدنا محمد رسول الله أدرك تلك الحقيقة كاملة شاملة في مناجاته تلك لله جل جلاله. فمن أين لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - أن يدرك هذه الحقيقة الكبرى، ويعبّر عنها في مناجاته لخالقه ومولاه، ولم يسبق له عليه صلاة الله وسلامه علمٌ أو بعض علمٍ بذلك، ولم تكن البيئة التي ولد وعاش فيها - عليه الصلاة والسلام - لتسمح بشيء من ذلك، فبُعد ما بينها وبين هذا العلم هو بُعد ما بين السماء والأرض أو أبعد من ذلك، وصدق الله العظيم القائل لنبيه : ﴿ ÙÑÆÈV Ð ÚV† ØÜV ŽVÑÝV ŽVÅÑØ ÈV {V†ÜVÊ µp Ôa @ ÝV ÆVÑ~` Ð ÆV¥ ~ÙÝ ¯† (113) »[(٢)]، وهذا القول الإلهي الكريم حقيقة خالدة من حقائق الوجود، ومن أراد أن يمدد بسبب إلى

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، المجلد الرابع، الجزء ١٨، ص: (٢٥١٩).

(٢) سورة النساء، الآية (١١٣).

هذا العلم ونسب فليسر على طريق رسول الله والعمل بسنته، وليدخل من باب التوبة الصادقة إلى الله جل جلاله والإنابة إليه، والانكسار لعظمته، والتواضع لجلاله، والتذلل لعزته وكبريائه، والافتقار الكامل لغناه، والحاجة المطلقة لفضله وإحسانه. والله جل وعز يقول لنبيه : ﴿ ÐÜ ŸYWV{ ëV
†ÚV ÷ ÞŸ ŤWŽ Œ ÞÈ †ÚV†WÝŔKŠÝQ †š̱èS ð ˆ~ÜKl†W~ŠèK
-ðŸ ÷ ŸàlV ¤éŠ SŠ†WÂ ŸÝÑ ÑËV Ý†Wy, Ü@VèVñ ÞŸÑé@
× .Ẍg øÜKlV÷ ŸàlVŠ Ð ÞÑV †ÚV†W ŸÝŸ S†W ÝÚV
Q©ÝŸ~ÝŸ (52) ﴾ [1].

فاللهم اهدنا إلى هذا النور، ونور قلوبنا وأبصارنا وعقولنا، ودنيانا وآخرتنا به يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

وهكذا يتضح لنا أن العلم بأسماء الله تعالى وصفاته علمٌ شريف منيف لا يعلو عليه علم آخر، وأن المفتاح لهذا العلم وإدراك أنواره والوقوف على أسراره هو التوبة الصادقة النصوح لله جل جلاله وهي من سمات عباد الله المتقين، قال الله تعالى: ﴿ ŠŠ @ŠS ÙŠÑŠ@ÝÑŠ@V ﴾ [2].

أما كيف يعرف الناس أن التوبة الصادقة لله تعالى من أهم مفاتيح العلم والمعرفة، فذلك أمرٌ يقتضي منهم البحث والتأمل في مظاهر الحياة

---

(١) سورة الشورى، الآية (٥٢).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

حولهم، وفي سير الغابرين قبلهم، وربما احتاج الأمر منهم إلى البحث التجريبي من خلال فحص نماذج للتائبين بعد توبتهم، بعد فحصهم قبل ذلك فحصاً يتتبع حركة الدم، والعصب، والدماغ، وأداء القلب، وسائر أعضاء الجسم مما تظهر آثاره على ظاهر البدن، وتنعكس على الوجه والعينين، وأثر ذلك كله على العقل والملكة، وتأثير ذلك كله في العمل والفهم، وانعكاسه على شتى مظاهر الحياة.

والذي يجدر بي أن أقوله في هذا المقام هو أننا بصفتنا مسلمين في ميدان البحث التجريبي المعملي لا زلنا متخلفين، ونتيجة لهذا التخلف فإن كثيراً من حقائق القرآن الكريم والسنة النبوية المتصلة بهذا الجانب تغيب عنّا، وكل ما أمكن ويمكن الوصول إليه في هذا الجانب، إنما هو ترجمة لما وصل إليه الغرب من نتائج البحث المتواصل، وعلى سبيل المثال أذكر أنني ومنذ الصغر أتساءلُ في نفسي لماذا كان ترتيب أعضاء الوضوء بهذه الصورة التي نفعلها حسبما نص القرآن الكريم على ذلك، ولم أجد من يجيبني إجابة شافية، وكنت أقول في نفسي لا بد أن لهذا الترتيب أسراراً وحكماً وفوائد تتصل بالمتوضئ من حيث تكوينُه وخلقُه، ومن حيث الأثرُ المترتب على هذا الترتيب بما يوافق تكوين هذه الأعضاء.

وقد صدرت أخيراً دراسة علمية تناولت هذا الموضوع وبيّنت أن موقع

هذه الأعضاء جاء مرتّباً في مركز المخ - حسب ترتيبه بما نص عليه القرآن الكريم - وهو دليل واضح وبرهان ساطع على أن الله تعالى وحده هو المشرِّع؛ لأنه يعلم حقيقة خلقه ويعلم ما يصلح لهم، وما يناسب خلقهم، وما يلائم أحوالهم ومعاشهم وسائر حياتهم زماناً ومكاناً في ظاهرهم وباطنهم، وفي عاجلهم وآجلهم، قال تعالى: ﴿ÌÕÕZVÝÚVØÕÅÿVV•K VÈÕ@ÕÕ¥~ÈÕ@ÕV•ÝY‰KS (14) »[1] فسبحانه من إله عليم عظيم قدير .

q q q

---

(١) سورة الملك، الآية (١٤).

التوبة طريق الفرار إلى الله

والكيِّس الفَطِن هو الذي يأخذ نفسه بالتوبة إلى الله تعالى، ويقف بها على باب معرفة أسمائه وصفاته تدبراً وتفكراً وتعلماً واستهداء، فلعل الله تعالى يهديه إلى صراطه المستقيم، ويمن عليه من خلال التوبة بالفرار إليه، فالتوبة إلى الله تعالى هي طريق الفرار إليه عز وجل، قال الله تعالى: ﴿[illegible]﴾ «[1]».

وإذا كان الفرار إلى الله تعالى يعني التوبة إليه سبحانه فإن ذلك يدل على وجوب النصح والإخلاص في التوبة لله تعالى، والإقبال بالكلية عليه جل جلاله . قال تعالى: ﴿[illegible]﴾ «[2]».

قال ابن قيم - رحمه الله - : «قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء: الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٠).

(٢) سورة التحريم، الآية (٨).

تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لاكمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عزوجل»(١) .

والإنسان يفر من الشيء إذا تحقق من خطره وشره، وذلك لا يكون إلا بمعرفة هذا الشيء. والعلم بأخطار هذا الشيء وشروره في غاية الأهمية حتى تكون التوبة نصوحا، ولا يعني ذلك – بحال - فعل هذا الشيء ليحصل العلم بخطره وشره فذلك ما لا يقول به عاقل، ولكن العلم به يأتي من خلال التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة، وفي التأمل والنظر في أحوال الناس حاضرا وماضيا، وفي آثار الذنوب عليهم وعلى الحياة في شتى مظاهرها وأحوالها، وعلى ذلك فقد عني العلماء ببيان أجناس الذنوب التي يتاب منها. قال ابن قيم - رحمه الله -: «ولا يستحق العبد اسم (التائب) حتى يتخلص منها وهي: اثنا عشر جنساً مذكورة في كتاب الله عزوجل، هي أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق،

---

(١) مدارج السالكين : (١/٣٣٥).

والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين؛ فهذه الاثنا عشر جنساً عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وقد يكون في الرجل أكثرها، أو أقلها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك، وقد لا يعلم.

فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها؛ وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها»(١).

q q q

(١) نفس المصدر : (٣٣٥/١).

أقسام الذنوب

والـذنوب ليسـت كلهـا في مسـتوى واحـد بـل هـي تنقسـم إلى صـغائر وكبائر وذلك هو ما نص عليه القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وإجماع السلف، والنظر والاعتبار.

فمــن النصــوص القرآنيــة الكريمــة في ذلــك، قــول الله تعــالى: ﴿ÜÄ ØÑ þ ÄÉÝÄÎÑ Ö S Ö þ ÄÜÕäÎÕ Š † Ú ÄÁÄÄ Ñ ÕŠÝ ÕÄ ØÑ ŸÝ ÄÄÕV»[1] وقولــه ســبحانه: ﴿Ä@ ŸÝ ŸÝ Ö ÕÞÄ ÜÕÄÄÄ ÄÄÄÔ ÖÄÄ@ÄÄÄ ¬ Š ÄÄÄÄÄÄ ÄÄ@ »[2].

ومما ورد في السـنة مـن ذلـك قـول النبـي «**الصــلوات الخمــس، والجمعـة إلـى الجمعـة، ورمضـان إلـى رمضـان، مكفـرات لمـا بيـنهن إذا اجتنبـت الكبـائر**»[3]، والـنص علـى كبـائر الـذنوب يعـني أن هنـاك صـغائر الذنوب في المقابل، وإن كان لم يرد في القرآن الكريم لفظ (صغائر) مضافاً إلى الـذنوب كمـا ورد لفـظ (كبـائر) في الآيتـين، علـى أن مـا جـاء في آيـة سـورة النـجم فيـه مـا يـدل علـى صـغائر الـذنوب، وذلـك أن لفـظ (اللمـم) في الآيـة

---

(١) سورة النساء، الآية (٣١).
(٢) سورة النجم، الآية (٣٥).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٩/١) رقم (٢٣٣).

الكريمة يراد به مادون الكبائر، وهو قول الجمهور.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في الآية الأخـــرى: ﴿ÜKÑnàVÙ YTSÑ NÙKÙKÙWÙ †ÚWÙÚÚWÙWÙ ŠÕÖÚTÙÜÙÙ 5ÑÙÙÙ ôÙÑÝÑÙ

ÞÝÙÑØVÑÝÑÏ YÙÝÙÑVÙÏÑÙ ÕÝÙ †ÝÙÙÝ ¾ÝÙ ÝÙÙ†ÜÙT] (31)

«(١) وقـــال ههنـــا: ﴿ÙÙY ðÝ ÙnàÝÙ ÙÝ ÙÙ ÝÙÙ@ÙÙÙ Y

ÙÝÙ@ÙÝ Š ÔÙÙ@ÙÝÙÙ ÙÙÙ﴾ » (٢) وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال (٣).

وقـال ابـن قـيم – رحمـه الله – : «والصـحيح قـول الجمهـور أن اللمـم صغائر الذنوب»(٤) ثم قال : «هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم»(٥) ولفظة (اللمم) في لسان العرب تدل على المقاربة، والقلة. قال الأزهري: قال الفراء (إلا اللمم) معناه: إلا المتقارب من الذنوب الصغيرة.

وقال أبو إسحاق الزجاج: أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة، ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه، يقال: ألممت به، إذا زرته، وانصرفت

---

(١) سورة النساء، الآية (٣١).

(٢) سورة النجم، الآية (٣٥).

(٣) تفسير ابن كثير : (٤٦٠/٧).

(٤) مدارج السالكين : (٣١٧/١).

(٥) نفس المصدر : (٣١٧/١).

عنه، ويقال: ما فعلته إلا لمما وإلماماً، أي الحين بعد الحين، وإنما زيارتك إلمام، ومنه: إلمام الخيال (١) .

على أنه قد ورد عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما تفسير(اللمم) بأنه يلم بالكبيرة ثم لايعود إليها، وكذلك ورد هذا التفسير عن الحسين رحمه الله.

قال السدّي: قال أبو صالح: سئلت عن(اللمم) فقلت: هو الرجل يصيب الذنب، ثم يتوب وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم (٢) .

قال ابن قيم: «وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حينا بعد حين، فإنه يقال: ألمّ بكذا إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت مقدمات الزنا من نظر وغيره لمماً؛ لأنها تلم بما بعدها، ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماما، أي حينًا بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية وليس معنى الآية ﴿Y‹ÕX@ÑMÑ Üé‹SÏÐ ðÿ YÜ@ ÐÚÙÜ@ÑMÐ ¬ Y‹ÚÉ@﴾ (٣) أنهم لا يجتنبونه فإن هذا يكون ثناءً عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال، وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه، فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور : (٥٤٩/١٢).
(٢) مدارج السالكين : (٣١٦/١).
(٣) سورة النجم، الآية (٣٢).

هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ومضمون هذا: أنه لايكون محسناً مجزياً بإحسانه ناجياً من عذاب الله، إلا من كبائر الإثم والفواحش، فحَسُنَ حينئذ استثناء اللمم. وإن لم يدخل في الكبائر فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش، وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثني منه وإن لم يدخل في نفسه، ولم يتناوله لفظه كقوله تعالى: ﴿ [illegible]
»(١) فإن(السلام) داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام (٢).

وجاء في السنة النبوية ما يدل على الصغائر بالمعنى وليس باللفظ، ومن ذلك قول النبي : «**إياكم ومحقرات الذنوب**»(٣).

وإذا كانت التوبة هي ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفة خطره وشره وأنه لا فائدة منه بكل حال.

وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً، وعلى ذلك فإن معرفة الذنوب واجبة، ومعرفة كبائرها وصغائرها أمر واجب، فلكل منها توبةٌ، فهي لذلك ليست واحدة، كما أن الجزاء المترتب عليها ليس

---

(١) سورة مريم ،الآية (٦٢).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣١٨-٣١٩).

(٣) صحيح، أخرجه أحمد في المسند (٣٣١/٥) من حديث سهل بن سعد، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥٢٢/١) رقم (٢٦٨٦).

واحداً كذلك، فعقوبة الزنا ليست مثل عقوبة النظر، وعلى ذلك فإن الحديث عنها - وصفاً وبياناً لها - يكتسب أهميته من زاوية أن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب.

وثمة سؤال يفرض نفسه في هذا المقام وهو: لماذا كان تقسيم الذنوب إلى صغائر، وكبائر؟ ولماذا لم تكن كلها كبائر فقط، أوصغائر؟

والجواب على ذلك: أن مقتضى الفطرة تستدعي ذلك التقسيم وذلك «أن الكبيرة قلَّما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر. فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل القاتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة»(١)، فالتقسيم مبني على ما هو موجود مشاهد في حياة الناس، والكبائر مطاياها الصغائر.

ويرى أبو إسحاق الإسفرائيني وغيره أن الذنوب كلها كبائر وليس فيها صغائر، وذلك بالنسبة إلى من عصي بها وهو الله تعالى، فليس النظر إلى صغر الخطيئة بل إلى كبرياء وعظمة من عصي بها (٢)، وجاء في الآثار أن الله أوحى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها،

---

(١) إحياء علوم الدين : (٤/ ٣٢).
(٢) إحياء علوم الدين : (٣٢/٤)، مدارج السالكين: (٣١٥/١).

ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها[١].

وقد اختلف السلف في تعريف الكبيرة وعدد الكبائر اختلافاً لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر: أسبع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وقال: كل شئ عصي به فهو كبيرة، من عمل شيئاً فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر .

وقال عبدالله بن مسعود t : ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿ ÜXÏ nŸVW ŃéŠŸT ÚVEMXWŲ† ŠTÞXEWÜěäWŠ
ØÑÞXEWÉÉPMÑŠ
ØÑŽŸTVWQV »[٢] فهو كبيرة.

وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب.

وقال الضحاك: هي ما أوعد الله عليه حدًّا في الدنيا أو عذابًا في الآخرة.

---

(١) إحياء علوم الدين : (٤/ ٣٢)، مدارج السالكين: (١/٣٢٠).

(٢) سورة النساء ، الآية (٣١).

وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيراً أو عظيماً نحو قوله: ﴿IãŠKI ÜtÙ ŠéÏ†‚ ÙÛ¤k»﴾(١)، ﴿ÏŒKI ÛÚˆ‚ Œy ÜtÙ‚﴾ ¤k»ÙÛ ŸÅ þ‹‚(٢)، ﴿IKI ÛÙ@Ö ÏŒ Ïõ Œy ÛÙÛ »y ¥‚~ÿ﴾(٣)، ﴿ŒÛÙ ÜtÙ ÏŒ Ù﴾ ¥‚~Ø «(٤)، ﴿Ï‹Š ÙÖ ÙÛÙ ŠÛÙ ÿ» ¥‚~ÿ﴾(٥)، ﴿ÏŒ ÙÖ ÜtÙ Ü@ÛÙ Ø¥‚~Ú†﴾(٦).

وجاء في بعض الأحاديث النبوية تحديدها بسبع، وبأقل من ذلك. جاء في الصحيحين في حديث أبي هريرة t عن النبي قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله. وما هن؟ قال:الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(٧)، وجاء

---

(١) سورة النساء، الآية (٢).
(٢) سورة الإسراء، الآية (٣١).
(٣) سورة لقمان، الآية (١٣).
(٤) سورة يوسف، الآية (٢٨).
(٥) سورة النور، الآية (٢٦).
(٦) سورة الأحزاب، الآية (٥٣). وانظر فيما سبق : مدارج السالكين: (١/٣٢٠-٣٢٢).
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠١٧/٣) رقم (٢٦١٥)، ومسلم في صحيحه (٩٢/١) رقم (٨٩).

في الصحيحين أيضاً من حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما- عن النبي قال: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»(١)، وجاء فيهما أيضاً عن عبدالرحمن بن أبي بكرة رضي الله عنهما عن أبيه عن النبي قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ -ثلاثا- قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين- وجلس وكان متكئاً- فقال: ألا وقول الزور. فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت**»(٢).

وقد أشار ابن قيم الجوزية إلى نقطة مهمة فيما يتصل بموضوع الصغائر والكبائر من الذنوب فقال: «وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة ، وترك الخوف، والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبتها، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٤٥٧) رقم (٦٢٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٢٢٩) رقم (٥٦٣١)، ومسلم في صحيحه (١/٩١) رقم (٨٧).

ومن غيره»(١).

وهذا الموقف من ابن قيم وقبله الغزالي -رحمهما الله تعالى- يدل على النظرة التربوية الواسعة من علماء هذه الأمة السالفين والتي توجه الفرد المسلم إلى أهمية وقيمة تربية نفسه بالانكسار لله تعالى، والتواضع لجلاله، وكبريائه، فعليه أن يتفقد قلبه، ويفتش في أرجائه، وينظفه من الغرور، ويخلص نيته لله تعالى، فهو سبحانه ينظر إلى قلوب عباده وأعمالهم، ولا ينظر إلى أجسامهم، وأموالهم، وألوانهم، فإذا قارف العبد كبيرة فعليه الاجتهاد في التوبة النصوح، والإكثار من الطاعات والقربات لله تعالى حتى يحصل عنده انكسار في قلبه من أجل الله تعالى، ومن الخوف من شديد عذابه، وأليم عقابه، وعليه إذا قارف صغيرة ألا يستخف بعقاب الله له، وغضبه عليه، فالاستخفاف بذلك قد يجعل العقوبة ترتقي إلى مستوى العقوبة على الكبيرة، فيهلك حينئذ مع أنه قارف صغيرة، وتتضح عناية علماءنا السابقين بأهمية هذا الموضوع من خلال تناولهم له، بتعداد الأسباب التي تؤدي إلى إلحاق الصغائر بالكبائر.

---

(١) مدارج السالكين : (٣٢٨/١).

الأسباب التي تلحق الصغائر بالكبائر

جاء حديث أسلافنا عن ذلك حديثاً يسفر عن نظرة تربوية شمولية تناولت أبعاد تلك الأسباب وبيان علاجها، وبيان ما يمكن أن ينتج عن إهمال علاجها من آثار سلبية، وذلك كله وسواه يدل بوضوح على أن علماءنا السالفين لم يكونوا منعزلين عن حركة الحياة ومعرفة ما يطرأ على ساحة المجتمع الإسلامي، بل كانوا على معرفة تامة بها من خلال رصد حركة مجتمعهم، ورصد ما يطرأ على ساحته من متغيرات، ويتضح ذلك جلياً من خلال ما كتبه ابن قيم - رحمه الله- في كتابه - الذائع الرائع – «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، فقد حاول ببراعة واضحة استقصاء آثار الذنوب والمعاصي السلبية في الحياة على مستوى الفرد والأسرة، والمجتمع والأمة، والإنسانية، وعلى الحيوان والنبات والجماد، سواء كانت ذنوباً كبيرة أو صغيرة، وقد أفاض الغزالي - رحمه الله - في بيان أسباب ما تعظم به الصغائر من الذنوب، ونوجز ذلك فيما يلي:

السبب الأول:

الإصرار والمواظبة على الصغيرة، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها - لو تصور ذلك - كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك: قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ فتؤثر فيه، وذلك

القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله : «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ**»(١)، والأشياء تستبان بضدها، فإن كان النافع من العمل هو الدائم - وإن قلّ - فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، وكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب.

السبب الثاني :

استصغار الذنب، وهو نفق مظلم يسير فيه أهل الغفلة والمنافقون، حيث إن استصغار الذنب يترتب عليه إلْفُه وعدمُ كراهيتِه أو النفورِ منه، مما يقتضي ذلك مداومة هذا الذنب، وللتحذير من استصغار الذنب وخطره وأثره الفاجع في القلب، ومن ثم السلوك جاء الخبر بالتحذير من ذلك، قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه، فقال به هكذا»(٢).

وكم للذنوب الصغائر من ضحايا هلكوا بسبب استخفافهم بها فألفوها، وأدمنوا على فعلها فنقلتهم إلى طريق الهلاك والعذاب، وتركتهم صرعى لا بَوَاكي لهم، يجنون ثمار ذلك حسرة وعذابا، ونكدا وظلاما، واجتراء

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

على مخافة الله تعالى، وافتراء عليه سبحانه، و ربما بلغوا من خسة اجترائهم على مقام ربهم وجلاله أن يقول أحدهم: ليت كل ذنب عملته مثل هذا. ولم يعلم هذا وأمثاله أن الله تعالى أخفى سخطه وغضبه في معاصيه، فلا يعرف العاصي لربه بأي معصية سيؤخذ، ويحلّ عليه غضب الله وسخطه عياذًا بالله من ذلك.

السبب الثالث :

السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، ومثل من يفرح بالذنب الصغير ويسر كمثل مريض فرح بانكسار إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه ومرارته، فهو بذلك لا يرجى علاجه، والشيطان اللعين يصطاد ضحاياه - وهم كثيرون على طريق الفرح بالمعصية والسرور بها- بل ويقودهم من أعناقهم بحبال التهوين من شأن المعصية وخطرها وأثرها المدمر في حياتهم، ويخرجهم من دائرة الستر إلى ميدان الفضيحة والمجاهرة بها، فلا يجد الواحد من هؤلاء أدنى خجل من نفسه ولا حياء من غيره، فيصرح بمعصيته متبجحًا بها، فرحًا بمقارفته إياها، والمجاهرة بالمعصية تهدم كيان المجتمع وتقطع أوصال الأمة؛ لأنها لون من ألوان إشاعة الفحشاء، والله تعالى توعد في كتابه الكريم من يحب إشاعة الفاحشة في مجتمع المؤمنين، فكيف بمن يفعلها أو يروج لها، قال الله تعالى: ﴿ XI ûU@ŸY ÝyY Š™ŸS éUK ÜKÜ ŽVY ÄVY

@ŸŸ™YV-Sà Ÿ Ŷø@ŸY ŸÏ Ûf ŸŸSŸ ÉŸŸ ØŸV ŸŸŸ ‡}KŸ~y Á

(19) ÜéÈÙÛÅŽV, ŴỲ ŠŠŴV ŞÎÅŸV8 @ÕŸZ ,• @V †ŸŠŸRÖ@

»(١) والوسائل لها حكم المقاصد، وما قارب الشيء يعطى حكمه، فكل سبيل يؤدي إلى الفاحشة وإشاعتها في المجتمع المسلم فهو وأصحابه يشملهم هذا الوعيد الشديد الذي لا يتخلف، فهو وعيد جبار السماوات والأرض، وقاهرهما، جل جلاله وعز سلطانه وعظم كبرياؤه.

والذي يليق بمُقارِف الذنب أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب هزيمته أمام عدوه الشيطان اللعين، وبسبب بعده عن الله تعالى، ومن ثم سقوطه من عين الله تعالى وعنايته حتى خلَّى بينه وبين المعصية.

السبب الرابع:

اغترار المذنب المرتكب للصغيرة بستر الله وحلمه عنه وإمهاله إياه، والذي ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن الله يمهل ولايهمل، فلايغتر مرتكب الذنب بهذا الإمهال، وليتذكر أن عقاب الله تعالى أليم شديد، وأن الذنوب هي سبب لكل بلاء وشر أصاب الإنسان ويصيبه، قال الله تعالى: ﴿ ØãXŸéSSŸ ØSHWÑÎÅKÊV »(٢) أي بسبب ذنوبهم، وقال

---

(١) سورة النور، الآية (١٩).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٦).

سبحانه: ﴿ †WŴƎ¤KŏŐŎØ šÒÙŴ - ãŸŸŖŸ †ŴþŽŴKŽ ÑŴ
ŏŐŎy šÒŸŴ šŸŴˆđ ÒŽ@šŽŸŽŴKŏŐŎy šÒŸŴ†‰Y †ŴŸˆŴŴ
8 @ŎŸŴ †ŴŴ†ŴÎŸŴKŏŐŎy šÒŸŴð³ ¤K@ŠŸ†ŴÉŎŴ
(4) f û éŠŸ<ŴŸy šŎŠKŴŠ†Ŵ ŸÑŴŴ y šŴŸ<ŴŴ ﴾ « (١) وربما كان الإمهال من الله للمذنب مقتاً ليزداد بذلك إثماً؛ والسعيد من أسعده الله بطاعته.

السبب الخامس:

المجاهرة بالذنب بذكره بعد اقترافه والحديث عنه، وذلك هو سلوك الحمقى والغافلين الذين يجنون على أنفسهم وعلى غيرهم بهذا الصنيع - والحال أن الله تعالى قد سترهم أولاً ففضحوا أنفسهم- ولاشك أن في هذا السلوك تحريكاً لدوافع الشر عند الآخرين، وإثارة للفتنة وتهييجاً لغرائز الشهوة، وقد جاء الوعيد الشديد في السنة النبوية المطهرة لمن يقوم بهذا السلوك البغيض المشين تنفيرا منه وتحقيرا لشأنه، وترهيبا وتخويفا لفاعله، حتى ينأى عنه المسلم فلا يفعله. قال - عليه الصلاة والسلام - : «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح**

---

(١) سورة العنكبوت (٤٠).

فيكشف ستر الله، ويتحدث بذنبه»(١)، وهذا لأن من صفات الله ونعمه، أنه يظهر الجميل، ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالإظهار كفران لهذه النعمة، وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغِّب غيرك فيه فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿ ÕEHÝYHSÈ@ÖÜÉŠÝYHSÈ@ f û ěàÝYÈXV Þ Ùë@Ǒf û èSSKYẃ ÅWÝÝQ y ãSpÅWV ÇèSÅÙÈ@ÕXEV » (٢)، وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه(٣).

ولاشك أن المجاهرة بالمعصية، والترويج لها بكثرة الحديث عنها، وترغيب الآخرين فيها لا يصدر إلا عمن نكس الله قلبه، وأعمى بصيرته، ومسخ عواطفه ومشاعره، وأظلم نفسه، فهو يرى الباطل حقًا، والفاحشة زينًا، والفساد إصلاحاً، والصد عن سبيل الخير دعوة، فظاهره إنسان، وباطنه شيطان عياذاً بالله.

والله تعالى مسخ اليهود قردة وخنازير حين جاهروا بالمعصية وتنادوا إليها، وسواء وقع المسخ على أبدانهم وقلوبهم، أو على قلوبهم، فإن ما حلَّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٥٤/٥) رقم (٥٧٢١)، ومسلم في صحيحه (٢٢٩١/٤) رقم (٢٩٩٠).

(٢) سورة التوبة، الآية (٦٧).

(٣) إحياء علوم الدين : (٣٣/٤).

بهم دليل على أن التجاسر على المعصية والمجاهرة بها من أسباب مسخ القلوب وخسفها، فيخسف بها كما يخسف بالمكان وما فيه، وعلامة خسف القلب كما يقول ابن قيم الجوزية: «أنه لا يزال جوالاً حول السفليات، والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوالا حول العرش»(١) فهو لا يفكر إلا في معالي الأعمال، والأقوال والأخلاق. «فسبحان الله! كم من قلب منكوس، وصاحبه لا يشعر، وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به، وكم من مفتون بثناء الناس عليه، ومغرور بستر الله عليه، ومستدرج بنعم الله عليه - وكل هذه عقوبات وإهانات - ويظن الجاهل أنها كرامة»(٢).

السبب السادس:

من الأسباب التي تعظم بها الصغيرة حتى تكون في مستوى الكبيرة، أن تصدر الصغيرة من عالم يقتدى به، وذلك أن العالم يقتدي به الناس، وسيرته تبقى بعد مماته، فإذا قارف الصغائر فإن الناس يتحدثون بذلك، وربما ظن الجهلاء والحمقى منهم أن مقارفة الصغائر أمر هين، وإلا لما فعلها عالمهم فيقتدون به حينئذ ويتجاسرون على ارتكابها، فيحصل بذلك فساد كبير،قال

---

(١) الجواب الكافي : (١٢٧- ١٢٨).

(٢) الجواب الكافي: (١٢٧- ١٢٨).

ابن عباس - رضي الله عنهما-: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها، ويحملها الناس، فيذهبون بها في الآفاق. وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل السفينة تغرق ويغرق أهلها.

وفي الإسرائيليات: أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة، ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم:قل له:إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار (١).

q q q

(١) انظر فيما سبق: إحياء علوم الدين (٣٣/٤).

أقسام العباد وأنواعهم في التوبة

يبقى هنا سؤال من المهم طرحه في هذا المقام وهو: هل يخلو حال المسلم من بعض الصغائر التي ترد على حياته من غير اتصال لها بالأسباب المذكورة والتي تجعلها في مقام الكبيرة؟

والجواب على ذلك يقودنا إلى الحديث عن أقسام العباد وأنواعهم في التوبة، وهم على أربع طبقات كما بين ذلك الغزالي – رحمه الله – في "الإحياء":

فالطبقة الأولى: هم أهل الاستقامة على التوبة إلى آخر العمر، فيتداركون ما فرط، ولا تحدثهم أنفسهم بالعودة إلى ما مضى، ولا يرتكبون إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر عادة، وهؤلاء هم أهل التوبة النصوح.

والطبقة الثانية: هم الذين سلكوا الاستقامة في أمهات الطاعات وتركوا الكبائر كلها، ولكنهم لا ينفكون عن ذنوب تعتريهم لا عن عمد وتجريد قصد، ولكنهم يبتلون بها في مجاري أحوالهم، وهم يلومون أنفسهم في ذلك، ويندمون ويتأسفون ويجددون العزم على الاحتراز منها، وأهل هذه الطبقة أدنى مرتبة من أهل الطبقة الأولى. وحالهم هو أغلب أحوال التائبين، وذلك لأن «الشر معجون بطينة الآدمي قلَّما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فذلك في غاية البعد، وهؤلاء

لهـم حسـن الوعـد مـن الله تعـالى إذ قـال: ﴿ @ŸÏ%©!$# tbqç7Ï^tFøgs† uŽÈµ¯»t6x. ÉOøOM}$# |·Ïmºuqxÿø9$#ur žwÎ) zNuH©>9$# 4 ¨bÎ) y7/u‘ ßìÅ™ºur ÍotÏÿøóyJø9$# 4 ﴾ فكل إلمام يقع بصغيرة لاعن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون مـن اللمـم المعفـو عنـه، قـال تعـالى: ﴿ šúïÏ%©!$#ur #sŒÎ) (#qè=yèsù ºpt±Ås»sù ÷rr& (#þqßJn=sß öNæh|¡àÿRr& (#rãx.sŒ ©!$# (#rãxÿøótGó™$$sù öNÎgÎ/qçRä‹Ï9 ﴾(٢) فـأثنى عليهم مع ظلمهـم لأنفسـهم لتنـدمهم، ولـومهم أنفسهم عليه»(٣).

ويجـيء قـول المصـطفى : «كـل ابـن آدم خطـاء، وخـير الخطـائين التوابون»(٤) دليلاً ناطقا على أن الصغائر التي لا ينفك عنها المسلم عادة لا تقدح في توبته، ولا تلحقه بدرجة المصرّين.

والطبقـة الثالثـة: وهـم الـذين يسـتمرون علـى التوبـة مـدة، ثم تغلـبهم شـهواتهم في بعـض الـذنوب فيقـدمون عليهـا عـن قصـد لعجـزهم عـن السـيطرة على أنفسـهم وقهـر شـهوتهم، وهـم مـع ذلـك مواظبـون علـى الطاعـات تـاركون

---

(١) سورة النجم، الآية (٣٢).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٣٥).

(٣) إحياء علوم الدين: (٤/٤٤).

(٤) حسن، أخرجه الترمذي في السنن (٤/٥٦٨) رقم (٤٢٥١). وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/٨٣١) رقم (٤٥١٥).

لجملة من الذنوب مع القدرة عليها والاشتهاء لها، وإنما غلبتهم أنفسهم مرة أو مرتين وهم يودون لو أقدرهم الله تعالى على قمع شهواتهم والسيطرة على أنفسهم، وكفاهم شرها، لكنهم مع ذلك تسوّل لهم أنفسهم، وهم يسوّفون بالتوبة مرة بعد أخرى، ويوماً بعد يوم.

وإذا كان هؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ÙĕŒŠŽV‚ÿÙĕV
ŒŽŽV‚ÿÙĕV †Īˉ™ÕŸfl² ¾ÙÙŒV ÑĕRÕŽV ØăŠĕŠŠŠŸ ÑĕŠŠŠŠ@
ØăˆÕŒVà‡ éŠŠÙÜKŠ @øŠÕŒV†ĮŒŒª» [1] فإنهم مع ذلك معرَّضون للخطر بتسويفهم فيخشى عليهم بذلك أن يفجأهم الأجل وهم على تسويفهم، فتكون خاتمتهم سيئة بذلك. وإذا كان الذنب في حياة بعض الناس نقدًا معجلاً، وكانت التوبة نسيئة مؤخرة كان ذلك دليلاً على الخذلان والخسران عياذاً بالله تعالى.

وليحذر المسلم من التسويف في التوبة، فإن كل نَفَس يوصل بما بعده وهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به.

وأما أهل الطبقة الرابعة: فهم الذين يتوبون فترة، ثم يعودون إلى مقارفة الذنوب من غير ندم وأسف على ذلك، بل ينهمكون في ذلك انهماك الحمقى والغافلين، وأمر هؤلاء في خطر عظيم إن لم يتداركوا أنفسهم بالتوبة

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٢).

الصادقة وتلافى ما فرط منهم في جنب الله تعالى، ولا يفيدهم قولهم - يوم الجحيم ربنا رحيم -، وقولهم: جنته لا تضيق على أمثالنا، ومعاصينا لا تضرّه؛ فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار، وطلبها لمجرد الرجاء – مع خراب الأعمال – كطلب الكنوز في المواضع الخربة، وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم، وليت من أبحر استغنى، وليت من صام وصلى غفر له. فالناس كلهم محرومون إلا العالمين، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملين، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم، وكما أن من خرب بيته وضيّع ماله، وترك نفسه وعياله جياعاً، يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب، يعده ذوو البصائر من الحمقى والمغرورين – وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله- فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصّر عن الطاعة، مصرّ على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين»(١).

وليعلم كل مقصّر ومفرط من أهل هذه الطبقة وسواهم، أن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن يريد الدخول فيه توبة صادقة لله تعالى وإنابة خالصة له سبحانه، وأنه ليس هناك حواجز لمنعهم من ذلك ولا وسائط من

---

(١) إحياء علوم الدين : (٤/٤٦،٤٥).

أي نوع بينهم وبين ربهم وخالقهم، وهو سبحانه واسع المغفرة، لمن تاب وأناب إليه، قال تعالى: ﴿ ŜÔWYHÅ%fT† YÆ@ÜYYVÝK ÆVÙ£ÊSNÊMVÕÑø KÆ©ÝØWÕ,ÝVÕÛÐRÎN ÝÝQÐ ŠÙÜ@ ÆÛÜ@ÙVÕWÅþŸÐ

@ÙRŠé ‡Ð –Ý~Å[† » [1]، وكل ما يحتاجه العبد المذنب لدخول باب التوبة والإنابة إلى الله تعالى: الصدق والإخلاص في التوبة، والندم على ما سلف، والاشتغال بالطاعات والعبادات والقربات لله سبحانه، والإكثار من ذكره، واستغفاره، وصرف القلب، واللسان، والجوارح في ذلك، ورد المظالم إلى أصحابها وذلك متيسر للتائب غاية التيسير، وليملأ العبد التائب إلى ربه النفس بالرجاء في رحمة ربه وغفرانه، فإن الرجاء مع العمل يوصل إلى الجنة بإذن الله تعالى.

«دخل النبي على رجل وهو في النزع فقال: كيف تجدك؟ فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال : «**ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا، وأمنه مما يخاف**»[2] .

وقال علي t لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا

---

(١) سورة الزمر، الآية (٥٣).

(٢) حسن، أخرجه الترمذي في السنن (٣١١/٣) رقم (٩٨٣)، وابن ماجة في السنن (١٤٢٣/٢) رقم (٤٢٦١). وحسن إسناده الأرناؤوط في تحقيقه لجامع الأصول (١٠/٤).

يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك(١) .

وجاء في الإسرائيليات: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: أحببني، وأحبب من يحبّني، وحبّبني إلى خلقي. فقال: يا رب! كيف أحبّبك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني، وذكّرهم بذلك، فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل (٢).

وعلى العبد المذنب التائب إلى ربه أن يقلّب فكره وبصره في آيات الله تعالى ودلائل حكمته ولطفه وتدبيره في خلقه، فان ذلك من شأنه أن يقوي رجاءه في خالقه وسيده جل جلاله، وليتأمل في دلائل اللطف والرحمة والعناية في خلق الإنسان والأكوان، وليكثر التأمل في رحمة الله التي وسعت كل شئ، حتى إن الكافر بالله تعالى لم يحجب عنه ما به قوام حياته واستمرارها، فهو يتنفس الهواء الذي خلقه الله في كونه، ويمشي على الأرض التي ذللت بأمره سبحانه، وتشرق عليه الشمس كغيره بإذن خالقها عز جلاله، ويستفيد من طاقتها الحرارية، فهذه المخلوقات وسواها المسخرة بأمر الله تعالى في كونه من أجل خلقه لم تمتنع عن أداء عملها لمن كفر بخالقها. فالله تعالى هو رب الخلق أجمعين يرزقهم، ويطعمهم، ويرحمهم، ويعتني بهم، مسلمين وكفاراً رحمة منه وفضلاً وإحسانا، ثم يجازيهم يوم القيامة بناء على أعمالهم ولا يظلمهم، مع أنه سبحانه وتعالى لو عذب الكافرين به في الدنيا، والآخرة بالنار لم يكن

---

(١) إحياء علوم الدين : (١٤٥/٤).
(٢) نفس المصدر: (١٤٥/٤).

ذلك ظلماً لهم، ولكنها رحمتُه الواسعة، وليست رحمةَ الخلق الضيقة.

روي أن مجوسياً استضاف إبراهيم - عليه السلام - فقال له: إن أسلمت أضفتك، فذهب المجوسي، فأوحى الله إلى إبراهيم:يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه، ونحن نطعمه منذ سبعين سنة وهو كافر. فخرج إبراهيم في إثر المجوسي، فرده وأضافه وذكر له الأمر. فأسلم المجوسي (١). ألا ما أوسع رحمة الله!! وأشمل فضله وكرمه وإحسانه !

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/١٥٣- ١٥٤).

معالم الهدي القرآني في الحديث عن التوبة

لقد كان حديث القرآن الكريم عن التوبة شاملاً، وذلك دليل على شأن التوبة وخطرها وأثرها في حياة المسلم، وقد ورد لفظ (التوبة) وما يتصرف منه في القرآن الكريم فيما يقرب من ثمانين موضعاً، وسنلقي الضوء بعون الله تعالى على حديث القرآن الكريم في هذه المواضع أو بعضها من الآيات القرآنية الكريمة، فلعلنا نوفق بعون الله سبحانه إلى إبراز شئ من معالم الهدي القرآني في موضوع التوبة، وسنتحدث عن هذه المعالم من خلال تلك الآيات الكريمة بحسب ترتيبها في المصحف وعلى ذلك يمكننا أن نتلمس تلك المعالم من خلال العرض التالي:

المعلم الأول: أن التوبة لا يستغني عنها أحد، فأبو البشر آدم عليه السلام طلبها من ربه سبحانه حتى تلقى منه كلمات كانت سبباً في قبول توبته إلى الله تعالى، وتلك الكلمات هي قول الله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١) كما قال بذلك بعض الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم بتفسير القرآن الكريم كابن عباس وغيره.

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (٢٣).

قال ابن كثير في تفسيره: «وروى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم»(١) .

وهي كلمات تدل على الندم والاستغفار، قال ابن عطية: «وهذا يقتضي أن آدم عليه السلام لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود، وسئل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنب: فقال: يقول ما قاله أبواه ﴿ [(٢) الآية، وما قاله موسى : ﴿ » (٣) ، وما قاله يونس: ﴿ »(٤)(٥)، وذلك يدل على أهمية القول الدال على الاعتراف بالذنب والندم على فعله، والرغبة في التوبة، وطلب المغفرة.

والقرآن الكريم بيَّن تلقي آدم من ربه تلك الكلمات، قال تعالى: ﴿

---

(١) تفسير ابن كثير : (١/ ٢٤١).
(٢) سورة الأعراف، الآية (٢٣).
(٣) سورة القصص،الآية (١٦).
(٤) سورة الأنبياء، الآية (٨٧).
(٥) تفسير ابن عطية : (٢٦١/١).

@ÉÏÏ ... Ø~ŸÈÛ» (١) وهذه الآية الكريمة تدل على مدى عناية الله تعالى بعبده آدم، وقد أخطأ بالأكل من الشجرة –وهو خطأ يليق بمقامه – فرحمة منه سبحانه بعبده آدم ألهمه كلمات اختارهن له ليقولهن لتكون هذه الكلمات سبباً في قبول توبته، وتوبة الله عليه؛ وفي الآية كلام محذوف تقديره (فتلقى آدم من ربه كلمات (فقالهن) فتاب عليه).

قال ابن عطية: «والتلقي من آدم هو الإقبال عليها والقبول له والفهم، وحكى مكي قولاً أنه ألهمها فانتفع بها»(٢) .

قال العلامة ابن عاشور في تفسيره: «جاء بالفاء إيذانا بمبادرة آدم بطلب العفو، والتلقي استقبال إكرام ومسرة، قال تعالى: ﴿ÑŠ…ÓÔ•ŠŽ ÛŠ@ ÑÈ... (٣) ووجه دلالته على ذلك أنه صيغة تفعَّل من لقيه، وهي دالة على التكلف لحصوله وطلبه، وإنما يتكلف ويتطلب لقاء الأمر المحبوب، بخلاف (لاقى) فلا يدل على كون الملاقى محبوباً، بل تقول: لاقى العدو، واللقاء: الحضور نحو الغير بقصد أو بغير قصد، وفي خير أو شر، قال تعالى: ﴿... ÝŠ@ ...

---

(١) سورة البقرة، الآية (٣٧).

(٢) تفسير ابن عطية : (١/ ٢٦٠).

(٣) سورة الأنبياء ، الآية (١٠٣).

†‌ÉšÝW »(١) الآية، فالتعبير بـ(تلقَّى) هنا مؤذن بأن الكلمات التي أخذها آدم كلمات نافعة له، فعلم أنها ليست كلمات زجر وتوبيخ بل كلمات عفو ومغفرة ورضىً»(٢). وقال تعالى: ﴿ @QQR ... ﴾
»(٣).

المعلم الثاني: أن التوبة الجماعية هي التي يترتب عليها الخير للأمة في مجموعها ولذلك جاء الأمر بالتوبة في القرآن بصيغة الجمع (توبوا) ولم يرد بصيغة المفرد (تب)، فالتوبة الفردية يعود نفعها -غالباً- على صاحبها.

والقرآن الكريم يبين أن التوبة الجماعية هي سبيل المؤمنين في كل زمان ومكان، ولما كانت متوقعة منهم وهم أهلها أمروا بها، قال تعالى: ﴿ ... f û ... ﴾
f û éŠ »(٤) قال القرطبي: «واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿ ... f û ... ﴾

---

(١) سورة الأنفال، الآية (١٥).

(٢) تفسير التحرير والتنوير: (١/ ٤٣٧).

(٣) سورة طه، الآية (١٢٢).

(٤) سورة النور، الآية (٣١).

«(١)»(٢)، ويلحظ المتأمل في هذه الآية الكريمة من سورة النور أن الله تعالى قد علق الفلاح على التوبة بصيغة (لعل) المشعرة بالرجاء، ولم يجعل جواب الأمر صريحاً في حصول الفلاح فلم يقل:(تفلحوا) بل علق الفلاح على الرجاء المشعر به لفظ (لعل) كي يجتهد المؤمنون في الطاعات والقربات مع التوبة إلى الله تعالى، فلعل ذلك يكون سبيلهم إلى الفلاح. وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد خوطب بها الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - وهم أفضل الخلق بعد رسول الله في هذه الأمة- والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب -ومع ذلك علق حصول الفلاح لهم على الرجاء، فكيف بمن بعدهم؟ بل كيف بمن يعيشون بعد القرن العشرين؟ إن الأمر في غاية الجد والخطر، وإن سلعة الله غالية لا ينالها إلا من بذل ثمنها.

المعلم الثالث: وإذا كان شأن المؤمنين ما ذكرنا فإننا نلاحظ أن القرآن الكريم قد جاء فيه أمر الله تعالى لهم بأن تكون توبتهم توبة نصوحا، قال تعالى:

---

(١) سورة النور، الآية (٣١).
(٢) تفسير القرطبي : (٥/٩٠).

« (١)

ولكن ثمة سؤال يحسن طرحه، وهو:إذا كان (عسى) في كلام العرب يعني الوجوب إذا صدر ممن يملك الفعل ويقدر عليه كما قال القرطبي وغيره: بأن (عسى) من الله واجبة (٢)، فلماذا أوثر التعبير به هنا في الآية دون مجيء جواب الأمر صريحاً مباشراً في حصول المطلوب من التوبة النصوح؟ وقد حاول العلامة الطاهر بن عاشور الإجابة على ذلك فقال: «والرجاء المستفاد من فعل(عسى) مستعمل في الوعد الصادر عن المتفضل على طريقة الاستعارة.

وذلك أن التائب لاحَقَّ له في أن يعفى عنه ما اقترفه؛ لأن العصيان قد حصل، وإنما التوبة عزم على عدم العودة إلى الذنب، ولكن ما لصاحبها من الندم والخوف الذي بعث على العزم، دل على زكاء النفس، فجعل الله جزاءه أن يمحو عنه ما سلف من الذنوب تفضلاً من الله، فذلك معنى الرجاء المستفاد من(عسى) »(٣) .

المعلم الرابع: لقد اتضح من خلال حديث القرآن عن التوبة مدى سهولة التوبة ويسرها في أمة محمد ، فهي أمة الرحمة والخير واليسر، فليس

---

(١) سورة التحريم، الآية (٨).
(٢) تفسير القرطبي : (٢٠٠/١٨).
(٣) التحرير والتنوير: (٣٦٩/٢٨).

للتوبة في هذه الأمة شروط سوى العزم وصدق النية والندم على ما مضى فعله، والمبادرة إلى قول وفعل الصالحات، ورد المظالم إن وجدت، والاستحلال من الأشخاص إن كانوا أحياء، وهذه كلها وسواها أشياء لا يقع شئ منها على بدن الإنسان، أو نفسه كما هو الحال في توبة الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل حيث أمروا بقتل أنفسهم حتى تقبل توبتهم. قال الله تعالى: «ØŠÙÎØ ØÑÌŘKI XóÝŴ -ăÝóÍÝŴ øÝéÚ Ó/ÎÛ ¢ÌŴ ØÑÌĝŠŴøÜKÌéŠéŠÊÛÓ• Å@ØŠÈ¢ŴŘŸØS| ØÉŠK ØÑÌĝŠŴŸŸ ØÑŸ ÞÝŴ ØÑŸC ØÑØÉŠK ÌéÎŠÊ@Ŵ ñ~ŸÌŸ@ ÉŸ@ÉŠ IŠÝØÑ`ÌÉŸ ÌŴ» [1] تدل هذه الآية الكريمة على أن توبة من عبد العجل من بني إسرائيل كانت القتل. نقل القرطبي في تفسيره عن الزهري قوله: لما قيل لهم [øÜKÌéŠéŠÊÛ ØÑØÉŠKÌéÎŠÊ@ØÑÌĝŠŴ] قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم: كفوا فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبة للحي[2].

أما التوبة في أمة المرحمة والخير أمة محمد ، فهي سهلة ميسرة بفضل الله تعالى، وهي نعمته جل جلاله على هذه الأمة دون سواها. قال سفيان

---

(١) سورة البقرة، الآية (٥٤).

(٢) تفسير القرطبي: (١/٤٠١).

بن عيينة: التوبة نعمة من الله، أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها(١).

ويروى عن ابن عباس وعلي رضي الله عنهما: أنه لما اشتد القتل في بنى إسرائيل هؤلاء وبلغ من قُتل منهم سبعون ألفاً عفا الله عنهم(٢). قال القرطبي: «فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة»(٣).

المعلم الخامس: جاء الترغيب في التوبة في القران الكريم من خلال محاور عديدة نذكر منها ما يلي على سبيل المثال: وعدُ الله تعالى للتائبين بأنه سبحانه يتوب على من تاب وأتبع توبته بالإصلاح. قال تعالى: ﴿ÐV@ÛÙ ÑÊV ðÕÜ ÑÉV -ãÝÌ ŸÅŸVÝÝ ƒ‡ †ÏZVÝÙÑÊV
ϾÉÑÊV ÐV@ ÙÕKI ãŸÕÑÊV ñ‡ éŠV
ÙÞŸ~Ø﴾»(٤).

وهذه الآية الكريمة جاءت بعد الأمر بقطع يد السارق والسارقة قال تعالى: ﴿†ÙŠÝŸÝÏK ÑéŠVÊÑÊV ŠÛ†ÕÕ@ÑV ËŠ†ÕÕ@ÑV
ϕ~ÑŠV ¥ÑÑÊV ŠÕ@ÑŸ @ÝÙÕ ¾ÑÙV†ÑÑÒ †ÙŸ ÷Ý:ŸÅV

(١) نفس المصدر: (١/٤٠١).
(٢) تفسير القرطبي: (١/٤٠٢).
(٣) نفس المصدر: (١/٤٠٢).
(٤) سورة المائدة، الآية (٣٩).

«(١).

والإسلام العظيم دين التربية والإصلاح والتهذيب، فليس الأمر بقطع أيدي السارق والسارقة، تنكيلا بهما وعذابا لهما جزاء ما اقترفا في حق الله، وحق العباد مقصوداً لذاته؛ لأن السارق بفعله السرقة يشيع الرعب في المجتمع المسلم، ويفتح الطريق لمجرمين أمثاله إذا لم يوجد رادع لهم، فلا يأمن الناس – والحالة هذه – على أموالهم، فتعم الفوضى وينتشر الفساد، فكان هذا التشريع الرائع الرادع الذي شرعه الله تعالى لعباده – وهو سبحانه العليم بما يصلحهم، وبما تنصلح به حياتهم – هو التشريع الذي يستأصل جريمة السرقة كلية في المجتمع المسلم، فيأمن الناس في ظل هذا التشريع السامي العظيم على أموالهم، فتزدهر الحياة بهذا الأمن في شتى مظاهرها.

والإسلام العظيم حين يفتح باب التوبة أمام السارق ليعود عضواً عاملاً نافعاً في المجتمع الإسلامي فهو يدل بذلك على عظمة منهجه وقوته وروعته وجلاله وجماله في البناء والتربية، فهو منهج فيه الشمولية، والكمال والتمام والمرونة، والواقعية والمصلحة، وصلاح الدين والدنيا والآخرة.

فانظر أيها الأخ المسلم إلى عظمة هذا المنهج كيف جمع بين الشدة والرحمة في آن واحد، وكيف أمر بقطع يد السارق ثم فتح أمامه باب التوبة

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣٨).

والإصلاح، فالقطع حق الله وحق المجتمع المسلم، وفتح باب التوبة والإصلاح حق لهذا الفرد ليمكنه العودة إلى أحضان مجتمعه المسلم. إنه منهج الإسلام الرائع الرادع، فهو تنزيل من حكيم حميد، فالحمد لله حمداً كثيراً على نعمة الإسلام.

والعجيب أن الإسلام لم يفتح باب التوبة أمام السارق فقط، ولكنه دعاه في ذات الوقت إلى الإصلاح، وهذا أمر له دلالاته وأبعاده التي تعكس جانباً من جوانب الإسلام المشرقة الرائعة في التربية والإصلاح والتوجيه والبناء والتهذيب، والمجتمع الإسلامي وقد تربى بأحكام دينه الطاهرة المباركة، فأكسبه ذلك طهراً ونوراً وعبوديةً لله تعالى واستسلاماً لأحكامه الكريمة العظيمة يدرك جلال وجمال هذه الأحكام وقوتها وعظمتها في بناء الحياة الفاضلة الكريمة، المستقرة المثمرة التي تتيح لأفرادها الانطلاق نحو أهدافهم وهم آمنون مطمئنون، فما أجمل الأمن في الحياة وهو مجتمع قد تسامى في أخلاقه وسلوكياته، فعانق أنوار وأسرار الهدي الإسلامي العظيم في قطع يد السارق، وهو مجتمع يعطي الفرصة، لمن أخطأ من أفراده ليعود إلى أحضان مجتمعه بعد أن يأخذ الحكم الشرعي مداه في التطبيق عليه.

يعود بعد ذلك ليجد أن الله تعالى الرحيم بخلقه قد فتح له باب التوبة ووعده بأنه سبحانه يتوب عليه فهو جل جلاله الغفور للذنوب الرحيم بالعباد، ويبقى على هذا الفرد المسلم أن يلج باب الإصلاح ويبدأ مشواره،

فكما أرعب المجتمع وأخافه فعليه أن يتحرك في صورة جديدة نظيفة طاهرة مليئة بالخير والإيجابية تسر المجتمع المسلم.

قال العلامة الشيخ عبدالقادر شيبة الحمد في تفسيره «تهذيب التفسير»: «وقوله تبارك وتعالى: ﴿-ãÙÒ€Ô ŸÅÏŠVÝÚ f‡ †ÏŠVÝÙÜÈV
Ø~¥ÕVcéÊÈVÓV@ÕÚKÕ^ÏÈV ñ‡ éÕÝVÓV@ÕÛ ÑÈVõ ÎÚ³ ÑÈV﴾[1] أي فمن ندم من السرّاق من بعد ما سرق وعزم على ألاّ يعود واستقام على المحافظة على حدود الله، وحقوق عباده، فإن الله عز وجل يقبل توبته؛ لأنه عز وجل غفور رحيم»[2].

وهكذا تتضح أهمية وفائدة اشتراط الإصلاح من السارق بعد إقامة الحد عليه وتوبته، فالسرقة ظلم واعتداء وهي عمل شرير مفسد، فلا يكفي أن يكف السارق عن ظلمه، ويقعد بعد حده وتوبته، بل لابد أن يعوض المجتمع عن ظلمه ذاك بعمل صالح يصلح به ما أفسد بظلمه.

على أن الأمر في المنهج الإسلامي أعمق من هذا، فالنفس الإنسانية لابد أن تتحرك، فإذا هي كفَّت عن الشر والفساد، ولم تتحرك للخير، والصلاح بقي فيها فراغ وخواء قد يرتدان بها إلى الشر والفساد، فأما حين

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣٩).

(٢) تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به من الأباطيل وردئ الأقاويل: (١٦٦/٤).

تتحرك إلى الخير والصلاح فإنها تأمن الارتداد إلى الشر والفساد.

إن معرفة وتقدير البعد الإنساني للنفس الإنسانية في ظاهره وباطنه لا يوجد إلا في منهج الإسلام العظيم، وهو المنهج الرباني المعصوم، وإن الذي يربي بهذا المنهج هو الله تعالى الذي خلق، والذي يعلم من خلق، والإصلاح من التائب الذي عمل خطيئة بجهالة مطلوب كذلك، وفاعل الإصلاح هذا موعود بعد توبته بالمغفرة والرحمة من الله تعالى، إن صورة التائب من الخطيئة وهو يتحرك صلاحاً وإصلاحاً في مجتمعه لهي صورة جديدة بالاهتمام؛ لأنها دعوة عملية لأفراد المجتمع في أن ينيبوا إلى الله خالقهم تائبين إليه من خطاياهم. قال تعالى: ﴿ WWØ ... ÜWéSÝëTS fÛ ÏÿYÙ@ðØ ¿ðÏ†W
ãYØpéTWø ÙWØÑšÕð ð WÙ ØÑ~ÏWØHÝTWÔSÜWÏ ÞWŸWÚWŸ
ð† ÏWØR àÛWÝSÜW ... ¿ðé TS ØÑÞÝY ôÙYWØÙ ŠÛÕÙ šÛ@
ÝÝYÃŸà-ÖWŸ ÜW ÐÝWŒ ÍŸÙ ÊéðÓ šÛ~Ùç »[(١)] .

إن المعاني والدلالات التي يعكسها فتح باب التوبة أمام المذنبين لهي معانٍ ودلالات أوسع وأكبر من أن يحيط بها الكاتبون والمتكلمون وصفاً، وبياناً، وعدّاً لفوائدها وآثارها في شتى مجالات الحياة، ظاهراً وباطناً وعاجلاً وآجلاً، وهي تعكس خاصية المنهج الإسلامي العظيم الذي يبني ولا يهدم،

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٥٤).

ويربي ولا يهمل، ويجمع ولا يفرق، ويعمّر ولا يدمّر، فليس الأمر في فتح باب التوبة الواسع أمام المذنب مجرد قبول توبة مذنب فحسب، ولكن الأمر ينبغي أن ينظر إليه من خلال شمولية هذا المنهج وكماله، وتمامه وواقعيته، وصلاحيته للإنسان في كل زمان ومكان، ومرونته وقوته، وأنه قبل ذلك كله منهج رباني المصدر أوحاه الله تعالى إلى نبيه الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم رحمة بخلقه، وعناية بهم، وهو منهج لا يهمل العقل في مجالاته المحسوسة الظاهرة، فيه تكريم للإنسان وعناية فائقة به.

والإنسان المسلم إذا أذنب ذنباً فإنه لا يترك يعالج آثار ذلك بأوهام نفسه، وخرافاتها، ولكنه في هذا المنهج الرباني العظيم يجد السبيل أمامه واضحاً ليتوب إلى الله تعالى، ولا يحتاج في ذلك إلى وسائط من أي نوع كانت، بل عليه أن يصدق النية في التوبة، ويخلص العمل، ويجد السير في ذلك السبيل، وهو سبيل يؤنسه ولا يوحشه؛ لأنه سبيل الأنبياء والمرسلين، والصالحين من عباد الله، فلا يستغني عن سبيل التوبة أحد من لدن أبينا آدم عليه السلام وإلى أن تطلع الشمس من مغربها.

وقد جاء الدين الإسلامي العظيم في موضوع التوبة بمنهج إصلاحي رائع بديع يبين كافة الوسائل والسبل التي تعالج في الإنسان أخطاءه وانحرافاته، كما تعالج الآثار المترتبة على تلك الأخطاء والانحرافات في حال وقوعها منه. فابن آدم-إلا من عصمه الله- غير معصوم من الذنوب، وهو بذلك مقارف

للذنب ولابد، وذلك يرجع إلى ما جبل عليه من الضعف أمام شهوات نفسه، قال تعالى: ﴿VĕŠŴÒX@, ŠHΦ ÅΨ~É‗†﴾ (١) الآية، قال القرطبي في تفسيرها: «والمعنى أن هواه يستميله، وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا أشد الضعف فاحتاج إلى التخفيف»(٢).

وإذا علمنا أن هذه الآية الكريمة في سورة النساء قد جاءت في ختام الحديث عما يحرم نكاحه من النساء وما يحل، تبيَّن لنا أن المراد بالآية بيان ما ركب في أصل خلق الإنسان من الضعف أمام شهواته، وتكاد عبارات المفسرين تجمع على هذا المعنى مع اختلاف في الألفاظ.

قال صاحب تفسير «محاسن التأويل» رحمه الله في تفسير هذه الآية ﴿VĕŠŴÒX@, ŠHΦ ÅΨ~É‗†﴾ (٣) : «أي عاجزاً عن دفع دواعي شهواته فناسبه التخفيف لضعف عزمه وهمته، وضعفه في نفسه» ونقـــل

—رحمه الله — عن السيوطي في كتابه (الإكليل) قوله: قال طاووس: **[ضعيفاً]** أي في أمر النساء لا يصبر عنهن(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية (٢٨).

(٢) تفسير القرطبي: (١٤٩/٥).

(٣) سورة النساء، الآية (٢٨).

(٤) محاسن التأويل: (١١٤/٥).

وقال الرازي في تفسيره: «والمعنى أنه تعالى – لضعف الإنسان – خفَّف تكليفه ولم يثقل، والأقرب أنه يحمل الضعف في هذا الموضع لا على ضعف الخلقة، بل يحمل على كثرة الدواعي إلى اتباع الشهوة واللذة»(١).

ونقل ابن كثير في تفسيره(٢) عن ابن أبي حاتم نفس ما نقله السيوطي عنه في (الإكليل). والضعف البشري في الإنسان سر من أسرار وجوده، ودليل ناصع واضح على قدرة وعلم وحكمة الخلاق العليم جل جلاله.

وإن فيما أحله الله تعالى للإنسان من المنكوحات، والمطعومات، والمشروبات، والملبوسات و من سائر الحلال علاجاً لضعفه، فالله تعالى رحيم بخلقه عليم بأسرارهم، شرع لهم من الحلال ما فيه مصلحتهم، واستمرار بقائهم، وجعل التوبة سبيلاً لهم ليصلحوا بها أمرهم مع خالقهم قبل أن يغلق بابها.

والتوبة في الإسلام ليست فقط كفّاً عن الآثام، وندماً على ما فرط، وعكوفاً على العبادة والأذكار، وانزواء عن الحياة، والأحياء فيها، ولو صح ذلك لأمكن القول إن الفرد في الإسلام لا يعيش إلا لنفسه، ولا علاقة له بالآخرين في المجتمع الذي يعيش فيه، ولو صح اطراد ذلك لأمكن تصور مجتمع يعيش كل فرد فيه منغلقا على نفسه. ولكن الفرد في الإسلام لا يعيش

---

(١) تفسير الفخر الرازي : (٧٠/١٠).
(٢) تفسير ابن كثير: (٢٦٧/٢).

لنفسه فقط بل لابد له من الإحساس بوجود إخوته المسلمين في المجتمع الإسلامي، والشعور بقيمتهم وأهميتهم ودورهم في الحياة. فآثار عمله الصالح تنعكس عليه وعليهم، وبالمقابل فإن آثار عمله السيئ تنعكس عليه وعلى الآخرين في المجتمع، فالمسئولية الفردية في الإسلام لا تنافي المسئولية الجماعية بل تتكامل معها، وعلى ذلك فإن التائب مطالب بعد توبته بالصلاح والإصلاح وسواهما حسب درجة الذنب؛ ففي التوبة حق الله تعالى، وحق المجتمع المسلم الذي تأذى بخطايا هذا الفرد التائب قبل أن يتوب، فقد جاءت آيات قرآنية كريمة تطالب التائب بالإيمان والعمل الصالح، كما جاءت آيات كريمة أخرى تطالبه بالإصلاح وسواه، والذي يظهر للمتأمل في هذه الآيات الكريمة وسواها أن نوع الذنب هو الذي يتحدد بناء عليه المطلوب فعله من التائب، وذلك أن الآثار المترتبة على الذنب تختلف باختلافه كبراً، وصغراً، فليس ذنب الزنا كذنب النظر في المؤاخذة وفي الآثار المترتبة عليهما، وذلك كله وسواه يعكس المنهج الإصلاحي التربوي السديد الرشيد، في بناء شخصية الفرد المسلم وتقويمه وتهذيبه فيما هدف إليه الإسلام العظيم من فتح باب التوبة واسعا مشرعاً لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها.

ومن هذه الآيات الكريمة قول الله تعالى: ﴿ [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] (١٥٩) [illegible]
[illegible] »(١)

وفي هاتين الآيتين تحذير بالغ شديد للمسلمين من أن يسلكوا مسالك بني إسرائيل في كتمان العلم والبيان مما تشتد إليه حاجة المسلمين.

وإن مهمة العلماء في هذه الأمة مهمة سامية راشدة، فهم ورثة الأنبياء، وهم الذين أناط الله تعالى بهم مسئولية بيان ما أنزله في كتابه للناس من الهدى والبينات حتى يعلم الناس بذلك وتقوم عليهم الحجة.

وقد حذر الله تعالى العلماء في أمة محمد من كتمان ذلك. قال صاحب «تهذيب التفسير»: «وإن من يكتم شيئاً من العلم والبينات والهدى التي بينها الله تعالى في الكتاب يستحق لعنة الله من أي لون كان أومن أي جنس، حتى ولو كان منتمياً للإسلام؛ لأن المفروض على المسلمين أن يحذروا أشد الحذر مما وقع فيه اليهود والنصارى من كتمان الحق بعد أن علموا أن الله لعنهم على كتمانهم الحق، ولذلك قال هنا: ﴿[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]﴾(١) أي أن كل من كتم الحق من دين الله الذي يجب بثه

(١) سورة البقرة، الآيتان (١٥٩، ١٦٠).
(١) سورة البقرة، الآية (١٥٩).

ونشره لمسيس الحاجة إليه، وقد بيّنه الله في كتابه أو بيّنه رسول الله ﷺ مما لا غنى للمسلمين عن معرفته ليسلكوا به صراط الله المستقيم، ولا ينحرفوا عن المنهج القويم فإن الله تبارك وتعالى ينزل لعنته على هؤلاء الكاتمين للحق بعد ما عرفوه، ويطردهم من رحمته ويحل بهم سخطه، كما أن الله تبارك وتعالى يجعل لعنة اللاعنين من الملائكة والمؤمنين على هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب»(١).

ولخطر كتمان بيان ما أنزل الله تعالى في كتابه من الهدى والبينات جاءت التوبة منه مشروطة بالإصلاح والبيان. قال الله تعالى: [MXI,
@ÑYYÝ ÝÏŠV ŇŠ ŇŠ ŇŠ ŇŠ ÀÂ ÐĶ ÉŠ ñ‡
ÑÃ~ÕŠ ŇŠ @ÑŠ ‡@ŠŽ ~ÖŠ ÿ]» (٢) قال ابن كثير في تفسيره: «أي رجعوا عمّا كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم، وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه»(٣). ألا ما أعظم فضل الله وأوسع رحمته! فسبحانه من إله عظيم كريم رحيم عفوّ غفور ودود، يقبل توبة التائب وإن كان جرمه خطيراً ويتوب عليه مع أن جرم كتمان العلم والهدى للناس في كتاب الله ممن علمه ليس أمراً سهلاً أوهيناً، بل هو في غاية الشناعة والقبح، وهو أمر جد خطير بخطورة

(١) تهذيب التفسير للشيخ عبد القادر شيبة الحمد: (٣٣٤/١-٣٣٥).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٠).
(٣) تفسير ابن كثير: (٤٧٧/١).

آثاره الرهيبة المترتبة عليه.

والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب والوعيد عليه كان المقصود به أولاً أهل الكتاب، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذي يعلمونه. ومع شناعة جرم هذا الكتمان إلاّ أن باب التوبة مفتوح بشرط الإصلاح والبيان: أي إصلاح العمل بالأخذ بتلك البينات عن كتاب الله تعالى وعن سنة النبي ، وبيان الهدى الذي جاء به، وبيان ما كان مكتوماً من ذلك قبل التوبة، وفي معنى البيان: المجاهرة بالعمل الصالح وإظهاره، وبالقول الصالح وإظهاره للناس، ولعل السبب في ذلك يكون لإصلاح ما أفسده الكتمان، حتى يكون الإصلاح والبيان حجة على المنكرين ومن غره الكتمان، وتثبيتاً للمؤمنين، وقدوة صالحة لضعفاء التائبين، ولاشك أن الإصلاح والتبيين بالحق مع التوبة الصادقة لها آثارها الصالحة الإيجابية القوية في سد تلك الثغرات من الفتنة التي نجمت عن الكتمان، وسد أبواب الشك والاضطراب في الأمة، ولذلك كان جزاء التائب من الكتمان لهدي الله تعالى وهدي نبيه ، مع قيامه بالإصلاح، والتبيين على أكمل وجه أن الله تعالى يتوب عليه أي يرجع عليه بالرحمة والرأفة بعد الحرمان المعبر عنه باللعن.

ومما يدل على عظيم رحمة الله تعالى بالتائب من هذا الأمر، أن الله تعالى أسند إلى ذاته العظيمة العلية فعل التوبة، وزاد على ذلك من تأنيسهم

وترغيبهم أنه قال: [illegible] « واصفاً نفسه سبحانه بكثرة الرجوع والتوبة للإيذان بالتكرار كلما أذنب العبد وتاب حتى لا ييأس من رحمة ربه إذا هو عاد إلى ذنبه، فأي ترغيب في ذلك أبلغ من هذا وأشد تأثيراً منه لمن يشعر ويعقل؟ وهذا الفضل، وهذا العفو وهذه المغفرة كل ذلك لا يكون إلا من الله أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، وخير الغافرين، فمنه وله الفضل وهو أهل الفضل جل جلاله.

ومن الآيات التي وردت فيها التوبة مشروطة بالإصلاح قول الله تعالى:

﴿ [illegible] (٨٦) [illegible] (٨٧) [illegible] (٨٨) [illegible] »(١).

روى النسائي عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ثم ندم فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله ، هل لي من توبة؟ فنـزلت:

﴿ [illegible]]

---

(١) سورة آل عمران، الآيات من (٨٦) إلى (٨٩).

إلى قوله: ﴿}y~¥$QÇéÉŠWV ðV,@ÜÑWÈÎV﴾ « فأرسل إليه قومه فأسلم(١).

وأخرج عبدالرزاق عن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ، ثم كفر، فرجع إلى قومه، فأنزل الله ﴿ ˜ÌV ÈŸäÿWÝ ´Ÿ@ ÷S﴾ إلى قوله: [}y~¥$QÇéÉŠWV] [†ÏÚéTŽÛV » فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث: إنك والله ما علمت لصدوق وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة، فرجع فأسلم وحسن إسلامه(٢).

قال صاحب «تهذيب التفسير»: «بعد أن قرّر الحق جلّ وعلا أن الدين عند الله الإسلام، وندّد أشد التنديد بأهل الكتاب الذين يصدّون عن هذا الدين الحق دين الله الذي أسلم له من في السماوات والأرض طوعا وكرها بلسان الحال أو بلسان المقال، وأن الإسلام هو دين جميع النبيين والمرسلين، وأن من ابتغى غير الإسلام فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، بيَّن هنا الوعيد الشديد لأئمة الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم ممن عرف الحق وشهد الحجج والبراهين والمعجزات التي أيد الله بها رسوله محمداً ثم استمر على ضلاله وكفره، أو أسلم، ثم ارتد عن الإسلام، وأن

---

(١) حسن، أخرجه النسائي في السنن (٧/ ١٢٣ رقم ٤٠٧٩)، وابن حبان في الصحيح (٣٢٩/١٠) رقم (٤٤٧٧)، والحاكم في المستدرك (١٤٢/٢). وحسنه الأرناؤوط في تحقيقه لجامع الأصول (٦٨/٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٢٥/١).

هؤلاء يستحقون لعنة الله ولعنة كل لاعن في السماوات أو في الأرض، وأن بصائرهم قد انطمست، فصارت غير متأهلة لهدي الله عزوجل، وأن من هؤلاء من علم الله عز وجل أنهم يموتون على الكفر، وأن منهم من يتوب، وأن من تاب منهم قبل الله توبته»(١) .

لقد تبين من خلال الآيات القرآنية الكريمة من سورة آل عمران - والتي عرضنا لها ببعض البيان- مدى سعة رحمة الله تعالى بخلقه، فالآيات الكريمة تحدثت عمن أسلم ثم ارتد، وهو متوعد بشديد العذاب وأليم العقاب، وعليه من الله تعالى وملائكته والناس ما يستحقة، والويل له إن لم يتب من ردّته ومات على ذلك فهو متوعد بالخلود في النار وبئس القرار؛ أما إن تاب من ذلك وأصلح فإن الله غفور رحيم، واشتراط الإصلاح مع التوبة فيه دليل على أن التوبة هنا لا تكفي وحدها بل لابد أن يضاف إليها العمل الصالح(٢) حتى يدخل التائب بذلك في دائرة الغفران، والرحمة من الله تعالى.

قال صاحب (محاسن التأويل) رحمه الله: «وهذا من لطفه وبره ورأفته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه»(١)، ولعل سبب نزول هذه الآيات يدل على هذه المعاني أبلغ الدلالة وأوكدها.

---

(١) تهذيب التفسير : (٤٣٠/١).
(٢) محاسن التأويل : (١٣٨/٢).
(١) نفس المصدر : (١٣٨/٢).

إن الناس لا يغفرون لمن يتمرد على قوانينهم ويخرج عليها، ولكن ربّنا الرحيم الغفور الذي وسعت رحمته كل شيء لا تضيق رحمته عمن تاب إليه وأناب بعد أن ارتد عن الإسلام، والقرآن الكريم يرعب أولئك الذين كفروا بعد إسلامهم ولم يتوبوا حتى ماتوا وهم على تلك الحال، يرعبهم بتلك الجملة التي يرجف لها كل قلب فيه ذرة من إيمان، ومن جدية الأمر في الدنيا والآخرة سواء، وهو جزاءُ حقٍّ، رادعٌ لمن تتاح له فرصة النجاة، ثم يعرض عنها هذا الإعراض فلا يتوب ويئوب إلى ربه الرحيم الكريم العفو الغفور. وهذه هي إحدى سمات وخصائص منهج الهداية والتربية الإسلامية العظيم حين يجمع بين الترهيب والترغيب، وحين لا يدع الترهيب أو الترغيب يأخذ مساحة في النفس الإنسانية أكثر مما هو مقدر له في العملية التربوية من منظورها الإسلامي الرائع العظيم؛ لأن الترهيب ليس مقصوداً لذاته، كما أن الترغيب ليس مقصوداً لذاته في منهج الهداية والتربية الإسلامي الرشيد السديد. ولذلك يلحظ المتأمل في معالم الهدى القرآني في البناء والتربية أنه يجمع بين الوعد والوعيد، وبين البشارة والإنذار، وبين وصف الجنة، ووصف النار أو العكس، ليخرج المسلم بعد ذلك وقد تربَّت نفسه على طريق الخوف من الله تعالى والرجاء في رحمته سبحانه فلا يتجاسر على تعدي حدوده تعالى، ولاييأس في ذات الوقت من رحمته سبحانه.

وقد حفلت السنة النبوية بمعالم رائدة من الهداية والتربية الراشدة الكريمة

-جاءت على لسان سيدنا رسول الله وتمثلت في أفعاله - أقباساً منيرة أضاءت الدرب للسائرين على طريق الخوف من الله تعالى والرجاء فيه جل جلاله، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة t أن رسول الله قال : «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من جنته**»(١)، وما رواه ابن مسعود t قال: قال رسول الله : «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»(٢) وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى التكامل الرائع والبديع في المنهج الإسلامي العظيم في بناء شخصية المسلم بناءً متوازناً بلا إفراط أو تفريط.

ومن الآيات التي تناولت التوبة مع الإصلاح: قول الله عزوجل: ﴿ †TŠ†Ž/V û ÑÉV†ÙÅè©†ÚÉV ØS| ÞÝ †ÚÖHÑYÅV ğ ÝÙÊ@V †TTŠ…ÔÖŽV ÙÙÒ ÖV@ÔÖKI†ÙÅ÷ÆV ÑÉ¶ ÆÉÑÉV †fTT™Ôç³ ÑÉV †[Ù~ÝÖV »(١)؛ إن منهج الإسلام يقوم على الطهارة والتطهر حسّاً ومعنى، ظاهراً وباطناً، والمجتمع الإسلامي هو مجتمع النظافة والطهارة في جانبيها المحسوس والمعقول، وجاءت التشريعات الإسلامية تصب في هذا الاتجاه وتؤكد عليه، وهذه الآية الكريمة –التي نحن بصدد الحديث عنها- تمثل مرحلة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٠٩/٤) حديث رقم (٢٧٥٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٦٦/٦) حديث رقم (٦١٢٣).
(١) سورة النساء، الآية (١٦).

من مراحل التشريع في إرساء قواعد المجتمع المسلم الطاهر النظيف، وإنه لأمر جدير بالتأمل والاعتبار فيما حفلت به الأحكام الإسلامية من تدرُّج وترفّق بالمسلم، منذ ظهور الإسلام وحتى اكتمال هذه الأحكام باكتمال نزول القران الكريم. والإسلام يؤكد من خلال هذه الآية الكريمة اتجاهه في محاربة الفاحشة وتطهير المجتمع المسلم منها، وقد جاء في أحكام الإسلام في أول الأمر عزل الفاحشات من النساء وإبعادهن عن المجتمع متى ثبت في حقهن ذلك، وإيذاء الرجال الذين يأتون الفاحشة إيذاءً لم تحدد الآية الكريمة نوعه، وفسّرته كتب التفسير بأنه يشمل: الإيذاء بالقول، والتوبيخ، والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، قال العلامة السعديّ رحمه الله في تفسيره: «فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسن ويؤذين، فالحبس غايته للموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح»(١) .

والتوبة والإصلاح توقفان الإيذاء لكل من الرجل والمرأة [[illegible]](٢) أي عن أذيتهما.

فالله تعالى يقبل توبة التائبين فالتوبة مع الإصلاح في غاية الأهمية للإنسان المسلم وهي تعديل أساس في الشخصية والكينونة، والوجهة والطريق، والعمل والسلوك، ويأتي قوله تعالى في ختام هذه الآية الكريمة

---

(١) تفسير السعدي: (٣١٤/١).

(٢) سورة النساء، الآية (١٦).

« بياناً واضحاً أن الأمر كله بيد الله تعالى فله سبحانه الخلق والأمر، فهو الذي شرع العقوبة وأمر بها في حق هؤلاء، وهو جلّ وعلا الذي أمر بالكف عنها عند التوبة والإصلاح، فالشرع شرع الله تعالى فليس لأحد من الأمر شيء. كما يأتي هذا القول الكريم تأكيداً على مدى سعة رحمة الله تعالى بعباده ولطفه بهم وإحسانه إليهم، فإذا كان الله تعالى يعفو عمن قارف الفاحشة إذا تاب وأصلح - مع أن فعل الفاحشة مستقذر مستكره - فلا ينبغي أن يفهم من ذلك التسامح في الجريمة، أو الرحمة بمن يفعل الفاحشة، ولكن السماحة والرحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين، وقبولهم في المجتمع، وعدم تحقيرهم وتعييرهم - بما كان منهم من ذنب تابوا عنه، وتطهروا منه وأصلحوا حالهم بعدُ - أمور تفرضها سماحة الإسلام، فينبغي على المجتمع قبولهم وفتح الأبواب أمامهم حتى يمكنهم استئناف حياة جديدة نظيفة طاهرة.

إن بعض الناس قد تمكنت العقد من نفسه، فنصب نفسه قيما على خلق الله، ونظر إلى رحمة الله من خلال نظرته المعقدة المظلمة، فهو لا يرى الناس إلا من خلال نظارة سوداء قاتمة، فلا يرى لأهل السوابق والذنوب إذا تابوا صلاحاً، وهو بذلك يعارض رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء.

والله سبحانه كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان.

ومن الآيات التي جاءت التوبة فيها مشروطة بالإصلاح وحده، أو بالإصلاح مع غيره من أعمال حددتها تلك الآيات: قول الله تعالى: ﴿ÜQK

ŸVY ŽVÝÜéVXTW@ÝW ĝTÉV³K@Ÿ¤W@Á ÜVYÉHWS@

NéS ŨĝV NéSŠŽV fÛ TÿYW@,RÞXI (١٤٥) ÞkY£ ŴV ØSV

ÜVÐ TKÐèRVãŽ ÿSW NéS ŨŽ ŴVãŽ@ŎNèSÙWVÏ@V

†ÛÜ~YÝ £`KÜVÝÈSè@Ŝ@ç èŞÇ èVVf û kNÝÈSè@

» (١).

إن النفاق جرم خطير، وشر مستطير، وبلاء كبير، آثاره وشروره على مجتمع المسلمين جسيمة، وكم دفعت أمة الإسلام وتدفع من التكاليف الباهظة بسبب المنافقين في صفوفها؟ وكم كلفها ذلك من تضحيات جسيمة في أبنائها وأموالها وإمكانياتها عامة؟ والنفاق هو سبيل النفوس اللئيمة الدنيئة التي توالي أعداء الله وأعداء الأمة؛ ولما كانت نفوس المنافقين قد هبطت بنفاقها إلى أحط وأخس المراتب في دركات الغدر والخيانة واللؤم والدناءة، كان جزاؤها يوم القيامة من جنس عملها فهي في الدرك الأسفل من النار، قال القرطبي في تفسيره: «فالمنافق في الدرك الأسفل وهي الهاوية، لغلظ كفره، وكثرة غوائله، وتمكنه من أذى المؤمنين»، ونقل رحمه الله عن ابن مسعود t تفسير الدرك الأسفل من النار بأنه: توابيت من حديد مقفلة في النار تقفل

---

(١) سورة النساء، الآيتان (١٤٥، ١٤٦).

عليهم[(١)] ؛ ونقل ابن كثير في تفسيره عن أبي هريرة t تفسير ذلك بأنه: بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم تنار تطبق عليهم[(٢)] ؛ «وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار لأنهم شر أهلها بما جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة المؤمنين وغشهم، فأرواحهم أسفل الأرواح، وأنفسهم أخس الأنفس، وأكثر الكفار قد أفسد فطرتهم التقليد، وغلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره باتخاذهم شفعاء عنده ووسطاء بينهم وبينه قياساً على معاملة ملوكهم المستبدين، وأمرائهم الظالمين، وهم لا يرضون لأنفسهم النفاق في الدين ومخادعة الله والمؤمنين، والإصرار على الكذب والغش، ومقابلة هذا بوجه وذاك بوجه، فلما كان المنافقون أسفل الناس أرواحاً وعقولاً كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل من النار»[(١)] .

إن هذا المصير المهين الرهيب المرعب المفزع الذي يلقاه المنافقون يوم القيامة هو الذي يناسبهم تمام المناسبة، فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين في الدرك الأسفل من النار بلا أعوان هنالك ولا أنصار، وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا، فأنى ينصرهم الكفار؟.

قال صاحب تفسير(التحرير والتنوير): «والخطاب في [ÝÖÃM ... [pkY±] لكل من يصح منه سماع الخطاب وهو تأكيد

---

(١) تفسير القرطبي : (٤٢٥/٥).

(٢) تفسير ابن كثير : (٤٤٢/٢-٤٤٣).

(١) تفسير المنار : (٤٧٤/٥).

للوعيد وقطع لرجائهم؛ لأن العرب ألفوا الشفاعات والنجدات في المضائق، فلذلك كثر في القرآن تذييل الوعيد بقطع الطمع في النصير والفداء ونحوهما»(١).

وقال صاحب (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): «وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه»(٢). إنه برغم خطر وجرم وبشاعة النفاق، وما ينتظر المنافقين من العذاب والنكال يوم القيامة، إلا أن الله تعالى الذي وسعت رحمته كل شئ جعل سبيل التوبة متاحاً أمامهم، ونظراً لما أحدثوه – لنفاقهم – من أذى وشر وفساد، فقد كانت توبتهم مشروطة بثلاثة أمور هي: الإصلاح، والاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله؛ قال العلامة السعدي : «وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر مع دخولهما في قوله[وَأَصْلَحُوْا] لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح لشدة الحاجة إليهما خصوصاً في هذا المقام الحرج الذي تمكن فيه النفاق من القلوب فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله ودوام اللجوء والافتقار إليه في دفعه وكون الإخلاص منافياً كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما»(١).

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : (٥/٢٤٤).
(٢) تفسير السعدي: (١/٤٢٠).
(١) تفسير السعدي : (١/ ٤٢١).

والمتأمـل في قـول الله تعـالى في حـق المنـافقين إذا حصـلت تـوبتهم بشـروطها [ÏKÏÄèÊRÊV ÐÝVÄç@ÙëëÿŸk û f] يظهـر لـه أن شـأن المنافقين شديد عند الله تعالى، فهو سبحانه لم يقل: فأولئك أتوب عليهم، كما قال في حق من يكتمون ما أنزل من البينات والهدى، من بعد ما بينه سبحانه في كتابه إذا تابوا من ذلك مع الإصلاح والتبيان ﴿ÏKÏÄèÊRÊV Ð ÆÏKÏÄèÊRÊV ÐÝVÄç@ÙëëŸ ~ ŠÃñ «(١) كمـا لم يقـل سبحانه في حق هؤلاء المنافقين بعد توبتهم بشروطها: فأولئك مؤمنون ، ولم يقـل جـل في عـلاه: فسـوف يـؤتيهم أجـراً عظيمـاً. قـال صـاحب التحريـر والتنـوير: «فأخبر أن من صارت حالـه إلى هـذا الخير فهـو مـع المؤمنين، وفي لفظ(مع) إيماء إلى فضيلة من آمن من أول الأمر ولم يَصِمْ نفسه بالنفاق؛ لأن (مع) تدخل على المتبوع وهو الأفضل»(٢) .

ومما يحسن التنبيه عليه في هذا المقام: أن النفاق المتوعد عليه في آيتي سورة النساء - واللتين هما محور حديثنا - هو نفاق الاعتقاد الذي يتبعه نفاق العمل، وهو الذي يصير صاحبه إلى الدرك الأسفل من النار، إن لم يتدارك نفسه بالتوبة بشروطها المذكورة؛ وإذا كان باب التوبة مفتوحاً أمام هؤلاء المنافقين الذين هم تحت سائر الكفار في النار؛ لأنهم شاركوهم في

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٠).

(٢) تفسير التحرير والتنوير: (٥/٢٤٤).

الكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم واستحقاق مالا يستحقونه.

أقول:إذا كان باب التوبة مفتوحاً لهؤلاء مع أوصافهم التي ذكرها القرآن، فكيف بعصاة المسلمين الذين لم يصل ذنبهم إلى مستوى نفاق هؤلاء المنافقين؟ ألا يدل فتح باب التوبة أمام هؤلاء المنافقين على مدى سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله وكرمه وأنه لا ينبغي أن ييأس المسلم من رحمة ربه مهما بلغت ذنوبه ومعاصيه، فباب التوبة مفتوح.

إن ما تقدم يدل دلالة واضحة على أن منهج التربية في الإسلام يراعي الفروقات بين الأفراد مراعاةً لا تعتمد على الظن والتخمين، ولكنها تستند إلى علم من شرع هذا الإسلام، وارتضاه ديناً خاتما لأمة محمد وهو الله جل جلاله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو بكل شئ عليم، وهو سبحانه وتعالى الذي خلق خلقه وشرع لهم ما به يكون صلاحهم، وبين لهم ما تصلح به أحوالهم في هذه الحياة. وعلى ذلك فإن منهج التربية في الإسلام لا يقوم على الافتراض، أو التخرّص العقلي المجرد، ولكنه حقائق ثابتة من وحي الله تعالى —الوحي المحفوظ من التبديل والتغيير، ومن تسلط الإنسان، ومن التأثر بالزمان والمكان- والسنة النبوية الشريفة المطهرة هي البيان لهذا الوحي، فهي محفوظة كذلك بنص الموعود الإلهي: ﴿

« (١) فما

دامت السنة النبوية بياناً لهذا الذكر، فهي محفوظة بحفظ الله تعالى له.

وهذا الموعود الإلهي العظيم يعطي للأمة المحمدية - وهي الأمة التي أنزل هذا الذكر على نبيها عليه الصلاة والسلام – قوةً، ويمنحها سياجاً واقياً لا يخترق من الوضوح التام في عقيدتها وأصول دينها، وفيما قامت عليه هذه الأصول، وضوحا يتناول بالبيان الشافي الكافي كل شئ في دين الإسلام، وليس ذلك لأمة من الأمم التي وجدت قبل أمة محمد ، فهي أمة الصدق والوضوح، وإن أمة عندها دين بمثل هذه الخصائص جدير بها أن تقود العالم إلى هداية هذا الدين العظيم.

فمنهج التربية في دين الإسلام يقوم على حقائق هذا الدين ووضوحه، وجماله، وكماله، وشموله، وثبوته، ومرونته، وصلاحيته لكل بني الإنسان وفي كل زمان ومكان، وعلى أنه دين الله الخالد الغالب الباقي المعصوم من التبديل والتحريف والتغيير، والزيادة والنقصان ومن تلاعب وحيل بني الإنسان في كل زمان ومكان. نقول هذا الكلام ونردِّده ولا نمل من ذلك، خاصة ونحن نتناول بيان معالم الهدي القرآني في التوبة، وبيان المنهج الإصلاحي الرشيد السديد الذي جاء به القرآن الكريم تربية وتوجيها للتائبين من ذنوبهم إلى الله سبحانه وتعالى، نقول ذلك ونحن نرى ونشاهد من حولنا الأمم التي لم تهتد

---

(١) سورة الحجر، الآية (٩).

بنور الإسلام العظيم كيف يرتكس أفرادها في حمأة المذلة والهوان، وهم يعترفون للقساوسة والرهبان بذنوبهم وخطاياهم على كراسي الاعتراف، فلعلهم يحظون منهم بمغفرة كاذبة.

إن الإنسان المسلم ليحس بالضيق ويشعر بالمرارة وهو يرى هذه الصورة الكريهة للإنسان وهو يتخاذل ذليلاً مهيناً جاثياً على ركبتيه في كرسي الاعتراف أمام إنسان مثله، ويطلعه على خفايا أسراره، وبواطن نفسه ويعترف بين يديه بما اقترفه من ذنوب، إن الإنسان المسلم ليتألم لذلك المشهد الخانع الذليل من الرجال والنساء كباراً ومتوسطين وصغاراً، وهم ينتظرون دورهم في الجلوس على كرسي الاعتراف، الذي يمثل انتكاسة للعقل البشري واحتقاراً لقيمة الإنسان وآدميته رجلاً كان أو امرأة. نورد هذا الكلام ونحن نبين منهج الرشاد والسداد، والوضوح والنقاء، والجمال والكمال والتكريم للإنسان، واحترام آدميته، والمحافظة على أسراره ولو كانت ذنوباً وخطايا وسيئات، إنه المنهج الذي اختاره الله تعالى لعباده، إنه المنهج الرباني المعصوم، إنه دين الإسلام، ولا دين سواه، فلا خير ولا عزة ولا كرامة، ولا شهامة، ولا مروءة، ولا سيادة، ولا عز ولا نصر، ولا تقدم، ولا شفاء، ولا سعادة ولا كمال، ولا يسر، ولا تكريم إلا به وفيه، وما سوى الإسلام هو: الذل، والتبعية، والشر، والهوان والمهانة، والدناءة، واللؤم، والهزيمة، والتأخر، والمرض، والشقاء، والنقص، والعسر، وسمِّ ما شئت من أبواب الشرور والخزايا، والرزايا،

والمصائب، والمعائب، والمهالك والمفاقر التي تنفتح على من يبتغي الهدى في غير دين الإسلام انفتاحاً لا يمكنه السيطرة عليه أو التحكم فيه.

إن السبيل الذي شرعه تعالى لعباده المذنبين ليتوبوا إليه، ويئوبوا إلى رحمته ومغفرته هو السبيل الذي يكرم الإنسان، ويقدر آدميته، وشخصيته، ويحترم قيمته الإنسانية، وهو سبيل الستر، والكرامة للإنسان، فلا يوجد أحد في الإسلام يطالب العبد المذنب بالاعتراف بين يديه، فلا نبي مرسلاً، ولا ملك مقرباً، ولا ولي ولا تقي، ولا بار، ولا عالم، ولا غيرهم يكون واسطة بين العبد المذنب وبين ربه ليتوب إليه، وإنما الطريق للتوبة ممهد سهل سالك، والباب مفتوح لمن أراد التوبة من ذنوبه، وما على العبد المذنب إلا أن يبدأ السير في طريق التوبة، ويلج بابها المفتوح، والله تعالى سميع قريب مجيب، واسع المغفرة رحمته وسعت كل شئ يغفر الذنوب جميعا وهو الغفور الرحيم؛ قال الله تعالى ﴿ R ØRàVHaYn ÿé TQ @ÐéRVEWYY ÐQVWQK
†ÅWYÅWÝÝ Ð QVWQKéS Ùç ÐNÐ ÙY YÅWÝÝ NéSW
Ø~ŠQÉéSW » (١) وهذه الآية الكريمة تعكس منهج الإسلام الرائع البديع في التربية والتهذيب والإصلاح، وفتح أبواب الأمل أمام المذنبين الذين تقحموا وديان المعاصي المظلمة بجهالة منهم بحق الله تعالى عليهم وما يجب له

---

(١) سورة النحل، الآية (١١٩).

جل وعلا من الطاعة والامتثال لما أمر، والانتهاء عما نهى.

والسوء هنا عام يشمل كل معصية من الكفر فما دونه فرحمة الله أوسع من ذنوب العباد، وهذه الآية الكريمة هي آخر آية نتناولها من الآيات بالبيان مما جاءت فيها التوبة مشروطة بالإصلاح وحده أو مع غيره، ويبقى الحديث عن الآيات التي جاءت التوبة مشروطة بالإيمان وحده، أو بالإيمان مع العمل الصالح سواء ذكر هذا العمل موصوفاً بأنه صالح، أو ذكر مؤكداً بالمصدر الموصوف بالصلاح عملا صالحاً، وسنتناول هذه الآيات حسب ترتيبها في المصحف، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ NéŠÙŸV ŸúÿŸÆ@V
ŸÚ Ð ŸøŸV ŸQKÍé ŠÏ ‡ø ŸèV †åŸÅŸV ŸÚ NéŠŸVð Rg †ŸQ@Ö@
ŸÅŸV †åŸV ŠŸé ŸÊQ~ŸÙ ﴾[1] إن الجو العام الذي تتصل به هذه الآية الكريمة هو في سياق الحديث عن بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، ووعيد الله تعالى لهم بما سينالهم من الغضب والذلة في الحياة الدنيا والآخرة، وبذلك يمكن ترشيح أن يكون الوعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب منهم وآمن، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولفظ الآية عام فيحمل على عموم من عملوا السيئات، ثم تابوا من بعدها وآمنوا، فهم موعودون بقبول توبتهم؛ لأن المغفرة ناتجة عن قبول التوبة؛ والآية تفيد كما يذكر الرازي في تفسيره: أن

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٥٣).

من عمل السيئات فلا بد أن يتوب منها أولاً، وذلك بأن يتركها أولاً ويرجع عنها، ثم يؤمن بعد ذلك، ويستدل على أن الآية تتناول بلفظها عموم من فعلوا السيئات معللاً لذلك بقوله: لأن قوله ﴿ NÉŠÙÌÆV ÝWYÏRØ@V @ÖÏQ†g] يتناول الكل، والتقدير: أن من أتى بجميع السيئات ثم تاب فإن الله يغفرها له، وهذا من أعظم البشارة والفرح للمذنبين(١) .

ويذهب الزمخشري في (الكشاف) إلى أن الآية حكم عام يدخل تحته متخذوا العجل ومن عداهم، فقد عظَّم جنايتهم أولاً ثم أردفها تعظيم رحمته ليعلم أن الذنوب، وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل(٢) .

وإذا كانت الآية عامة تشمل كل من عمل السيئات، فإن السيئات تعم كل ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك، أو نفاق، أو شقاق كما ذكره ابن كثير في تفسيره (٣)، وتبعه العلامة السعدي(٤) . ولكن ما هي دلالات اشتراط الإيمان مع التوبة؟ ولعل الجواب على هذا السؤال يدل على أن الآية متصلة بمن عبد العجل من بني إسرائيل، وهو ما ذهب إليه العلامة ابن عاشور في تفسيره، مع أن كثيراً من المفسرين ذهبوا إلى عموم الآية، وعلى

---

(١) تفسير الفخر الرازي: (١٥/١٥).
(٢) الكشاف: (٢/٩٥).
(٣) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٧٨).
(٤) تفسير السعدي: (٢/١٥٤).

ذلك يقرر ابن عاشور في تفسيره أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ŸWýŸÏ@W NéŠ$ŠŸ'Ÿ Rg ÏÏ@ÖÏ@ NéŠ$ŠŸ'Ÿ] يعود على بني إسرائيل الذين عبدوا العجل بأنهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم بذنوبهم في عقاب الآخرة، وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل، كما يرى أن المراد بالسيئات ما يشمل الكفر وهو أعظم السيئات (١).

وعطف الإيمان على التوبة مع أن التوبة تشمله من حيث إن الإيمان توبة من الكفر، إما للاهتمام به لأنه أصل الاعتداد بالأعمال الصالحة عند الله تعالى كقوله: ﴿ŸWÙ ÎÏWK@ÚÉ ÏÕ ÎÉÚÈ (١٢) ŸV ÎÏÕ ÏÔ] « (٢) إلى قوله:

﴿ŸR Ÿ ÛÙÚ ŸWýŸÏ@W NéŠÝ « (٣) ولئلا يظن أن الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة، وإما أن يراد بالإيمان إيمان خاص وهو الإيمان بإخلاص، فيشمل عمل الواجبات (٤).

إن مخالفة بني إسرائيل التي ارتكبوها وهي عبادة العجل، دليل على عدم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: (٩/١٢٠).

(٢) سورة البلد، الآية (١٢).

(٣) نفس السورة، الآية (١٧).

(٤) تفسير التحرير والتنوير: (٩/١٢١).

إيمانهم، فالذي ينبغي أن يعبد هو الله عز وجل، فالتلازم بين العبادة لله تعالى وبين الإيمان به قائم لا ينفصل، فما عبده بحق إلا مؤمن، وما عبد سواه إلا كافر. والعبادة هي المظهر الدال على وجود الإيمان، وهي تشمل الانقياد التام لله تعالى في كل شأن من شئون الحياة، وأخص مظاهر العبادة الركوع والسجود وكل ما يدل على التعظيم والتقديس، والناس حين يتوجهون بالعبادة لغير الله فإنما يعبرون عن حالة الجهل التي تغشاهم وتعمي قلوبهم، والتي حالت بينهم وبين إدراك حقائق الفطرة التي فطر الله عليها خلقه من الجن والإنس، وأقام سبحانه هذا الكون على أساسها، وأعلن عنها القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ VèV†VŽV ÍE@Q ŸYÝ@X ,ß ð ΜΚ ,ŸÅSS Ÿè Ÿ »[(١)] وأرسل سبحانه رسله مبشرين ومنذرين من أجلها ليعلمها الخلق من الجن والإنس، ولتقوم حياتهم على أساسها.

والقرآن الكريم يقرر أن كل من توجه إلى غير الله تعالى بالعبادة فعليه أن يترك ذلك وينخلع منه بالكلية، ويبدأ مرحلة العودة إلى الله تعالى بالإيمان به، ومعرفته لينضم بذلك إلى قافلة التائبين، والقرآن الكريم يبين في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها مدى التلازم بين هجر السيئات والانخلاع منها، وبين الإيمان بالله تعالى، وأن مواجهة تيار المعاصي والذنوب، وما تعجّ

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

به من مغريات وشهوات لابدّ له من إيمان يقوي على هذه المواجهة، وأول طريق هذه المواجهة هو التحول عن السيئات وهجرها والانخلاع عنها بالكلية.

ومشكلة بني إسرائيل حين عبدوا العجل هي أنهم انهزموا إيمانياً أمام دعاية العجل وأخذوا بخواره وشكله وبريقه، فلم يقدروا على التحول عنه وهجره، بل لازموه وأداموا النظر إليه فسقطوا في عبادته، وهكذا يبين القرآن الكريم هذه القضية ليعيها كل مسلم وليأخذ العبرة والدرس من وراءها، وليتضح للمسلم أن رحمة الله تعالى أوسع من ذنوب العباد وانحرافهم، وأن الفضل والخير كله بيده سبحانه وتعالى.

ومن الآيات التي جاءت التوبة فيها مشروطة بالإيمان والعمل الصالح: قول الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾[1].

إن للصلاة في الإسلام مكانةً سامقةً، ولها في نفس كل مؤمن مهابةٌ وجلالٌ ومحبةٌ وتعظيمٌ، فإقامة الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام فما أقامها، وتعلق بها، وعظم أمرها، واعتز بفعلها إلا مؤمن، وهي علامة الإيمان

(١) سورة مريم، الآيتان (٥٩، ٦٠).

والإسلام. فلا خير في دين لا صلاة فيه، فلا دين إلا بها، ولا يعرف إيمان المرء وإسلامه إلا بها، ومن ادعى الإسلام وهو تارك للصلاة فليس له من إسلامه إلا ما ادعاه، وهو ادعاء باهت باطل لا يغني عنه من الله شيئا.

فهي واحة المؤمنين في كل زمان. قال الله تعالى: ﴿ ¨βÎ) nο4θn=¢Á9$# ôMtΡ%x. ’n?tã šÏΖÏΒ÷σßϑø9$# $Y7≈tFÏ. $Y?θè%öθ¨Β ﴾(١) هي شرف المؤمن، وعزته وكرامته، وهي دليله وسبيله إلى كل خير، فرضها الله تعالى من غير واسطة على نبيه وحبيبه سيدنا محمد ، وهي الفريضة الوحيدة التي نالت شرف التكليف الإلهي بها من فوق سبع سماوات، وكان ذلك في رحلة التشريف والتكريم التي دعي إليها المصطفى في رحلة الإسراء والمعراج، وهي عمود الدين فمن أقامها فقد قام دينه واستقام، ومن تركها، فقد انهار دينه؛ لأن الشيء إذا فقد ما به قوامه انهار وسقط، وإقامة الصلاة تقتضي المحافظة على أدائها في أوقاتها المعلومة، فالتهاون في أداء الصلوات في أوقاتها سيؤدي حتماً إلى التفريط في أداء هذه الصلوات، ومن ثم تركها، ولذلك جاء الوعيد الشديد في القرآن الكريم والسنة النبوية على التهاون في أوقات الصلاة، ومما جاء في القرآن الكريم هذه الآية الكريمة من سورة مريم، وهي قوله تعالى: ﴿ y#n=sƒmú .ÏΒ öΝÏδÏ‰÷èt/ ì#ù=yz (#θãã$|Êr& nο4θn=¢Á9$#

(١) سورة النساء، الآية (١٠٣).

V@ÈWTÈSâÓ@Èé -ÙWÙÊ. gVÊÕ@ÕèÇ ÕWÅÆÑÜÉ ÜWÊÜ QÔÌ† «[١] وقد روي عن أئمة من السلف تفسير إضاعة الصلاة بتضييع وقتها، وروي عن ابن مسعود t تفسير ذلك؛ قال القرطبي: وهو الصحيح[١].

قال ابن كثير في تفسيره: وقال وكيع عن المسعودي عن القاسم بن عبدالرحمن والحسين بن سعيد عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن: ﴿ @ÈWÝÝÈÝ ÜØÈÙÈÝ f² ÕØÈÙÈÝ ÜWÊ†ÈÝ «[٢]، و﴿ @ÈWÝÝÈÝ ÜØÈÙÈÝ ÜØÈÝ W ÕØÈÙÈÝ ÜWÊÕÍÝ «[٣] و﴿ @ÈWÝÝÈÝ ÜØÈÙÈÝ ÜØÈÝ W ÕØÈÙÈÝ ÜWÊÑÝ «[٤] فقال ابن مسعود: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك. قال: ذلك الكفر[٥].

وذكر الإمام المروزي في كتابه (تعظيم قدر الصلاة) : أن عمر بن عبدالعزيز بعث رجلاً إلى مصر فقال له: إن اليوم جمعة، فأقم حتى تصلي،

---

(١) سورة مريم، الآية (٥٩).

(١) تفسير القرطبي: (١٢٢/١١). وانظر :تفسير الطبري : (٥٦٩/١٥)، ويفسر الطبري رحمه الله إضاعتهم للصلاة بتركها.

(٢) سورة الماعون، الآية (٥).

(٣) سورة المعارج، الآية (٢٣).

(٤) نفس السورة، الآية (٣٤).

(٥) تفسير ابن كثير: (٢٤٣/٥)، وانظر : تفسير الطبري : (٥٦٩/١٥).

فإنا قد بعثناك في جملة للمسلمين، فلا يعجبنك ما بعثناك أن تؤخر الصلاة عـن ميقاتها فإنـك لا محالـة تصـليها، وتـلا هـذه الآيـة: ﴿[illegible] »[1] ثم قـال: لم يكـن إضـاعتهم تركهـا، ولكـن أضـاعوا المواقيـت[2]. وقـال ابـن قـيم الجوزيـة: «والتحقيـق أن إضاعتها تتناول تركها وترك وقتها وترك واجباتها وأركانها»[3].

ولا يخفى أن فيما تقدم من الوعيد على تضييع أوقات الصلاة وعدم أداءها في وقتها، توجيهاً للمؤمنين إلى وجوب الاهتمام بمراعاة أوقات الصلاة اهتماماً ينشأ عنه ترتيب أعمالهم وتنظيم شئونهم، وارتباطاتهم بحيث لا يطغى ذلك كله على أوقات الصلاة ولا يكون على حسابها لأنه إذا وفق العبد في أمر صلاته فهو فيما سوى ذلك أكثر توفيقاً، وإذا لم ينجح في أمر صلاته فهو أفشل وأخسر فيما سواه.

وقد جاء تشريع أوقات الصلوات موزعاً بين اليوم والليلة لا يصادم مصالح العباد، وعلى المسلمين إذا أرادوا النجاح في الحياة أن يقيموا حياتهم العملية بناء على مواقيت الصلاة بداية ونهاية، ولا نعلم مسلماً خسر أمراً دنيوياً حين قدَّم الصلاة عليه، كما لم نعلم في ذات الوقت مسلماً حصل له

---

(١) سورة مريم، الآية (٥٩).

(٢) تعظيم قدر الصلاة: (١٢٣/١)، وانظر: تفسير الطبري: (٥٦٨/١٥).

(٣) بدائع التفسير: (١٤٣/٣).

الهناء والسعادة بأمر دنيوي حين قدَّمه على الصلاة، وختام كل شي دليل على صلاحه أو فساده.

وإذا كان المفرط في أوقات صلاته متوعداً من الله تعالى بأنه سيلقى غياً، فإنه بذلك على خطر عظيم؛ لأن الغي يفسر في كلام العرب بمعان كثيرة منها: الشر والضلال، والخيبة والخسران. وفسره ابن مسعود بأنه: واد في جهنم؛ وقال كعب: غيٌّ: وادٍ في جهنم أبعدها قعراً، وأشدها حراً. وقال ابن عباس: غيٌّ: وادٍ في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حرّه، أعدَّ الله ذلك الوادي للزاني المصرّ على الزنا، والشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور، ولزوجة أدخلت على زوجها ولداً ليس منه، كما جاء في تفسير القرطبي رحمه الله تعالى (١).

ومن الذي يطيق حرَّ هذا الوادي عياذاً بالله تعالى من عذاب جهنم، على أن كلمة (غي) يمكن أن تشمل ما ذكر وسواه مما سيلقاه المضيع لأوقات صلواته من بوار وخسران وشر، وضلال وخيبة في أمره كله ظاهراً وباطناً عاجلاً وآجلاً. وإذا كان ما تقدم في حق من يضيع أوقات صلواته، فكيف بمن يضيع صلاته فلا يصليها كما ينبغي أن تصلى. قال حذيفة t لرجل يصلي ويطفف في صلاته: منذ كم تصلي هذه الصلاة؟ قال: منذ أربعين عاما. فقال له حذيفة: ما صليت، ولو مُتَّ وأنت تصلي هذه الصلاة

---

(١) تفسير القرطبي: (١٢٥/١١).

لمِتَّ على غير فطرة محمد [(١)].

فبين الإيمان وإقام الصلاة تلازم لا ينفصم ولا ينفك، فإقامتها دليل على إيمان صاحبها، ومن ضيّع أوقاتها كان ذلك دليلاً على ضعف إيمانه ونقصانه، وهو متوعَّد على ذلك بأنه سيَلْقَى غيّاً – إن لم يتب من ذلك، فباب التوبة مفتوح، ولكن التوبة بشروطها، والطريق إلى رضوان الله تعالى في جنة النعيم سيكون بإذن الله تعالى سهلاً ممهداً، وذلك مدلول عليه بقول الله تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [(١)] فالتوبة من هذا الصنيع تفتح الطريق لصاحبها ليتصل بركب الإيمان وأهله، وليظهر أثر ذلك عملاً صالحاً تظهر آثاره الإيجابية والمحمودة على الفرد وعلى مجتمعه وعلى أمته، فيعم الخير والرشاد أرجاء الحياة.

إن اقتران التوبة هنا بالإيمان والعمل الصالح أمر له دلالاته وإيماءاته القريبة والبعيدة المتصلة بموضوع التفريط في إقامة الصلاة، سواء كان ذلك بتضييع أوقاتها، أو بتضييع حسن أدائها، أو بتضييعها بالكلية فالإيمان والعمل الصالح لازمان مع التوبة من ذلك، لأن القضية في جوانبها الثلاثة ناشئة عن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٥٢/١) رقم (٨٠٨)، وانظر: سنن الترمذي (٧٨/١) برقم (٥٥) وسنن أبي داود برقم (١٩٩).

(١) سورة مريم ، الآية (٦٠).

خلل في الإيمان عند من يفعل أحد هذه الأشياء الثلاثة، ولذلك فلابد له من الإيمان بعد التوبة الإيمان الذي يحمله على تعظيم قدر الصلاة والاهتمام بها، والاغتمام لها، والاعتزاز بفعلها والفرح بذلك، فلا خير في إيمان لا يدفع صاحبه على إكثار الخطى للمساجد للصلاة جماعةً بها، تعظيماً لقدرها، وحفظاً لأمر الله فيها، وفرحاً واعتزازاً بها، وعلى ذلك فيمكن القول بأن من لا إيمان له فإن رجليه لا تقويان على القيام للصلاة؛ والمنافق يمكن أن يتظاهر بأداء الصلاة فترة قد تطول أو تقصر، ولكنه حتما سيمنعه نفاقه يوما من الاستمرار في أدائها خاصة إذا تحقق له ما أراده من وراء صلاته.

إن المؤمن وحده هو الذي تدوم صلاته، وهو على صلاته محافظ دائم كما قال الله سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين: ﴿ ÜéŠ~ÝŠ ÝýÝÿÜ@ ÜÖÕÖ Õ@ »(١)،

﴿ ÝýÝÿÜ@ ŠÝ ý ÛÐÜ ÜÖÕÖÜÖ ÞÝÝÝŠ ÜéñŠÝÝÝ »(٢) ﴾

﴿ ÝýÝÿÜ@ ŠÝÖÛÐÜ Ü ÜÖÕ ÞÝÝÝŠ ÜéñŠÝÝÝ »(٣). فاشتراط الإيمان الذي ينشأ عنه العمل الصالح مع التوبة في هذا المقام في غاية الجمال والتمام والموافقة والضرورة.

---

(١) سورة لقمان، الآية (٤).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٩).

(٣) سورة المعارج، الآية (٣٤).

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت التوبة فيها مشروطة بالإيمان والعمل الصالح: قوله تعالى: ﴿ ŸWÚ ÿè Ÿ Ó ‡ ŸWŸÚ ÜŸ ‡ ÉŸ ÜŸ ø ÎŸ ŸV ÔÛ ÙŸ ŸÜ ÙŸ ‡ ™ÕŸ ŸV Ÿ Ú ÜŸ@ÕŸR uü »﴾[1] وهذه الآية الكريمة من سورة (طه) تتصل بالحديث عن بني إسرائيل حين عدد الله عليهم بعض نعمه، وحذرهم غضبه ونقمته، ثم بيَّن لهم سبحانه بأنه الغفار لمن تاب وأتبع توبته بالإيمان والعمل الصالح والاهتداء، قال تعالى: ﴿ ÔÛ ŸÙ;ŸÝÿ ŸÑ ø ÑŸ ŸV ð ŸV ŸÌ Ñ ŸÜ ŸÜ ŸV ØS{ ŸÖ ŸÜ ŸÔ yS| ŸÑ Ÿ Ÿ K ŸÜ ŸV uü ŸÔ ŸÜ @ŸV ŸÔ ŸÜ@ØSÑ ŸÜ ŸV ‡ Ÿ ŸV ŸÚ Ÿ Ÿ @×é ï Ô@ ŸÝ ŸÝ Ñ Ÿ ŸV Ø ÑŸ Ÿ ŸÚ ŸÈ ŸØ ŸÚ ŸÝ Ñ ŸÌ (٨) ŸÜ ŸV ø ŸÔ ŸVÔ Ÿ ÚŸV ø ŸV Ù Ñ ŸÜ ŸV ÔÛ ŸÔ ŸV uü ŸÜ »﴾[2].

قال الفخر الرازي في تفسيره: «اعلم أنه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم، ذكرهم إياها، ولاشك أن إزالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على إيصال المنفعة ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من إيصال المنفعة الدنيوية، فلهذا بدأ الله تعالى بقوله: [ŸÑ Ÿ Ÿ K ØS{ ŸÖ ŸÜ ŸÔ yS|] وهو إشارة إلى إزالة الضرر، فإن

(١) سورة طه، الآية (٨٢).

(٢) نفس السورة، الآيتان (٨٠، ٨١).

فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيراً: من القتل والإذلال والإخراج والإتعاب في الأعمال، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهي قوله: [ ] ووجه المنفعة فيه أنه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتاباً فيه بيان دينهم، وشرح شريعتهم، ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهي قوله: [ ] ثم زجرهم عن العصيان بقوله: [ ] ثم بين أن من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله بقوله: « »(١).

والله تعالى وصف نفسه بأنه (غفار) وهذه الصيغة تدل على كثرة مغفرته سبحانه وتكررها، وهذه اللفظة (غفار) لا يوصف بها إلا الله جل جلاله، فهو وحده الغفار الذي يغفر بالليل والنهار، والسر والجهار، وهو سبحانه غفار للمذنبين على كثرتهم وتنوعهم، واختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم إنساً وجناً، مسلمين وكفاراً، رجالاً ونساء، فما من ذنب إلا والله يغفره إذا تِيْبَ منه ولو كان كفراً، والله تعالى هو وحده الذي يغفر الذنوب جميعا وهو الغفور الرحيم، وهذه اللفظة وردت في القرآن الكريم معرفة بـ(أل)

---

(١) تفسير الفخر الرازي: (٩٥/٢١).

ثلاث مرات، ومرتين بغير(أل)، وذلك على النحو التالي:

قــال تعــالى: ﴿ÔÙÙÀÊÝÀÝÚÚ÷ÛêÈ Ã†ÏŽÝÝÚÙÛ®Ó†ÉÂÌÛ øÑÅÐ®» uü ŸÝÝÏå®@QÓR†_™ÕFÅÀ﴾ (١)؛ وقــال عــز وجــل: ﴿Ô‡bÙ@ Š ÉÍÕ@ÙÁÙò ßÏÙØ@g .ÛÏÙÛÕ@ÙÙö´@ÙÛÏ ÚÍ ÏÙÛ ÝÚ ÝÙÕ X³ »ÛÈ@Ù@ÿÍ@ÙÍÈ@ÝÙÏÛÆÀ ÈÁÛ@﴾ (٢)؛

وقــال ســبحانه: ﴿ [SÔÑÙ • X÷ ÷ Ÿ– ÚÚÔÛ©ÚÔÏ Ø ,ÊÂÙ﴾ »ÛÈ@ÙŁÿ@ÙÍÈ@ÝÙÏÛÆÀ ÈÁÛ@﴾ (٣)؛ وقال عز من قائل: ﴿ÚÍ ÝÙ Ù KÍ `ÉÍ é [ÇØ﴾ »ÛÈ@ÙŁÿ@ÙÍÈ@ÝÙÏÛÆÀ ÈÁÛ@﴾ (٤)؛ وقــال جــل مــن قائــل: ﴿ÂÙÉÃ ÕÉÊ﴾ »_¤†ÉÆ Ý f û †Ò l Ý ÁÛÚÕÖÏ Ó Ñ Ù Õ Ø ÁÝÁ ÏÛ Õ Ä ÿ Û@﴾ (٥). كمــا أنــه سبحانه وصف نفسه في مواضع كثيرة بأنه غفور، وغافر، وجاء التعبير القرآني عـن معـاني المغفـرة بلفـظ الماضـي والمستقبل والأمـر، ترغيباً للعبـاد في طلـب المغفرة، وحثاً لهم على التوبة لكي ينالوا مغفرة ربهم.

والتوبة ليست كلمة تقال، وإنما هي عزيمة في القلب تتحقق مدلولاتها بالإيمان والعمل الصالح، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع؛ فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان وصدَّقه العمل، فعند ذلك يأخذ الإنسان التائب

---

(١) سورة طه، الآية (٨٢).

(٢) سورة ص ، الآية (٦٦).

(٣) سورة الزمر، الآية (٥).

(٤) سورة غافر، الآية (٤٢).

(٥) سورة نوح، الآية (١٠).

في السير في الطريق على هدى من الإيمان وعلى ضمانة من العمل الصالح، فالاهتداء ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل، والعبرة في الآية بعموم اللفظ، فهي فرصة وعطاء من الله تعالى لعباده حتى قيام الساعة، والمسلم حين يستمع إلى ربه وهو يقول له: ﴿ ÔÙŸÆÈ ÝÚ¡þÈ ã‡ †ÌÝ ÝÙ ÉÅ ø ﴾ «(١) يتحرك في نفسه الشوق إلى مغفرة الرب الغفار الكريم الستار، فلا غفار غيره ولا ستار سواه، فهو سبحانه الذي يغفر الذنوب جميعاً، وهو الغفور الرحيم.

ومن الآيات التي جاءت التوبة فيها مشروطة بالإيمان والعمل الصالح: قول الله تعالى: ﴿ ¾ÙÆ ÔÙŸÆÈ ÝÚ¡þÈ ã‡ †ÌÝ ÝÚ, ﴾

ŒÈ ØãŸ Ŝ@ÓŸ Ð ÔÈ †™ÕÆ

ÔÙŸÆÈ ã‡ †ÌÝ ÝÚÈ (٧٠) †Ù~¥Q ¤éŠ Ŝ@ÜÒÈ

†Š†ÚŸ @øÜÎ‡ éŠ ÎŠÈ †™ÕÆ «(٢) وهاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في سورة الفرقان متوسطتين بين صفات عباد الرحمن، الذين وردت صفاتهم في آخر تلك السورة، قال الله تعالى: ﴿ S†ÆÈ

ÙÆ†ßéÅX³ ¤Ŝ@øÕÆ ÜéS Ùÿf Û †ÿY@ÝÌŠ@

ÝÿYÈ@ (٦٣) †ÙÆ ÑéÛ f û éÆ@ŠÆ†Ž ﴾

(١) سورة طه، الآية (٨١).

(٢) سورة الفرقان، الآيتان (٧٠، ٧١).

[illegible] (64) [illegible]
[illegible]
[illegible] (65) [illegible]
(66) [illegible]
[illegible] (67) [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] (68) [illegible]
[illegible] (69) [illegible]
[illegible]
[illegible] (70) [illegible]
[illegible] »(١) فقد وصف الله

تعالى هؤلاء العباد الكرام بصفات تسع جاءت منضودة في عقد لؤلؤي جميل، يتلألأ جمالاً وبهاء وكمالاً، فقد وصفوا في هذه الصفات بأكرم وأجمل وأنبل ما تهفو إليه النفوس العظيمة من الخلال والسجايا الحميدة، وقد جمع لهم في هذه الصفات بين التحلي والتخلي. قال العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله:

---

(١) سورة الفرقان، الآيات من (٦٣) إلى (٧١).

«اعلم أن هذه الصفات التي أجريت على عباد الرحمن جاءت على أربعة أقسام:

١- قسم: هو في التحلي بالكمالات الدينية، وهي التي ابتدئ بها من قولـه تعـالى [ŸÿÐ@ Û ÙÿŠ ãWÕÿ@ ¤Ý³ ×Ž ÔÿÙÜ] إلى قوله: [ÙÃÿÛ] .

٢- وقسم: هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك، وهو الذي من قوله: [ÿÐ@ ÿÿÝ, ŸÿÐ@ ÿŠ äÿÛ ÿŸ] .

٣- وقسم: هـو مـن الاستقامة على شـرائع الإسـلام، وهـو قولـه : [ÿÐ@ ÿÝ ÿÜŠ ÿÿ ÿ Ÿ •ŸÿÛ ÙÛ] وقولــــه: ﴿ ÿÐ@ Û ÿÿÝ ÿŠ Ÿ ÿ ÿ] الآية، وقوله: ﴿ Ÿ, ÿÿ ÿŠ@ Ÿ ÿ ÿ] إلى قولــــــــــه: ﴿ ÿÐ@ Û ,Ÿ ÿÿŠ@ Ÿ@ ÿŸ « إلخ.

٤- وقسـم: مـن تطلَّـب الزيـادة مـن صـلاح الحـال في هـذه الحيـاة، وهـــــو قولــــــه: ﴿ ÿÐ@ ÿŠ ÿ@ ÿ Ÿ Ÿÿ ŸÝ « إلى قولــه ﴿ ÿ ÿ Ý Ÿ « (١).

والاسـتثناء في قولـه تعـالى: [ÿÝ ÿ Ÿ ÿ Ý ÿ ÿ ÝÔ

(١) تفسير التحرير والتنوير: (١٩/٦٧-٦٨).

ÙÜ¾ ÕÃÂ †™_†] هـو اسـتثناء مـن العمـوم المسـتفاد مـن الشـرط الـذي دلت عليه (من) الشرطية في قوله تعالى: [ÙÚÝÞßà ÔÕÖ×ØÙÚÛ

†Ú_† (٦٨) Þßàáâãäåæçèéêëìíîïðñòóôõ

ÝÛ-ßàáâ†ß† (٦٩)] .

قال القرطبي في تفسيره: «لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل من المسلمين»(١).

وقال العلامة السعدي في تفسيره: «فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلَّها ثابت لاشك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب فإنه لا يتناوله الخلود؛ لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصي ما فعل»(٢).

وقال العلامة ابن عاشور: «قتل النفس الواقع في مدة الشرك يجبُّه إيمان القاتل لأجل مزيَّة الإيمان، والإسلام يجُبُّ (٣) ما قبله بلا خلاف، وإنما

---

(١) تفسير القرطبي : (١٣/٧٧).

(٢) تفسير السعدي: (٣/٤١٠).

(٣) يَجُبُّ، أي: يقطع ويمحو ما كان قبله من المعاصي والذنوب اهـ النهاية لابن الأثير: (١/٢٣٤).

الخلاف الواقع بين السلف في صحة توبة القاتل، إنما هو في المؤمن القاتل مؤمناً، متعمداً؛ ولما كان مما تشمله هذه الآية؛ لأن سياقها في الثناء على المؤمنين، فقد دلت الآية على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من هذه الذنوب المعدودة ومنها قتل النفس بدون حق، وهو المعروف من عمومات الكتاب والسنة»(١).

وكل من تاب إلى الله تعالى من المعاصي والذنوب التي ارتكبها سواء كانت تشمل هذه المعاصي الثلاث أو تشملها مع غيرها، أو لا تشملها بل كانت معاصي وذنوباً أخرى، فهو موعود من الله تعالى بالتوبة والقبول وتبديل سيئاته حسنات، فالله هو الغفور الرحيم وهو ذو الفضل العظيم، والأمر ينبغي أن ينظر إليه من زاوية رحمة الله الواسعة ومغفرته التي هي أوسع من ذنوب المذنبين، لا من زاوية رحمة المخلوقين، فكم ضيَّق الخلقُ واسعاً؟ ولا ينافي ما ذكرناه ما ورد في سبب نزول الآية التي نحن بصدد الحديث عنها: [ÌXÞ,ÚÝÝŽ† ÝÝÈÈÀÍÚÙÝÚÝÆÙÔÊÆÙ¾ VÅÃÕ™†] الآية، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزَنَوا فأكثروا، فأَتَوا محمداً فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت: [V@ÞÝYÝÝV,VÝÝSÝÉÜÜÝÝ@ ÝÐKÐÝä†

(١) تفسير التحرير والتنوير: (٧٦/١٩).

ÀXWV¨@ ,FMB @ØQ¶V ø•R@V ‚ÉÖV¨@ÙéÊRŠì ¨V,VèWËV¨ø
,VèV ¨V,éŠì û fVèÚÝ ¨VÉíÔ Ý¨Ö¨V ¨VÉÙ¨ÙW¨ †Ú†‚ [(١)،
ونزلت: [ÔÕ ¨VÈ%ÍÆ†ÝY ÷@¨ÝÝ¨ÕÝ¨ÝÈÊ ÙÈÊÚ¨ Ø@ÕÝ¨ÚÙ
¨V,ÝŒ¨ÝRÊÝÙÝ¨ÝÜ@ ÜÙ «(٢)، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالوعد بقبول توبة التائب — إذا أخلص فيها- وعدٌ مبذول من الله تعالى لكل التائبين حتى تطلع الشمس من مغربها، أو حتى يغرغر المذنب؛ وإنما ذكر الله تعالى هذه الذنوب الثلاثة لأنها أكبر الكبائر، ولأنها يترتب عليها فساد الحياة جملة؛ قال العلامة السعدي في تفسيره: «فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض»(٣).

وماذا يبقى للحياة من صلاح وخير، إذا دبَّ فيها الفساد من انتشار هذه الجرائم الثلاث، وإن مجتمعاً انتشر فيه هذا الفساد لهو مجتمع معدود في الأموات جدير بأن يكبر عليه أربعٌ لموته، وإن كان أفراده يتحركون في عالم الأشباح، فهم ميتون في عالم الأرواح بلا شك، وإن حاولوا أن يكذبوا على أنفسهم وعلى الآخرين بغير ذلك.

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٦٨).

(٢) سورة الزمر، الآية (٥٣) ، وانظر في سبب النزول: صحيح البخاري (١٨١١/٤) حديث رقم (٤٥٣٢)، صحيح مسلم (١١٣/١) حديث رقم (١٢٢).

(٣) تفسير السعدي: (٤١١/٣).

ويجيء العطاء من الله تعالى لعباده التائبين من ذنوبهم عطاء واسعاً عظيماً، بسعة وعظمة رحمة الله ورأفته بخلقه، وإحسانه إليهم، وعطفه وحنانه عليهم عطاء تتبدَّل معه السيئات لتصير حسنات، فمن الذي يستطيع من الخلق- إذا خالفت أمره أو أسأت إليه- أن يجازيك بعد مخالفتك له، وإساءتك إليه، إحساناً ورحمة بعد أن تتصالح معه؟ إن الله تعالى وحده هو الذي يقبل التائبين إليه، ويبدل سيئاتهم حسنات ويعفو عنهم، ويدخلهم جنات النعيم في نعيم مقيم لا يفنى ولا ينقص ولا يبيد.

وقول الله تعالى: ﴿ ¾ÙWEVÔÙYZWWÝÚÚ‚ÿèVÆ‡ †ÏVÝÝÚ‚RÆXI
ŒEHWØVØXŸÍQVÆ ©ÓPWÆÐ ÏXÐÈRÊVÍ™ÖHV
ÙVÒÙ©ÆVÆŠÝ¤éÐÐ~Ù† ﴾[1] بيان لمدى سعة مغفرة الله ورحمته، وأن ذنوب العباد وإن كانت من أكبر الكبائر، وأشدها ضرراً وفساداً وإفساداً، فإن الله تعالى يغفرها إذا تِيْبَ منها، وصلح عمل التائب بعدها. وهذه الآية قد وردت في سياق الحديث عن صفات عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان، والله تعالى بيّن في كتابه بأن هؤلاء العباد مع ما هم عليه من هذه الصفات الجليلة الجميلة، إلا أنهم ليسوا معصومين من الخطايا والذنوب، وباب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم، والله تعالى لا يرد من جاءه تائباً إليه راغباً في رحمته ومغفرته، وهذا هو الفهم الذي نحسُّ بالراحة إليه.

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٧٠).

وفي ضوء هذا الفهم فإننا نستغرب ممن يصرف الآية عن ظاهرها؛ لأنه رأى أنه لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة اختصاص، وذكرهم ووصفهم بصفات المعرفة والتشريف، وقوع هذه الذنوب أو بعضها منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم؛ لأنهم أعلى وأشرف من ذلك. وهذا فهم غريب تسرب إلى صاحبه عبر نوافذ غريبة عن الإسلام. والقرآن صريح في بيان أن العصمة ليست إلا لمن عصم الله تعالى، وأن التحلي بكريم الصفات لا يعني أن أصحابها منزهون عن المعاصي. قال تعالى: ﴿[illegible]

[illegible] (133) [illegible]

[illegible] (134) [illegible]

[illegible]

(135) [illegible]

[illegible]

@ÄÂVHTYÝÕkVÜ »(١).

وهذه الآيات الكريمة صريحة واضحة في الدلالة على ما أشرنا إليه؛ ولكن يبقى سؤال مهم يطرح نفسه – على ساحة الحديث حول التوبة من الكبائر الثلاث التي جاءت في معرض حديث القرآن عن عباد الرحمن وصفاتهم – وهو: لماذا ذكرت هذه الثلاث دون سواها؟ وقد ذكرنا ما أورده العلامة السعدي في تفسيره تعليلاً لذلك الاقتصار على ذكر هذه الكبائر الثلاث دون سواها، وذلك سؤال يمكن أن يجاب عنه بما ذكره العلامة السعدي وغيره من أهل العلم، غير أن للترتيب القرآني الكريم في ذكر هذه الكبائر معاني ودلالاتٍ في الذكر، وأبعاداً تتصل بالحياة ومدى تأثرها بذلك، وهل ترتيب القرآن الكريم لها دليل على أنها مترتبة على بعضها بناء على ترتيبها في الوجود، وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في (التفسير الكبير) على ذلك قائلا: «ولهذا الترتيب وجه معقول هو أن قوى الإنسان ثلاث: قوة العقل، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، فأعلاها القوة العقلية التي يختص بها الإنسان دون سائر الدواب، وتشاركه فيها الملائكة كما قال أبو بكر عبدالعزيز من أصحابنا وغيره: خلق للملائكة عقول بلا شهوة، وخلق للبهائم شهوة بلا عقل، وخلق للإنسان عقل وشهوة، فمن غلب عقله

---

(١) سورة آل عمران، الآيات من (١٣٣) إلى (١٣٦).

على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه»(١).

ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة، ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة. إلى أن يقول رحمه الله: «فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة الإيمانية، ولهذا لا يوصف بالعقل من لا تمييز له، والقتل ناشئ عن القوة الغضبية والعدوان فيها، والزنا ناشئ عن القوة الشهوانية، فالقتل اعتداء وفساد في القوة الغضبية، والزنا اعتداء وفساد في القوة الشهوانية. ومنه وجه آخر ظاهر: أن الخلق خلقهم الله لعبادته، وقوام الشخص بجسده، وقوام النوع بالنكاح والنسل، فالكفر فساد المقصود الذي له خلقوا، وقتل النفس فساد النفوس الموجودة، والزنا فساد في المنتظر من النوع. فذاك إفساد في الوجود، وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسد ما لم يكن موجودا، أو منع المنعقد لأن يوجد، وإعدام الموجود أعظم فساداً فلهذا كان الترتيب كذلك»(٢).

ولذلك نجد أن هذه الذنوب، أي الكبائر الثلاث: متى اختفت في المجتمع المسلم فإنه حينذاك ينعم بحياة مِلْؤُها الخير والاستقرار والأمن والهناء، ومجتمع عباد الرحمن كذلك إلا أن باب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم وهم أسرع

---

(١) التفسير الكبير لابن تيمية، تحقيق وتعليق: د/ عبد الرحمن عميرة : (٦/٣-٤).
(٢) نفس المصدر: (٦/٥).

الناس توبة إلى خالقهم عند اقتراف الذنب، وهو باب مفتوح دائما حتى شروق الشمس من مغربها، ويدخل منه قبل ذلك كل من رغب العودة إلى ربه، لا يصده عنه صاد، ولا يغلق في وجه تائب إلى ربه أياً كان، وأياً ما ارتكب من الآثام. روى صفوان بن عمر عن عبدالرحمن بن جبير عن أبي فروة أنه أتى النبي فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، ولم يترك حاجة، ولا داجة، فهل له من توبة؟ فقال النبي : أسلمت؟

فقال: نعم.

قال: - أي النبي -: فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها.

قال - أي السائل-: وغدراتي وفجراتي؟

قال- أي النبي -: نعم.

فما زال السائل يُكبِّر حتى توارى(١).

ومما تجدر الإشارة إليه - ونحن بصدد الحديث عن التوبة من الكبائر الثلاث وسواها- أن العمل الصالح المشروط مع الإيمان لقبول التوبة جاء مؤكدا بمصدر من لفظ الفعل ومعناه، مع وصف المصدر بالصلاح ﴿ VÆÝÙÔVÆÙ¾ VÆÝÕ™† [وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم، وما

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٣١٤/٧) حديث رقم (٧٢٣٥).

عداه جاء العمل فيه موصوفاً بالصلاح وحسب، ولابد أن لذلك حكمة تتصل بقبول التوبة من تلك الكبائر الثلاث أو بعضها.

فإذا علمنا من خلال مقالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان خطر وأثر هذه الكبائر، وما ذكره العلامة السعدي، فإنه يتبين لنا أن مرتكب هذه الكبائر أو بعضها إذا تاب وآمن وعمل صالحاً، فإنه لابد أن يكون عمله عملاً صالحاً، أي أنه لابد أن يجتهد في العمل أكثر من غيره، حتى لا يرى عمله أمام الآخرين إلا أنه عمل صالح، لا لبس فيه ولاشك ولا غموض؛ لأن ارتكاب هذه الكبائر أو بعضها يفسد الحياة، فلابد أن يكون العمل مع التوبة والإيمان عملاً يؤكد جدية صاحبه، ويدل على عزيمته وصدقه، عملاً صالحاً صادقاً متواصلاً نشطاً، غير متقطع أو فاتر.

إن للمصدر المؤكد للعمل دلالات وأبعاداً يستطيع أهل العلم الكشف عنها وبيانها. وإن فضل الله تعالى لعظيم وإن رحمته لواسعة، وإن المرء ليقف ملياً وهو يتأمل كيف أن الله تعالى بفضله ورحمته يبدل سيئات المذنبين حسنات بعد توبتهم إليه سبحانه، ولو كانت هذه الذنوب من أكبر الكبائر كالشرك، والقتل، والزنا، قال تعالى: ﴿ [illegible] (68)

[illegible] (٦٩) [illegible]
[illegible]
[illegible] (٧٠) [illegible]
[illegible]»(١).

إن الله تعالى هو الإله الحق المتفرد بالقوة والعظمة، والعزة والجبروت، والملك والملكوت، وهو حي دائم لا يموت، خلق خلقه بقدرته، وجعل لهم في الحياة آجالاً محتومة تنتهي حياتهم بانتهائها، ويوم القيامة يلقون نتائج ما عملوا في حياتهم، وسخر لهم ما في السماوات والأرض تسخيرا تظهر من خلاله دلائل القدرة والعظمة، ولم يتركهم سُدًى بل أرسل إليهم رسله، وأنزل إليهم كتبه، وقد بين الرسل - عليهم السلام - لأممهم ما نزل إليهم من ربهم، حتى لا يكون لأحد من الناس حجة على الله تعالى بعد الرسل، فمن أطاعه نال الثواب في الدنيا والآخرة، ومن عصاه نال العقاب، والله لا يظلم أحداً.

ومن بالغ رحمته ورأفته وعظيم فضله أن فتح باب التوبة للمذنبين ليتوبوا إليه، فلم يعاجلهم بالعقاب والعذاب لمجرد اقترافهم للذنوب، ولو فعل بهم

---

(١) سورة الفرقان، الآيات من (٦٨) إلى (٧١).

ذلك لما بقي لهم أثر فوق ظهر الأرض، قال تعالى: ﴿$Ÿ ÉïŠ$ öÜÍ×V
@ Ý Ú †ÅÆ ä ð ø ÜÕÍ ó Ù Ý Ú† Ü Ö ÑÅ Ü †ÜÛ Ü ð Š† Ü ÛÕ @ Ý Ú
ó†Ö Ü ÜÛ ø ÜÕÍ ô Ö ÜÎ ø ÜÕ Ü Š Ý Ý Ú Ý ÜÛ Ü ÜÛ
Ü Ü ÜÛ Ö ÜÕ Ü ÜÛ Ý Ý Ù Ü Ö ô Ö ø ÜÕ ÜÛ Ö K ﴾»[1] ولكنـــــه

دعاهم للتوبة إليه ونهاهم عن القنوط واليأس من رحمته ومغفرته، ووعدهم بمغفـرة ذنـوبهم. قـال تعـالى: ﴿ Ý Ú†‰ ä ð Ó Ü @ ÜÛ Ö Ü ÜÕ Ü ÜÛ Ö

Ü Ü ÜÛ Ö Ü @ Ü Ö Ü Ý ÜÛ Ü Ý Ü ÜÛ Ü Ö Ü ÜÕ Ü Ö ø ÜÕ ÜÛ Ö
@ Ü ÜÛ Ü Ü Ü Ö Ý Ü Ý Ü Ü ÜÛ Ö Ü Ü Ü Ö Ü Ü Ü Ö ﴾»[2] وذلك كله

من فضله وكرمه ورحمته.

إن تبديل سيئات المذنبين حسنات بعد توبتهم لهو معلم نيِّرٌ من المعالم الدالة على مدى سعة رحمة الله وكريم فضله، وهو عنوانٌ ودليلٌ على كرم العفو من الله تعالى، فهو وحده كريم العفو، ونترك الكيفية التي تبدل بها سيئات المذنبين حسنات لعلم الله تعالى وفضله وإحسانه فهو ذو الفضل العظيم وهو الغفور الرحيم.

وجاء قول الله تعالى: ﴿ Ü Ö Ü Ü Ü Ö Ý Ü Ý Ü Ü ÜÛ Ö Ü Ü Ü Ö

---

(١) سورة فاطر، الآية (٤٥).

(٢) سورة الزمر، الآية (٥٣).

†|Š†ŴÚŴŎ @ø ÙØÆ‡ é§ÿV «[١] بياناً إلى أن التوبة تبدأ بالندم، والإقلاع عن المعصية، وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية، وهو في الوقت ذاته ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية، فالمعصية عمل وحركة، يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة، وإلا حنَّت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذي تحسه بعد الإقلاع.

إن القرآن الكريم حين يبين أهمية وشأن العمل بعد التوبة، ليعكس بذلك منهج التربية الإسلامي الرشيد السديد في البناء والإصلاح، وهو منهج عجيب يقوم على معرفة عميقة واسعة بالنفس الإنسانية، وما تصلح به في سائر أطوار حياتها.

إن منهج التربية في القرآن - وهو منهج الإسلام العظيم- لا يترك المسلم التائب من ذنبه يتيه في بيداء الفراغ الموحل، ولكنه يأخذ بيديه إلى ساحة العمل الصالح الواسعة العامرة بكل جميل ومفيد، ويدعوه إلى ضرورة العمل الصالح حتى تصح توبته؛ وفي ساحة العمل الصالح يجد المسلم التائب ذاته بعد أن فقدها في بيداء المعاصي.

ومدلول العمل في الإسلام مدلول واسع، فكل شئ يرضي الله تعالى ويرضي رسوله فهو من العمل الصالح، فالطاعات والقربات والعبادات - سواء كانت قولية أو فعلية - هي من العمل الصالح، وكذلك الأعمال

(١) سورة الفرقان، الآية (٧١).

الدنيوية إذا قصد بها وجه الله تعالى، ودخلتها نية العبادة لله تعالى، فهي من العمل الصالح.

وهكذا يتميز منهج الإسلام العظيم في التربية بالشمولية والواقعية، والصلاحية ومراعاة الواقع، والتعامل معه، ويأتي دور المجتمع المسلم تجاه من تاب من أفراده، وهو دور له فاعليته وأثره، وقوفاً بجانب هؤلاء الأفراد، وتشجيعاً لهم على السير في طريق التوبة، واهتماماً بهم، فلا يحسُّ المسلم التائب بغربة حين يعود إلى طريق التوبة والعمل الصالح، فمجتمعه لا يتنكر له، أو يتجاهله، أو يحتقره، ومن شأن ذلك أن يعين التائبين على السير في طريق العمل والصلاح والإصلاح بدون كلل أو ملل، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

ومن الآيات التي وردت التوبة فيها مشروطة بالإيمان والعمل الصالح قول الله تعالى: ﴿ÊÂKQÚ†ÚÝÝŽ† ±ÃĕÞƒÝÝÝËÈÝÔ ĦÀÑĨ_™† ÊÂÅŴ@KÜÚÿÑÊÜÝÝ@ÖÜÈÉĦÿĨ™Ýk û f «﴾[1] أي فأما من تاب من المشركين وراجع الحق وأخلص لله بتوحيده، وأفرده بالعبادة، وصدق نيته، وعمل بما أمر به في كتابه، وعلى لسان نبيه فهو من الفائزين الذين أدركوا بغيتهم، وفازوا بجنات النعيم في نعيمها المقيم الذي لا ينقص ولا يبيد، وهذه الآية الكريمة من سورة القصص جاءت بعد آيات كان حديث القرآن فيها،

(١) سورة القصص، الآية (٦٧).

عن حوارات المشركين مع شركائهم يوم القيامة، وما يقوله هؤلاء الشركاء تبرُّؤًا من متبوعيهم، ويقال للتابعين: ادعوا شركاءكم فيدعونهم فلا يستجيبون لهم، وتحق عليهم جميعاً كلمة العذاب، ويعاينون مصيرهم المحتوم، ولتقوم عليهم الحجة كاملة، يسألون بماذا أجابوا المرسلين الذين أرسلوا إليهم في الدنيا، فلا ينطقون بحجة، والله تعالى وسعت رحمته كل شئ يقول للمشركين من أهل الدنيا: إن الذي يتوب من شركه، ويصدق في إيمانه، ويؤدي ما عليه من الفرائض ويكثر من النوافل والقربات، فإني أقبل توبته وأمحو سيئاته، وأدخله جنات النعيم - دار الفائزين بالسعادة- وذلك من فضل الله تعالى ورحمته، وجاء التعبير الكريم - في تحقيق الوعد الإلهي الكريم – بلفظ (عسى)، وهي واجبة من الله تعالى، كما قال القرطبي في تفسيره[(١)]، ولفظ الآية عام يشمل المشركين وغيرهم ممن أذنب من المسلمين، فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة التي يتبعها إيمان وعمل صالح؛ ففي التوبة الفلاح، وفي تركها والإعراض عنها الخسران، فاللهم ألحقنا بركب التائبين إليك.

المعلم السادس: أن التوبة من الله تعالى لعباده المؤمنين قد لا تكون في حال توبتهم من الذنب فقط، بل تكون منه رفعة لهم وقبولاً، وزيادة في العفو والقبول والرضا قال تعالى: ﴿ ŸÝŴ †Ŵ @‡ 8 ŴV @ø ŴŴ%Ø

---

(١) تفسير القرطبي: (١١/٢٠٠).

[illegible] «[1]، قال القاسمي رحمه الله في تفسيره: «اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك - مؤمنهم ومنافقهم، والمنفق لها طوعاً أوكرهاً، والراغب فيها أو عنها، والمتخلف نفاقاً أو كسلاً، وأنبأ عمّا لحق كلاً من الوعد والوعيد، وميّز

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٧).

الصادقين من غيرهم - ختم بفرقه كانوا تخلفوا ميلاً للدِّعة وهم صادقون في إيمانهم ثم ندموا فتابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها، ثم أنزل توبتهم في هذه الآية، وصدرها بتوبته على رسوله، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنويهاً لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم، وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار كل على حسبه، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأنها صفة التوابين الأوابين، صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح.

والوصف للمدح: كما يكون لمدح الموصوف، يكون لمدح الصفة، وهذا من لطائف البلاغة»(١).

وقال العلامة ابن عاشور في تفسيره: «وتقديم النبي في تعلق فعل التوبة بالغزاة، للتنويه بشأن هذه التوبة وإتيانها على جميع الذنوب، إذ قد علم المسلمون كلهم أن النبي قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومعنى (تاب) عليه غفر له، أي لم يؤاخذه بالذنوب سواء كان مذنبا أم لم يكن، كقوله تعالى: ﴿ÕŒV ÛKÜPÝYŠ™ S‡ ÂWé•† ‡ƒÕŒV ˜Ñ ỳ» «(٢)، أي فغفر لكم وتجاوز عن تقصيركم، وليس هنالك ذنب ولا توبة، فمعنى التوبة على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه أن الله لا يؤاخذهم

---

(١) محاسن التأويل: (٥/٢٤٥).

(٢) سورة المزمل، الآية (٢٠).

بما قد يحسبون أنه يسبب مؤاخذة كقول النبي : «ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١).

المعلم السابع: أن التوبة لم يمنع قبولها إلا في موضعين في القرآن وعلى صنفين اثنين: فالصنف الأول هم الكفار الذين ماتوا مصرين على كفرهم، أي أنهم لم يتوبوا من كفرهم حتى فاجأهم الموت وهم كافرون، قال تعالى: ﴿ÝÈ £ßÉÈ ÌëS.W{@ ÈÔ ÂØ¾ÝYÌÙ¼ÝÌÌÂÅ¼ÝÌëÈ£ÙÌ ÒÝ Ý¼ÌÙ@ÙK ÝÌÈÌÈ ÙÐ@ÒÂ Ð ÝÌÙÈÌÈÝ ÂÙÌÌÝÞ ÞÙ ÉÙÌÝÐÙÌÈ Ý ÝÌÙ«(٢).

إن الموت على الكفر - عياذاً بالله تعالى من ذلك - جريمة لا تغتفر، إذ كيف يطمع في المغفرة من دخل الدار الآخرة كافراً، فهو لم تعد لديه فرصة في تلك الدار، وإنما كانت الفرصة متاحة أمامه في حياته الدنيا، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء؛ قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في التفسير: «يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً – أي استمر عليه إلى الممات – ومخبراً بأنه لا تقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿ÌÝÙÌÝÌÙÛ ÌÝÝÈÌÝÌ@ÈÌÝ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٠٩٥/٣) رقم (٢٨٤٥)، ومسلم في صحيحه (١٩٤١/٤) رقم (٢٤٩٤). وانظر فيما مضى: تفسير التحرير والتنوير: (٤٩/١١).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٩٠).

@ÖÜ©ÕÕ‡ gVÆRÕbXUÇ ...V¥ÜµÅKÉÜ¥ÀÛÕÄÖ@ÜÈ ñ «(١) الآيـــة،

ولهـــذا قـــال ههنـــا:] ÝŸŠ ÎÚÜÔ ÎÝÉÚŠ ÑSÆyÌÆÊÜÃÁÐ ÅÐ ØÕ

@Ö µÜÕÈÆÜÌ [(٢) أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي»(٣).

فالتوبة التي ينبغي أن تكون، هي التوبة التي تقع قبل أن يغرغر الحي بالموت، فالتوبة من الكفر يجب أن تكون قبل ذلك الحال، وكذلك التوبة من باقي الذنوب والمعاصي يجب أن تقع قبل ذلك الحال أيضاً، وإلا فلا توبة؛ ولذلك نفى الله تعالى في القرآن الكريم التوبة عن هذا الصنف من الكفار الذين لم يتوبوا حتى الموت.

وأما الصنف الثاني فهم الذين يعملون السيئات ولا يتوبون منها إلا عنـد غرغـرة المـوت قـال تعـالى: ﴿ÜÆÜV@ÓÜÕ@ÃÆÈÜÅÛÓÞÏÝ ÏÛ f

ÜVÀÙÜÕÕÜÆ@ÖÜ©ÕÕ‡ gVÆRÕbXUÇ ...V¥ÜµÅKÉÜ¥ÀÛÕÄÖ@ÜÈ ñ

VÜÕÝÚÜÈ@ÓÜÈÆÝÝÆ@ÜÏÛÝÝÆÙÚ ÝÈÈ û fÜÆÝ Ø

{ÜÈ‡ÜÆÔÎÚÜÔ ÎÝÉÚŠ ÑÝÄÝ‡ÝÃÖØÏÆÆ ‡ÜÕÕ‡ÊÜÖŠ ÏÞÕÕ‡ «(٤) وإنمـــا

قُرِن هؤلاء الذين يعملون السيئات، فلم يتوبوا منها إلا لحظة الغرغرة بالموت -

---

(١) سورة النساء، الآية (١٨).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٩٠).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/٧٢).

(٤) سورة النساء، الآية (١٨).

مع أنهم ليسوا بكافرين- قُرِنُوا مع الكفار للمشابهة في الفعل، في تأخير التوبة كما فعل فرعون، ويفعل غيره من الكفار؛ فمن أخَّر التوبة من المسلمين حتى الغرغرة فقد شابه بفعله فعل الكافرين، وإلا فشأن المسلم الصالح هو المسارعة بالتوبة؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه أجله.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: «نفى سبحانه أن يدخل في حكم التائبين من حضره الموت، وصار في حين اليأس، كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهره من الإيمان؛ لأن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع؛ لأنها حال زوال التكليف؛ وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجمهور المفسرين، وأما الكفار يموتون على كفرهم فلا توبة لهم في الآخرة، وإليهم الإشارة بقوله تعالى:] [illegible] (١) وهو الخلود، وإن كانت الإشارة بقوله إلى الجميع فهو في جهة العصاة عذاب لا خلود معه وهذا على أن السيئات ما دون الكفر أي ليست التوبة لمن عمل دون الكفر من السيئات ثم تاب عند الموت، ولا لمن مات كافراً فتاب يوم القيامة»(٢) .

إن شأن المسلم الصالح هو المسارعة إلى التوبة؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه أجله، وإن المرء ليعجب أشد العجب من أناس ظهرت لهم النذر

---

(١) سورة النساء، الآية (١٨).

(٢) تفسير القرطبي: (٥/٩٣).

بالموت من كل طريق ومع ذلك فهم مقيمون على المعاصي، غافلون عما ينتظرهم، وهم على خطر عظيم إن لم يتداركوا أنفسهم، ويبادروا بالتوبة، قبل أن يطبق عليهم هادم اللذات فلا توبة عند ذلك، ويحق عليهم ما حقّ على من سبقهم ممن سوَّف في التوبة حتى فاجأه الأجل، فكان ممن شملته هذه الآية. عياذا بالله من سوء الختام.

إن العاقل الحصيف من المسلمين هو الذي يدرك حقيقة تَصَرُّمِ الأيام من عمره، وأن كل يوم يمضي من هذا العمر يقرب من القبر؛ إن هدي الإسلام الرائع العظيم حين يحث المسلمين على التوبة، ويحذرهم مغبة التسويف في هذه التوبة، ويخوفهم من النهاية السيئة التي سينتهي إليها من يسوِّفون في التوبة حتى تدركهم غرغرة الموت، فإنه بذلك يَحُدُّ من انتشار الذنوب والمعاصي التي يترتب على انتشارها ظهور جميع الشرور والبلايا ظاهراً وباطناً، عاجلاً وآجلاً.

وحين يَحُدُّ الإسلام بهديه العظيم من انتشار الذنوب في المجتمع الإسلامي، فإنما يدل بذلك على أنه هدي الله القويم الذي اختاره للبشرية، لتحيا في ظله في خير وأمن وسلام، قال الله تعالى : ﴿ [illegible]

ÈV ÄV[ÈVÁÚ@ÈŠÙÏ ÜVÏÛ ÈV †[Û~ÈV Y|ÈÛ~Ù‡ «(١) وهذا معلم خالد من معالم الهدي القرآني في التوبة كما تبينه هذه الآية الكريمة وغيرها في القران الكريم، قال تعالى: ﴿ÈVÜÞ@ÈVßÜ ÷ VÌÝ ÛÏÝ@ÈVÜÂ@Ø ÈVÜÎÛ ÈÝ ÜÞ~†ÈVÜ-﴾ ... « (٢) الآية، وقال سبحانه: ﴿ÈVÂÚÁ ÈVßÜ@ÜÔÙÏÜ †ÈÛ ÜÄ﴾ ... « (٣)

الآية.

المعلم الثامن: من معالم الهدي القرآني يتصل بسهولة التوبة ويسرها، فالله تعالى وحده هو الذي يقبل توبة التائبين، فلا وسائط بينه سبحانه وتعالى وبين عباده التائبين، وهو جل جلاله يرغِّب عباده في التوبة إليه ويخبرهم في كتابه الكريم بقوله عز من قائل: ﴿ÜÙÏÜ@ÈVÜÎÛ ÈÝ ÜÞ~ÈVßÜ@ÜÏ ... Û ÜÂÙ [﴾ (٤) الآية.

إن سماحة الإسلام وعظمة هديه يجد في ساحتها العبد المذنب فرصاً عديدة أمامه للأوبة إلى رحمة الله الواسعة، وذلك أن هذا الهدي القويم العظيم يقدر في الناس ضعفهم البشري الذي يهبط بهم أحياناً إلى درك السيئات فلا

---

(١) سورة النساء، الآية (١٧).
(٢) سورة الشورى، الآية (٢٥).
(٣) سورة التوبة، الآية (١٠٤).
(٤) سورة النساء ، الآية (١٧).

يقسو عليهم، ولا يقفل الأبواب في وجوههم بعد أن يرتكبوا هذه السيئات، ولا يلقيهم منبوذين حائرين في التيه، ولا يدعهم في نفس الوقت مطرودين خائفين من المآب وسوء العاقبة، ولكنه هدي الرحمة والرفق، والتربية والتهذيب، والبناء والإحسان، والتوبة والمغفرة، فيدلهم على التوبة، ويدلهم على طرقها وأبوابها، ويطمعهم في مغفرة ربهم ورحمته، ويأخذ بأيديهم المرتعشة وقلوبهم الواجفة الخائفة من سوء العاقبة، فيسندهم - في سيرهم على طريق التوبة والأوبة - في رفق ورحمة وحنان، ويثبت أقدامهم على هذا الطريق بعد أن ينيره لهم، وهم في سيرهم ذلك لا يكلفهم هذا الهدي الكريم أعمالاً تشق عليهم من أي نوع كانت، وأبواب الفرائض والسنن والمندوبات، والقربات وسائر الطاعات، أبواب مشرعة ميسرة، سهلة لاعنت فيها ولا شدة، ولا قسوة ولا غلظة، ولا جفوة ولا تطرف، وإنما اليسر ورفع الحرج يرافقان العباد على طريق العودة إلى الله تعالى، اللهم إلاّ أن يبتلى هؤلاء العباد- وهم في طريق العودة والتوبة - بمن ابتليت بهم الأمة من المتعالمين الذين يضيِّقون ولا يوسعون، ويعسّرون ولا ييسرون، وينفِّرون ولا يبشِّرون، ويعقِّدون ولا يسهِّلون. وهؤلاء - إن وجدوا - فهم لا يمثّلون إلا أنفسهم، وهم بذلك إنما يذكِّرون الأمة بموقف ذلك العابد في بني إسرائيل، الذي قنَّط ذلك التائب من بني إسرائيل وقد قتل تسعاً وتسعين رقبة، فلما قنَّطه من رحمة ربه أكمل به مائة،

وذلك مما صح خبره عن الصادق المصدوق [(١)].

إن الإسلام في هديه العظيم في تيسير التوبة وتسهيلها يجمع بين كل العوامل والعناصر التي تربي نفس وعقل وقلب وشخصية العبد التائب، فهو حين يدعوه إلى التوبة، ويسهل أبوابها وطرقها أمامه، فليس معنى ذلك أنها مجرد توبة، أو أنها توبة حسب مزاج التائب، بل إن هدي الإسلام يدل العبد التائب على التوبة المطلوبة التي وعد الله تعالى بقبولها، وجاء الوعد الإلهي بذلك معبراً عنه في القرآن الكريم بما يشعر بأن الله تعالى أوجب قبولها على نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ȲKÀÙ@ÖëŠÍÍÍfÜVÆÕÃ@ë@Ÿ ȲNÀ@ÖëŠÍ ÛY ÙÛÛ fÝÚÞÖîÚ@ÖçÓë ÔÍÍÏêéÓÍ òâöÚñÚÚÝ] [(٢)] الآية، والخلق لا يحق لهم أن يوجبوا على الله تعالى شيئا، والله تعالى وعد بقبول توبة عباده الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، وجاء الوعد الكريم بذلك بقوله تعالى: ﴿ȲKÀÙ@ÖëŠÍÍÍfÜVÆÕÃ@ë@Ÿ] [(٣)] قال صاحب (التحرير والتنوير) -رحمه الله-: «و(على) هنا حرف للاستعلاء المجازي بمعنى التعهد والتحقق كقولك: عليَّ لك كذا، فهي تفيد تحقق التعهد. والمعنى: التوبة تحق على الله، وهذا مجاز في تأكيد الوعد بقبولها حتى جعلت كالحق على الله،

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٢١١٨/٤)، حديث رقم (٢٧٦٦).

(٢) سورة النساء، الآية (١٧).

(٣) سورة النساء، الآية (١٧).

ولاشيء بواجب على الله إلا وجوب وعده بفضله»(١) .

قال القرطبي في تفسيره: «أي أنه وعد، ولا خلف في وعده أنه يقبل التوبة إذا كانت بشروطها المصحِّحَة لها وهي أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود لمثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله تعالى لا من غيره، فإن اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة»(٢).

ويبقى للتعبير الكريم ﴿[illegible]﴾(٣): سعته ومداه، وبُعْد دلالاته الذي يتصل بسعة رحمة الله تعالى بعباده المذنبين، ومدى محبته سبحانه لتوبة هؤلاء العباد، بل وفرحه جل جلاله بهذه التوبة؛ وإذا علمنا أن الله تعالى قد بيَّن في كتابه الكريم أن عليه سبحانه قبول توبة من يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فهل يعني ذكر(بجهالة) و(قريب) أنهما قيدان أو شرطان لقبول توبة هؤلاء؟ أم أن للمفسرين أراء في بيان المراد من هذين اللفظين؟

قال صاحب (التحرير والتنوير) رحمه الله: «واختلف المفسرون من السلف ومن بعدهم في إعمال مفهوم القيدين (بجهالة — من قريب) حتى قيل: إن حكم الآية منسوخ بآية ﴿[illegible]

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: (٢٧٧/٤-٢٧٨).

(٢) تفسير القرطبي : (٩١/٥).

(٣) سورة النساء، الآية (٤٨).

ﮋ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﮊ »(١) ، والأكثر على أن قيد(الجهالة) كوصف كائن لعمل السوء؛ لأن المراد: عمل السوء مع الإيمان؛ فقد روى عبد الرزاق عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد فرأوا أن كل عمل عُصِي الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره.

والذي يظهر أنهما قيدان ذُكِرا للتنبيه على أن شأن المسلم أن يكون عمله جارياً على اعتبار مفهوم القيدين، وليس مفهوماهما بشرطين لقبول التوبة، وأن قوله تعالى: ﴿ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﮊ(٢) قسيم لمضمون قوله: ﴿ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮊ ﴾ إلخ، ولا واسطة بين هذين القسمين»(٣).

فليس مفهوم القيدين: (بجهالة) و(من قريب) شرطاً لقبول التوبة، وعلى ذلك فسر علماء التفسير قيد (بجهالة) بأن كل معصية عصي بها الله تعالى فهي جهالة، عمداً كانت أو جهلاً، فكل من عصي ربه فهو جاهل

---

(١) سورة النساء، الآية (٤٨).

(٢) سورة النساء، الآية (١٨).

(٣) تفسير التحرير والتنوير : (٤/٢٧٨-٢٧٩).

حتى ينزع عن معصيته، ومعنى (من قريب) يشمل قرب التوبة من الذنب، كما يشمل عمر الإنسان كله باعتباره أياما تنصرم وتنقضي، وذلك قبل غرغرة الموت. روى ابن عمر عن النبي أنه قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١).

المعلم التاسع: يتصل بالحديث عن استغفار ملائكة الله تعالى الحاملين لعرشه للمؤمنين التائبين المتبعين لسبيل الله سبحانه، قال عز من قائل:

[illegible] (٧) [illegible] (٨) [illegible] «(١)

---

(١) رواه الترمذي في سننه (١١/٥) رقم (٣٥٣٧)، وابن ماجة (١٤٢٠/٢) رقم (٤٢٥٣)، وأحمد في المسند (١٣٢/٢).

(١) سورة غافر، الآيات من (٧) إلى (٩).

تدل هذه الآيات الكريمات من سورة غافر على مكانة المؤمنين وشرفهم، فهم أهل التوبة إلى ربهم دائما وهم المتَّبِعون لسبيله، وهم الذين تعرفُهم ملائكة الرحمن الحاملون لعرشه بصفاتهم الجميلة الجليلة، وتَذْكُرُهم بهذه الصفات في الملأ الأعلى، وتدعو الله تعالى لهم بالمغفرة وبدخول الجنة والوقاية من السيئات، ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فهؤلاء الملائكة الكرام عليهم السلام يستغفرون للمؤمنين، ويدعون بالمغفرة في ذات الوقت للمؤمنين التائبين من ذنوبهم، المنيبين إلى ربهم، المتبعين ما أمرهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات.

إن العلاقة بين المؤمنين وبين الملائكة علاقة وطيدة، فالملائكة يفرحون بالمؤمنين ويُؤَمِّنُون على دعاء المؤمن لأخيه بظاهر الغيب كما ثبت في الحديث الصحيح: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك مثله»(١) وذلك دليل واضح وبرهان ساطع على شرف المؤمن ومكانته عند الله تعالى، فهو مذكور في الملأ الأعلى بإيمانه، وتذكره أشرف وأكرم طبقة في الملائكة، وهم طبقة الملائكة الذين يحملون عرش الرحمن وهذا دليل على أن إيمان المؤمن هو الذي يصله بهؤلاء الملائكة الكرام – عليهم السلام -، فالمؤمن مخلوق من تراب، والملائكة مخلوقون من نور، ومع ذلك فإن هؤلاء

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٩٤/٤)، رقم (٢٧٣٢).

الملائكة يدعون للمؤمنين بكل ما يسرهم ويسعدهم. ودعاؤهم هو أحد مهامهم الثلاث التي يقومون بها بأمر الله تعالى، ومعنى ذلك أنهم ومن خلال هذه المهام: مسبحون لله، مؤمنون به، مستغفرون للذين آمنوا؛ لا يغفلون عن ذلك ولا يفترون عنه.

وإنه لأمر جليل جدير بالتأمل والتدبر أن يكون من بين مهام هؤلاء الملائكة الكرام – وهم أعلى وأشرف طبقة في الملائكة – استغفارهم للمؤمنين مع بعد المسافة بينهما، فالمؤمنون في الأرض، والملائكة في السماء، والمؤمنون مخلوقات أرضية ترابية، والملائكة مخلوقات علوية نورانية، فما هي العلاقة بينهما مع بعد المسافة بينهما واختلاف جنسيهما؟ إن العلاقة هي علاقة الإيمان، وهي العلاقة الربانية الشريفة، المنيفة، الكريمة، وهي التي تربط المؤمنين بالملائكة في كل زمان ومكان، فالملائكة يستغفرون لأهل الإيمان في كل زمان ومكان.

قال النسفي في تفسيره: «وفيه دليل على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة، والشفقة وإن تباعدت الأماكن»(١). وإذا كان دعاء هؤلاء الملائكة الكرام بالمغفرة للمؤمنين مستجاباً - ودعاء الملائكة كله مستجاب – لأنهم في عالم الحق، فإن في بيان هذا الدعاء حثاً للعباد لأن يكونوا من هؤلاء المؤمنين لينالوا دعوات الملائكة، ولم تسترسل الملائكة في

---

(١) تفسير النسفي: (٣/٢٠٠).

الدعاء للمؤمنين بوصف الإيمان، ولكنها تابعت الدعاء للذين تابوا واتبعوا سبيل ربهم، وفي ذلك بيان لشرف التوبة وأهلها وشأنهم عند الله تعالى، وعند ملائكته الكرام الحاملين لعرشه، وهو معلم كريم من معالم السماحة والرحمة والخير في ديننا الإسلامي العظيم ،وهو معنى نبيل شريف يأخذ عمقه ومداه في وجدان ومشاعر كل تائب، وهو يخطو على طريق التوبة والأوبة، وقد فارق وإلى الأبد طريق الغي والغفلة والعصيان، وإنه لتكريم لكل تائب وهو يستشعر المعاني العظيمة المتصلة بهذا التكريم حتى لا ييأس من رحمة ربه وعفوه وفضله، فإن ضاقت به الأرض وأهلها فقد فتحت له السماوات أبوابها، وإن تنكر له أهل الأرض أو بعضهم من أصدقاء وأرحام وجيران وسواهم، فهؤلاء الملائكة - أعلى وأشرف طبقة في الملائكة - الحاملون لعرش الرحمن جل جلاله يدعون له بالمغفرة وبالوقاية من عذاب الجحيم، وبدخول جنات عدن، ليس له فقط ولكن لمن صلح أيضاً من آبائه وأزواجه وذريته، كما يدعون له ولهؤلاء بالوقاية من السيئات.

إن لدعاء هؤلاء الملائكة الأطهار لمن تاب من المؤمنين واتبع سبيل الله تعالى معاني ودلالات وأبعاداً واسعة عظيمة تعكس منهج الإسلام السديد الرشيد في التربية والتهذيب والإصلاح، وتعكس لنا خاصية هذا المنهج في الرحمة والحنان، فليس المؤمن التائب الآيب إلى الحمى والرحمة إنساناً منبوذاً أو

مكروهاً في مجتمع المؤمنين، بل هو إنسان له قيمته وشأنه عند الله تعالى وعند ملائكته عامة، وعند الحاملين لعرشه العظيم خاصة، وعند المؤمنين في كل زمان ومكان.

فيا أخي المؤمن! إن ذنباً أو ذنوباً يجب ألا تنأى بنا عن الأوبة والعودة إلى ربنا الرؤوف الرحيم، فأبوابه سبحانه وتعالى مشرعة ليس عليها بواب ولا حُجَّاب، وهو جل وعلا ينادينا بنفسه في نداء رقيق حان جميل، فيه كل معاني الحب لنا والرحمة والرفق بنا، كيف لا، وهو نداء ربنا الغفور الودود، أهل التقوى وأهل المغفرة أرحم الراحمين، وخير الغافرين، وأكرم الأكرمين نادانا ربنا لنعود إليه بقوله الكريم: ﴿ [illegible] [illegible] ﴾ (١) وبقوله عز من قائل: ﴿ [illegible] ﴾ (٢)، وهؤلاء ملائكته الكرام الحاملون لعرشه العظيم يدعون بالمغفرة للمؤمنين التائبين، فهل يعقل بعد كل هذا الخير والعطاء أن يتوقف مؤمن مذنب في طريق التوبة ولا يواصل سيره تائبا إلى ربه

---

(١) سورة الزمر، الآية (٥٣).

(٢) سورة النور، الآية (٣١).

الغفور؟ فاللهـم ألحقنا بركب التائبين إليك، العائدين إلى رحماك ورضاك يا قابل التائبين، يا من يرفق بالمتعثرين، ويرحم العصاة والمذنبين، يا أرحم الراحمين.

المعلم العاشر: من معالم الهدي القرآني في التوبة، والذي جاء البيان القرآني الكريم فيه واضحاً على أن التوبة سبب للظفر بالفلاح، قال الله تعـــــــالى: ﴿ f û éŠŸëŠè@ÂŠq[Å~Ÿ Ÿ @øÙMÈŠéŠèV ŠÑÈŠŠ ý ÑÃÌV » f û éŠ (١) ولا يشك عاقل في شأن التوبة وأهميتها وأثرها الفعال في حياة صاحبها فلاحاً ونجاحاً وتقدماً في سائر مجالات حياته الدنيوية، وهي في الآخرة سبب للظفر بالفلاح المقيم المستديم في جنات النعيم، ومن ينشد الفلاح من غير طريق التوبة إلى الله تعالى والإنابة إليه، فهو كمن يسعى وراء سراب في يوم اشتد فيه العطش والحرارة؛ قال العلامة السعدي رحمه الله: «فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا»(٢).

المعلم الحادي عشر: التوبة الصادقة النصوح من علامات الإيمان الدالة عليه في قلوب أصحابه المؤمنين، فلهذه التوبة ثمنها وتكاليفها التي لا يرومها ولا يقدر عليها إلا المؤمنون. قال الله تعالى: ﴿ ÝÝYÌ@ÛÙŠKHV

---

(١) سورة النور، الآية (٣١).

(٢) تفسير السعدي: (٣٥٩/٣).

†§é S± ‡à Vö Vñ @ ö Ü ë S Ñ ë Ú » (١) الآية. وذلك أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً كما ذكر العلامة السعدي (٢)، وقوله تعالى:

[إِلَى اللهِ] يدل على معالم الهدي القرآني الكريم في التوجيه إلى التوبة، وأنها يجب أن تكون لله تعالى، وليس لشيء سواه، توبة يعلن من خلالها التائب فراره إلى الله سيده وخالقه ومولاه ولاءً وعبوديةً، وذلاً وحباً له جل وعز، وإقبالاً عليه، وتعلقاً به، واطراحاً بين يديه، وتعظيماً لأمره كله، وحباً لكل ما يحبه، ومن يحبه، وبغضاً لكل ما يبغضه، ومن يبغضه. فهذه هي التوبة التي يصفها العلامة السعدي بأنها: «التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب التي عقدها العبد لله لا يريد بها إلا وجه الله والقرب منه»(٣). والتوبة بهذا الوصف هي البداية لكل عمل أو وصف كريم يحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولذلك فلا سبيل إلى تحصيل الأعمال الصالحة أو الصفات الحميدة إلا بالتوبة لله تعالى أولاً توبة نصوحاً.

المعلم الثاني عشر: وهو ما دل عليه قول الله تعالى: ﴿

f û é S ‰ Ö @ û è Ü Y H ‚ @ û è Y ‚ @ û é Ñ Ž @
Ç è Ü Ÿ ‚ Ü è Y • @ f û è Y ‡ Ö @ f û é Y { ‡ Ü @

---

(١) سورة التحريم، الآية (٨).
(٢) تفسير السعدي: (٣٥٩/٣).
(٣) نفس المصدر (٢٦١/٥).

Ÿ @YèŠSŸ ÜéRÉYHW@ZVl þÜè@ÝXV fû éŠ|ÜQ@V
»(١) fû kÝYèÜè@ZP ÜèV فأول صفات هؤلاء المؤمنين هي التوبة، ثم تليها صفاتهم الأخرى التي وصفوا بها وهي العبادة، والحمد، والصوم، والركوع، والسجود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله.

وإذا علمنا أن هذه الصفات الجليلة جاءت بعد حديث القرآن الكريم عن الجهاد، والذي هو ذروة سنام الإسلام، وهو الدرع الواقي له، تبين لنا قيمة وشأن هذه الصفات وأصحابها؛ والجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعٍ إلى القتال، إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال، والمؤمنون الذين اشترى الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد معهم البيعة، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تمثلت فيهم صفات إيمانية أصيلة، والتوبة هي أولى هذه الصفات، بل إنها البوابة التي يدخل منها المؤمنون إلى هذه الصفات، فهي بداية كل طريق يوصل إلى الله تعالى، وترتيب هذه الصفات في الآية الكريمة في الذكر جاء بناء على ترتيبها في الوجود، فالتوبة هي العودة إلى الله تعالى والإنابة إليه من كل ما سلف مما كان سبباً في الحيلولة دون وصول العبد إلى طريق الأوبة إلى سيده ومولاه، والتوجه إليه والإقبال عليه، يصحب ذلك عمل صالح يتحقق به معنى التوبة بالفعل، كما تحقق بالترك، فهي خلوص وطهارة، وزكاة وتوجه

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٢).

وصلاح ظاهراً وباطناً، وهي بداية الطريق ونهايته، وتأتي باقي الصفات مؤسسة على صفة التوبة، فليست صفات العبادة، والحمد، والصوم، والركوع، والسجود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله إلا لمن أخلص وتطهر وتزكى بتوبته ظاهراً وباطناً، إذ كيف يمكن تصور وجود تلك الصفات بدون هذه التوبة التي نعني بها التوبة في مجالها الواسع الفسيح والتي لا يستغني عنها أحد من خلق الله المكلفين.

المعلم الثالث عشر: أن التوبة فيها الخير كله ظاهره وباطنه، عاجله وآجله، قال الله تعالى: ﴿[illegible]﴾ (١) الآية، فالخير في هذه الآية عام. قال العلامة السعدي: «لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة»(٢). وبالمقابل فإن التولي عن التوبة والإعراض عنها سبب الخسران والشقاء والعذاب ظاهراً وباطناً إذ كيف تحصل السعادة والخير لمكلف ينطوي على نفس كافرة بالله تعالى وبرسوله أو نفس منافقة، أو متمردة على دين الله الذي أنزله على رسوله بأي صورة من صور التمرد، ولذلك كان البيان القرآني واضحاً في آخر هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ قال الله تعالى: ﴿[illegible]
[illegible]

---

(١) سورة التوبة، الآية (٧٤).

(٢) تفسير السعدي: (٢٦٠/٢).

ÙÚÝWÞÙÚVWÙV, ÙW ÙYLk X»[1]، قال العلامة السعدي في تفسيره: «وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى فثم أصناف الشر والخسران والشقاء والحرمان»[2]. والعبرة في الآية الكريمة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المعلم الرابع عشر: المُعْرِض عن التوبة، التارك لها ظالم ، قال تعالى: ﴿ÙVÚÝYÞØWS ô pÊRÈÖM I D ŠØ@ Ö ÏÕÒÈÚÜ»[3]، وإذا كانت التوبة سبباً للظفر بالفلاح كما بينا في المعلم العاشر، فإن تركها ظلم، وتاركها ظالم، قال العلامة السعدي: «فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب وتائب مفلح، ولاثم غيرهما»[4]، وقال صاحب تفسير (روح البيان) الشيخ إسماعيل حقي: «وفيه دلالة بينة على أن الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظلمة، فلابد من توبة نصوح من جميع القبائح والمعاصي، ولاسيما ما ذكر في هذا المقام»[5].

وقول الله تعالى: ﴿ÙVÚÝYÞØWS ô pÊRÈÖM I D ŠØ Ö@ ÏÕÒÈÚÜ»[1] الآية، جاء الخطاب فيه للمؤمنين بعد الإيحاء بالقيم

---

(١) سورة التوبة، الآية (٧٤).

(٢) تفسير السعدي: (٢٦١/٢).

(٣) سورة الحجرات، الآية (١١).

(٤) تفسير السعدي: (٧٨/٥).

(٥) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: (١٢٢/٥).

(١) سورة الحجرات، الآية (١١).

الحقيقية في ميزان الله، وبعد استجاشة شعور الأخوة بل شعور الاندماج في نفس واحدة، تستثير معنى الإيمان وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم؛ لأن فقدان هذا الوصف يعنى الانسلاخ من الصفات النبيلة التي تنبني على هذا الوصف الكريم، وذلك يؤدي إلى الوصف بالظلم، والظلم أحد التعبيرات في القرآن عن الشرك [١]، وفي ذلك تهديد لمن يتولى عن التوبة ويعرض عنها، والعبرة في الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المعلم الخامس عشر: أن التوبة من أسباب حصول الحياة الطيبة المستقرة التي تفيض بالنعم والخيرات الظاهرة والباطنة، والتي يُمَكَّن فيها لأهل الفضل؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [٢]، قال العلامة السعدي تفسيراً لهذه الآية: «[وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ] عما صدر منكم من الذنوب [ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ] فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإنابة، والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه و يرضاه، ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: [يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا] أي يعطيكم

---

(١) في ظلال القرآن: (٣٣٤٥/٦).
(٢) سورة هود، الآية (٣).

من رزقه ما تتمتعون به، وتنتفعون [ØÙÒÓÔÕÛÖ–ÑØÙ×] أي إلى وقت وفاتكم [وَيُؤْتِ] معكم [ÙÚÛÜ ÝÞßàá÷âãä] أي يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره ما هو جزاء لإحسانهم من حصول ما يحبون ودفع ما يكرهون»[1].

والقرآن الكريم يبين ويؤكد بهذا حقيقة من حقائق الوجود الثابتة التي لا تتخلف، والتي تتصل بحياة الناس، وهي أن هذه الحياة لن تكون حياة مستقرة مباركة عامرة بالخيرات ظاهراً وباطناً، يؤتى فيها كلُّ ذي فضل فضلَه إلا بأن تقوم هذه الحياة على أساس العبودية لله تعالى، التي من مظاهرها الاستغفار والتوبة بمعناهما الواسع الشامل، فلا سبيل إلى هذه الحياة إلا بالاستسلام لله والتوبة إليه، توبة تنعكس آثارها على مظاهر الحياة كلها، وكلُّ سبيل أو عمل إلى تلمس هذه الحياة على غير الحقيقة الخالدة الباقية التي بيَّنها القرآن هو نوع من العبث والضياع، بل إن النتيجة لمثل هذا العمل معلومة محتومة بنص الحقائق القرآنية الغالبة الخالدة الباقية، ومن هذه الحقائق قول الله عزوجل: ﴿
†ÚÛÜÝ ÞßàáâÁ ´ ÅÆÇØÑÈµ ÅÉÊ†ËÌÍÎÏ †ÐÑÒ †ÓÔÕ@ÖØ×Ù
ÔÕÖ ×ØÙÚ ÛÜÝÞ ßàáâã@äåæç÷ Ÿ_ÏŠ ØÙÚÛØS| ÜÝÞßà
ÏŠÜÙ ÚÛÜÝ ÷ÞßàáÝ Ýâãä ð³ ÅÆÇÈÉÊË (٩٦) øÙÚÛ-ÜÝ,ÞßàV
ÚÛÜÝ (٩٧) øÙÚÛÜÝÞßàáâ@ãäåæçè ŠŠS ÍÎÏ†_ÑÞßà áâã-ÅÚÛ

(١) تفسير السعدي: (٢/٣٤٠).

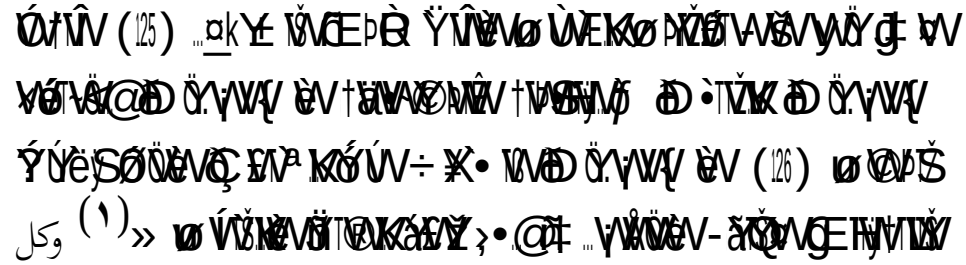

وكل مجتمع مسلم في الماضي والحاضر يعرف صدق هذا القول الكريم، ويرى أثره حقيقة ساطعة في حياته في حالي سرائه وضرائه. وعلى وجه الخصوص في حال ضرائه، ولكن ما أقل المعتبرين؛ قال العلامة السعدي: «ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النُّهَى، أي العقول السليمة، والفطرة المستقيمة والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي»(٢).

المعلم السادس عشر: أن التوبة مع الاستغفار يحصل بوجودها نزول الغيث النافع المدرار، وحصول القوة في جانبها المادي والروحي، وهي في جانبها المادي. وجود المال والرجال، وفي جانبها الروحي طهارة النفوس وسلامة القلوب وصحتها، وذلك هو مطلب المجتمعات السلمية في كل زمان ومكان. قال الله تعالى: ﴿

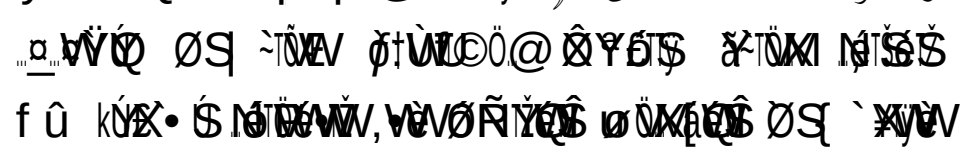

---

(١) سورة طه، الآيات من (١٢٣) إلى (١٢٧).

(٢) تفسير السعدي: (٢/٢٢٦).

»[١].

إن الحياة فوق ظهر الأرض لا قيمة لها بدون الماء؛ قال تعالى: ﴿ [illegible] «[٢] ومادام الماء هو الذي يشكل عنصر الحياة فوق الأرض، فإن حاجة المخلوقات – ومنها الإنسان- حاجة ماسة إليه. فانعدام الماء بالكلية يعني الموت للإنسان والحيوان والنبات، ويعني التصحر للأرض والجفاف المميت، أي أنه باختصار يعني نهاية الحياة وجمالها، وبريقها، ونضارتها، وقلة الماء تعني المعاناة والتعب والشدة والضنك؛ والماء علاقته بالمؤمنين علاقة وطيدة بداية ونهاية، فيغسل المولود بالماء بعد ولادته مباشرة، ويغسل المؤمن بعد وفاته غسلاً شرعياً بالماء الصافي المطلق من كل ما يغيره، والماء هو وسيلة المؤمن للوضوء والغسل الشرعي، ولهذه المعاني وسواها-فيما نرى، والله أعلم بمراده من كلامه – جاء تقديم ذكر إرسال المطر المدرار؛ لأن لهذا التقديم دلالات واسعة ومعاني تتصل بحاجة الخلق إلى الماء حاجة لا تصح حياتهم إلا بها، وكثير من الأمم تدفع مئات البلايين اليوم لتؤمن حاجتها من الماء، وحقائق القرآن الغالبة الخالدة الباقية تبين أن الذي يرسل المطر المدرار النافع هو الله تعالى وهو سبحانه الذي يحجب هذا المطر، وذلك لحكم جليلة بليغة تتصل

---

(١) سورة هود، الآية (٥٢).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (٣٠).

بحقائق هذا الوجود الذي جعله الله تعالى مرتبطا بها ارتباطا لا انفكاك منه، ومن هذه الحقائق ما جاء في هذه الآية الكريمة من سورة هود والتي بيَّن فيها الحق سبحانه وتعالى أن الأمة التي تتطلع إلى الحياة الجميلة بجمال الغيث المرسل من الله تعالى رحمة منه الحياة التي تكون فيها الأرزاق دارة برحمة من أرسل المطر المدرار المتواصل في عطاء وفائدة وجمال، عليها أن تطلب هذه الحياة ممن يملكها بالاستغفار والتوبة، بما يدلان عليه من معاني العبودية لله، والولاء والطاعة له، والإقبال على أمره كله وتعظيمه بغاية الذل والحب والاهتمام والاغتمام، والفرار إليه من كل ما سواه.

إذا كانت حقائق القرآن الغالبة الخالدة تبين أن سبيل تحصيل الحياة المتصفة بالخير والقوة يبدأ من بوابة الاستغفار والتوبة، بما يدلان عليه من معاني واسعة تشمل حركة المؤمن في الحياة، وصلته بربه، وبالمخلوقات الأخرى، وذلك دليل بيّن واضح على خطر وأثر الاستغفار والتوبة في الحياة، وحصول القوة فيها، فينبغي أن يفهم أن المقصود من الاستغفار والتوبة ليس مجرد ترديدهما باللسان، وإنما المقصود منهما ما يدل على ترك كل ما يغضب الله تعالى من شرك ونفاق ومعاصي، والانخلاع من ذلك كله انخلاعاً كاملاً إيماناً بالله تعالى وعبودية وطاعة له، واتباعاً لشرعه القويم ونبذ ما عداه.

والاستغفار من الشرك والمعصية هو دليل حساسية القلب وانتفاضه، وشعوره بالإثم ورغبته في التوبة، والتوبة بعد ذلك هي الإقلاع الفعلي عن الذنب، والأخذ - في مقابله - في أعمال الطاعة، ولا توبة بغير هذين

الدليلين، فهما الترجمة العملية للتوبة وبهما يتحقق وجودها الفعلي الذي ترجى معه المغفرة والقبول.

والمتأمل في الوعود الربانية الكريمة في القرآن الكريم بسعة الحياة، وإدرار المطر، وحصول القوة وغير ذلك، مما يريده الناس في حياتهم يتبادر إلى ذهنه سؤال حول علاقة الاستغفار والتوبة بهذه الأمور التي تجري فيها سنة الله تعالى وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود، من صنع الله ومشيئته، والجواب يأتي من ناحية أن العلاقة بين القيم الإيمانية والأحوال الظاهرة في الحياة علاقة أكيدة، أكدتها نصوص قرآنية كثيرة، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ [illegible] »(١)، وقوله سبحانه: ﴿ [illegible] »(٢)، وقوله جل من قائل: ﴿ [illegible]

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٧).

(٢) سورة طه، الآيتان (١٢٣، ١٢٤).

IÊSQVÆÊV £pÅSÿY uü »[١] فليس هذا الكون بما فيه من مخلوقات خلق عبثاً، أو هملاً، ولكنه وُجِد لحكمة، وخلق فيه الجن والإنس لغاية عظمى، تكون سعادتهما أو شقاوتهما في الدنيا والآخرة على قدر تحقيقهما لهذه الغاية في الحياة، أو تفريطهما فيها. قال تعالى: ﴿ †ÚèV ô@fÉÍÑŽV ÆÉVÚY ß,ÆXÏõ ,ÜèŸSÅ÷W »[٢]؛ ولننظر من قريب في تأثير القيم الإيمانية في واقع حياة أصحابها، فسنرى أن زيادة القوة الأمر فيها قريب ميسور، بل واقع، فإن نظافة القلب والعمل في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة، وصحة الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق، وراحة الضمير وهدوء الأعصاب، والاطمئنان إلى الله تعالى والثقة برحمته في كل آن، والإحساس بنصرة الله وعونه، وأُنْس النفس بذلك أُنْساً يتجدد مع الليالي والأيام قوة وزيادة، كل ذلك من شأنه أن يبعث قوة في النفس تتحدى بها صعاب الدنيا وأهوالها، وليست هذه القوة التي في نفوس المؤمنين تشبه قوة المجتمعات غير المؤمنة، فقوة هذه المجتمعات قوة مادية ظاهرة لا تستمد وجودها من دين صحيح، وليس الدين الصحيح إلا دين الإسلام العظيم فحسب، فهي قوة لا تستند إلى أساس ركين إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية، كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج، وهذه الأشياء

---

(١) سورة الليل، الآيات من (٥) إلى (١٠).

(٢) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

وحدها لا تدوم؛ لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين.

ونزول المطر المدرار يتم بأمر الله تعالى، وفق سننه في كونه، والله تعالى وحده هو الذي يرسل المطر مدراراً على قوم، ويجعله شديداً مدمراً على آخرين، وفق إرادته سبحانه وتعالى، فهو بقدرته يتصرف في السنن الكونية فهو خالقها وخالق الأسباب التي توجدها، فمشيئته المطلقة هي التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس، وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء وحيث شاء، وذلك بالحق الذي قامت به السماوات والأرضون، فلله في ذلك الحكمة البالغة، والقدرة الكاملة، والعزة الشاملة لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير.

المعلم السابع عشر: أن الاستغفار مع التوبة سبب لحصول الرحمة والود من الله تعالى، ولحصول القرب والإجابة منه سبحانه، فهو جل وعلا الرحيم بعباده المستغفرين التائبين الودود لهم، القريب منهم المجيب لدعائهم؛ لأنهم تركوا كل ما يغضبه وانخلعوا بالكلية منه وأنابوا في صدق إليه، فهو سبحانه لا يرد من آوى إليه وأناب ولو كان كافراً أو منافقاً؛ قال تعالى: ﴿ [illegible]

[illegible]

[illegible]

»[1]. وقـــال ســـبحانه: ﴿@ ª VÅ pÝ ŠeV ÒW | SØRØQ ŠèŠ M
ÏX ÜÖ ¨ Ö ÒQ ø oV S ~ Wg ÈV Sè b» [2].

قــال العلامــة الســعدي في تفســير الآيــة الأولى: «أي خلقكــم منهــا واستخلفكم فيهـا وأنعـم عليكم بـالنعم الظـاهرة، ومكَّـنكم في الأرض تبنـون وتغرسون وتزرعون وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك فلا تشركوا به في عبادته»[3]، ويفسر رحمه الله الأمر في الآية بالاستغفار، بأنه الاستغفار مما صدر منكم من الكفر والشـرك والمعاصـي بـالإقلاع عنهـا، ثم بالتوبـة إلى الله توبـة نصـوحاً، وإنابـة صادقة إليه سبحانه، فهو قريب ممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة يجيبه بإعطائه سؤاله وقبول عبادته وإثابته عليها أجل الثواب، ويقـول رحمـه الله: «واعلـم أن قربـه تعـالى نوعـان: عـام وخـاص؛ فـالقرب العـام: قربـه بعلمـه مـن جميـــــع الخلـــــق وهـــــو المـــــذكور في قولـــــه تعـــــالى: ﴿VèŠ SÝ WÎ £ ‡ÚÜ Ÿ ã Ú ÝV Š ‰ Ø@ VÜ ÿ Ÿ» [4] والقـرب الخـاص: قربـه مـن عابديـه وسـائليه ومحبيـه وهـو المـذكور في قولـه تعـالى: ﴿@ ª SŸ

(١) سورة هود، الآية (٦١).
(٢) سورة هود، الآية (٩٠).
(٣) تفسير السعدي: (٣٦١/٢).
(٤) سورة (ق)، الآية (١٦).

ÆVÕÂK@V ‡ « (١) وفي هذه الآية —أي آية سورة هود- وفي قوله: ﴿ÕÑ‡V
VÕÑÕ ÐÕ ‰Y ÷VÆÆVø ÆÆÆVø ÂÆVÆ ÇR~Y ¥~ ñVÆÆÆ@ ÕÔ Ä
IÆÕVVÆ ÆÕ « (٢) وهـذا النـوع قـرب يقتضـي ألطافـه تعـالى، وإجابتـه لدعواتهم، وتحقيقه لمرادهم ولهذا يقرن باسمه(القريب) اسمه (المجيب) (٣).

وجاء الأمر بالاستغفار مقدماً على الأمر بالتوبة في هذه المواضع لا في غيرها، والاستغفار في هذه المواضع يقصد به ترك ما كان عليه المخاطبُون من الشرك، فقد جاءت الآيات في ذلك في معرض الحوار بين أنبياء الله هود، وشعيب، وصالحٍ، وبين أقوامهم الكافرين حيث أمروهم بالاستغفار، ثم بالتوبة التي تعني الإنابة إلى الله تعالى، فهل هذا الترتيب في الذكر تترتب عليه ضرورة الترتيب في الوجود، بمعنى أنه لابد من الاستغفار أولاً ثم بعده التوبة من سائر الذنوب والمعاصي، سواء كانت شركاً أو غيره؟ والعبرة — في تلك الآيات في المواضع الأربعة — بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والجوابُ أن تقديم الاستغفار على التوبة في تلك الآيات لا يدلُّ على ضرورة الترتيب في كل حالٍ، فقدْ ورد في القرآن الكريم تقديم الأمر بالتوبة على الأمر بالاستغفار، وذلك في قوله تعالى: ﴿ÆÆÕ ÕVÆÆÆ é û f

---

(١) سورة العلق، الآية (١٩).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٦).

(٣) تفسير السعدي : (٣٦١/٢).

ومعنى ÏÍÙÆ@ ø@ ŸÙÆ ÿÙÖÆ ÅpÝŠÉ èÆÍÙ5 @ÍÙ8 ÆÅÉÊéÇÖÆ Ÿ~y «(١) هذه الآية الكريمة هو الأمر، وإن كان ظاهرها الإخبار، فهي في معرض الحديث عن الكافرين القائلين بأن الله ثالث ثلاثةٍ، فقد جاء قبلها قول الله تعالى: ﴿ ŸÑÏ9 ÉÆÉÆ@ÿÅÝŸÝÏÙ†ÍÙÖÆÍÍ ÙÆÉÆ@ ÛÙ ÙÆØÏ†ÿÙ ñ ÙÆÏ†ÿÙ ÙÙ èÆÏÍÙ@ ÈÉKÆ ÈÍÙ.ÆÇŸ ÆÙÜÍÙÆ ÿÝÿÝÆ ÉSÆÏÙÆ ÉÆÍÙ† Æ Ù ÉSÙ éÉÇÛ Ù f ÙÇÏÆÙ@ÖÆ ÏÝÿÙÏ f ÙÆ ÏÉÆ ÉÆ ÈÝ ÉÆÏÙÍ ÙÆÏ Ç ÿÉÆ }‡ Ÿ~ÖÆÙ «(٢) وجاء الأمر بالتوبة والاستغفار لهؤلاء الكافرين بصيغة العرض والتحضيض، لا بصيغة الأمر المباشر دليلاً على مدى سعة رحمة الله وفضله وإحسانه؛ قال العلامة السعدي: «وصدَّر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو غاية اللطف واللين في قوله: ﴿ÍÙÆÇ ô ŸÉSÆÊ éÇ û f ÏÍÙÆ@ ø@ Ÿ]»(٣). والتوبة هنا تعني الرجوع عن هذا الكفر، والإقرار لله تعالى بالوحدانية، ثم يأتي الاستغفار عما صدر من هؤلاء في حق الله تعالى فهو الغفور الرحيم، ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأن التوبة في القرآن الكريم ترد مراداً بها التوبة من الشرك، كما تردُ مرادًا بها غير ذلك من الذنوب، وذلك يمكن القول به في الاستغفار أيضاً.

---

(١) سورة المائدة، الآية (٧٤).

(٢) سورة المائدة، الآية (٧٣).

(٣) تفسير السعدي: (١/٤٩٥).

المعلم الثامن عشر: أن التوبة مع إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، تعصم دم المشركين وتستوجب عقد أخوة الدين معهم؛ قال الله تعالى: ﴿

AV¥/ŠaÖØŒ@ÙÓV@ÉìÉé@¸Qaé~Šy ﴾(١).

وقـال سـبحانه: ﴿ AVŽ@ÙÜŽÖ@ÙŽÙ@ÙŽÙÙÙ@ÙŽÖ‡Ù@ÙÙ@ÙÙÙ@ÙŽÙ‡ÙÙ@ÙÙÙÙ
@ÙÙVŽ{@ÙŽÙÙÙÙ@ÙŽÙÙÙ@ÙŽÙÙÙ@ÙŽÙÙÙ@ÙÙÙ@ÙÙÙ@ÙÙÙ@ÙÙÙ@ÙÙÙ@ÙÙÙ@ÙÙx
AVŽÙÙÙÙÙ ﴾(٢). ففي الآية الأولى: بيّن الله تعالى حكمه القاطع العادل في حق المشركين بعد البراءة من المشركين: أنهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم يقتلون حيث وجدوا، ويؤخذون ويحصرون، ويقعد لهم في كل مرصدٍ تشديداً وتضييقاً عليهم، ولكنهم إذا تابوا من شركهم ودخلوا في دين الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فيخلى سبيلهم، ويعصم دمهم بالإسلام، فهم بالإسلام مثل المسلمين في الحقوق والواجبات، والله تعالى غفورٌ رحيمٌ يقبل التائب إليه من الذنوب كلها سواءٌ كانت شركاً أو غيره. فهو وحده غافر الذنب وقابل التوب. وفي الآية الثانية: بيّن الله تعالى حكمه العادل القاطع في هؤلاء المشركين الذين لا يرقبون في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمَّة بأنهم لا عهد لهم عند الله وعند رسوله، فهم المعتدون الظالمون بشركهم، ولكنهم إذا تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، أي إذا دخلوا في دين الإسلام، فإن هذه التوبة مع ما يتبعها تستوجب عقد أخوة الإسلام معهم، لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

ولكن لماذا كان إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من شروط التوبة في حق

---

(١) سورة التوبة، الآية (٥).

(٢) سورة التوبة، الآية (١١).

هؤلاء المشركين؟

والجواب على هذا التساؤل: أن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة هما المعلمان اللذان يدلان على صحة إيمان هؤلاء، فإقام الصلاة دليلٌ على أن صاحبها ليس كاذباً في إيمانه، وإيتاءُ الزكاة دليل على صدق النية، فيما بذل فيه، ودليلٌ على محبة مجتمع المؤمنين، فإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ورد ذكرهما في القرآن كثيراً مقترنين بالمؤمنين.

المعلم التاسع عشر: أن التوبة تدرأ الحد قبل القدرة على الصائل قال الله تعالى: ﴿ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] (٣٣) [illegible]
[illegible] ﴾(١)

وهاتان الآيتان في سورة المائدة يتصل حكمهما بالمحاربين لله ولرسوله ، وهم الذين يعيثون في الأرض فساداً بالكفر والقتل وأخذ الأموال وإخافة السبيل. قال العلامة السعدي: «والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي، فيغتصبون أموالهم

---

(١) سورة المائدة، الآيتان (٣٣، ٣٤).

ويقتلونهم ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها فتنقطع بذلك، فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم عند إقامة الحد عليهم أن يُفْعَلَ بهم واحدة من هذه الأمور»(١).

ولكن الحدود في الإسلام ليست تشفياً أو انتقاماً، ولكنها ردع وتربية، وهي ليست تصفية جسدية، ولكنها إيقاف للاعتداء وللشر في شتى صوره وأشكاله، حتى يتطهر المجتمع من الشر والإثم والعدوان؛ والإسلام العظيم هو دين الأمن والأمان، والمؤمنون هم الذين يقيمون حياة الأمن والأمان ويبذلونهما للآخرين، وقطع الطريق وترويع الآمنين جرمٌ عظيم جعلت عقوبته في الإسلام رادعة؛ لأنه لا معنى للحياة عند فقدان الأمن، والإسلام العظيم هو دين الرحمة والهداية والتهذيب والتربية والإصلاح، جعل الباب مفتوحاً أمام هؤلاء المحاربين ليعودوا إلى الله تعالى بالتوبة من هذا الجرم قبل أن يقدر عليهم، وفي ذلك بيانٌ لمدى ما يتسم به هديُ الإسلام العظيم من حكمة ورحمة، فإن في فتح باب التوبة أمام هؤلاء - قبل القدرة عليهم - تقليلاً من هذه الجريمة وإضعافاً لها، ودليلاً على مدى سعة رحمة الله ومحبته للتوبة حتى من هؤلاء المجرمين المحاربين قبل القدرة عليهم. فسبحانه من رب كريم عظمت مغفرته.

المعلم العشرون: أن التوبة سبب لصلاح الذرية، وأنها مما يتوسل به بين

---

(١) تفسير السعدي: (٤٦٨/١).

يدي الله تعالى لحصول هذا الصلاح، قال الله تعالى: ﴿[illegible]﴾(١) إن هذه الآية الكريمة تبين أن مرحلة تمام النضج واكتمال العقل عند الإنسان المسلم السوي، عند بلوغ سن الأربعين يمثل في حياة هذا الإنسان دخول مرحلة جديدة تختلف عما سبقها، فهي مرحلة التبصر والاعتبار والتفكير فيما مضى وفيما سيأتي، وقبل هذه المرحلة يكون غالب تفكير المرء فيها يتصل بذاته حيث القوة، وفتوة الشباب، أما بعد دخولها فإن التفكير يغلب عليه طابع المسئولية تجاه الآخرين، من والدين وأسرةٍ وذرية، فيذكر الإنسان نعم الله عليه، وعلى والديه مع الاهتمام بصلاح الذرية، وتوديع حياة العبث واللهو مع الميول إلى التفكير الإيجابي، والتوبة إلى الله تعالى وإسلام الوجه له سبحانه؛ كل ذلك وسواه من سمات مرحلة الأربعين سنة حين يبلغها الإنسان المسلم السوي.

وفي قول الله تعالى: ﴿[illegible]

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (١٥).

ÜÃÏ~ˆ ÐÌÃÏÑ ø ÝÓ@≈ÜÕ©ÙÛÃÜ ﴾(١) بيـانٌ لأحـد معـالم الهـدي القرآني في التربية والبناء للفرد المسلم ولذريته. إن صلاح الذرية مطلب كل إنسان صالح، وكل مجتمعٍ صالح، وكل أمةٍ صالحة، وإن الغاية من التربية الإسلامية هي إيجاد الإنسان الصالح ليكون نواة المجتمع الصالح الذي يعرف الله تعالى فيعبده ولا يشرك به شيئاً، ولا تصلحُ المجتمعات والأمم إلا بصلاح الأفراد، والأمم الجادة دائمة التفكير في إعداد مناهج تربوية، تراها صالحة لبناء أفرادها بناءً يدل على أصول هذه التربية ووسائلها، وهي تحمي هذه المناهج بكل قوةٍ، وتيسر لها كل سبل الحماية الممكنة حتى لا تخترق من طرف مناهج أخرى لأممٍ أخرى، وحتى لا يصبح أبناؤها عبيداً لتلك المناهج الأخرى.

والمعركة بين أمم الأرض اليوم، لا تعدو عن كونها معركة تربية، ومنهج لهذه التربية. وعن طريق التبعية لمنهجٍ ما من هذه المناهج يتم استعباد التابعين له واقعياً وعملياً، وإنْ أنكر هؤلاء التابعون نظرياً وكلامياً هذه التبعية، ولا توجد أمةٌ تملك بين يديها منهجاً تربوياً قوياً صالحاً، يستمد أصول منهجيته من مصدر رباني، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إلا أمة سيدنا محمد ، هذا المنهج الذي يتميز بخصائص الربانية، والرحمة، والخيرية، والإنسانية، والواقعية، والوسطية، والمرونة والاعتدال،

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (١٥).

والوضـوح، والشـمول، والكمـال، والتمـام، والعالميـة، والبقـاء، والاسـتيعاب، والجمع بين المرونة والثبات، وهذه كلها وسواها كثيرٌ هي خصائص المنهج التربوي في دين الإسلام العظيم.

إن القرآن الكريم يبين بكل جلاء ووضوح أن صلاح الذرية يُطلبُ من الله تعالى فهو سبحانه الذي يملك ذلك ولا يملكه غيره بنص قوله سبحانه: ﴿ KV Ỹp² øŸpõ Á õYΧΚS ﴾ (١) وينبغي أن يعلم أن الدعاء بصلاح الذرية يكون مع، أو، بعد بذل الأسباب المعينة على هذا الصلاح، فالدعاء أحد هذه الأسباب، وحقيقةُ أن صلاح الذرية بيد الله وحده معلم قرآني خالدٌ ينبغي أن يعيه الآباء والأمهات وهم يؤدون دورهم في تربية أبناءهم، فبعض الآباء والأمهات يظن أنه يملك صلاح أبناءه أو أحدهم، فيتعسف لذلك ويشتط في هذه التربية، فهو يريد أن يكون هؤلاء الأبناء نسخةً مكررةً منه، أو من أحد أفراد العائلة، أو نسخة مكررة من العالم الفلاني، أو من الصديق المتفوق في مداركه، المتقدم في حياته علمياً وأخلاقياً ومادياً، وإذا ما كان الأمر الواقع غير ذلك، فإن الأب يقيم الدنيا ويقعدها غضباً، وتجده يقول: لماذا لم يكن ابني مثل ابن فلان، مع أني وفرت كل شيء متاح؟ كما أنه يقيم الدنيا ويقعدها تهديداً ودعاءً على نفسه وعلى ابنه، أو أبنائه، ونسي هذا الأب المسكين أن الأمر كله ظاهراً وباطناً،

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (١٥).

وعاجلاً وآجلاً، بيد الله جل وعز فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل إنسان ميسَّر لما خلق له، وعلى ذلك فإن حياة أبنائنا ونصيبهم في هذه الحياة، هو من قدر الله الغالب، ونحن الآباء لا نملك من ذلك شيئاً، ودورنا هو دور بذل الأسباب الممكنة تربيةً وتوجيهاً، والنتائج بيد الله تعالى، وعلى ذلك فقد تكون هذه النتائج في مستوى ما بذل من هذه الأسباب، أو أقل أو أكثر.

والقرآن الكريم يبينُ أن صلاح الذرية يستمد من الله تعالى بدعائه بتحقيق هذا الصلاح، والتوسل إليه بالتوبة إليه سبحانه، وإسلام الوجه له تعالى، وذلك يدل على خاصية المنهج الإسلامي الرشيد السديد في التربية والتوجيه والبناء، فالعلاقة بين الأب وأبنائه ليست علاقة يتسلط فيها الأب على أبنائه فيجبرهم على ما يكرهونه مما لا يحرمه شرع الله الخالد، ولكنها علاقة يؤدي فيها كل واحد من الأب وأبنائه دوره المنوط به طاعة لله وعبودية له جل جلاله، وتلك هي خاصية العلاقة بين أفراد البيت المسلم، ومن هنا فإن هدي القرآن العظيم يبين أن صلاح الأبوين – وخاصة الأب – مهم جداً في حصول صلاح الذرية، وأن التوبة إلى الله تعالى وإسلام الوجه له سبحانه من الأسباب الرئيسة التي يستعان بها على طلب صلاح الذرية من الله تعالى، وأنهما من الأعمال الصالحة التي يتوسل بها بين يدي الله سبحانه طلباً لهذا الصلاح، ومن خلال ما تقدم يمكننا أن نستشف توجيهات الهدي

القرآني في هذا المعلم القرآني الكريم، ومن ذلك: أهمية القدوة في التربية، ونستشفهُ من خلال قوله تعالى: ﴿ (١) فالذرية التي ترى أباها تائباً لخالقه، مسلماً وجهه له جل جلاله فإنها بناء على هذه التوبة وهذا الإسلام، لا ترى في شخصية أبيها إلا الاستقامة والطاعة لله تعالى، فهو بذلك أبٌ لا يقول إلا خيراً، ولا يفعل إلا خيراً، وهو مع ذلك محبٌ لذريته قريب منها، حريص على مصلحتها في فهم وعقل وتوازن في غير عنف أو جفوةٍ أو غلظة.

وما طلب من الله تعالى صلاح ذريته إلا أبٌ صالحٌ، وذلك أن طلب هذا الصلاح مما تهفو إليه النفوس الكبيرة، وتسمو إلى عليائه الهمم العالية، والدعاء مظهرٌ من مظاهر العبودية لله سبحانه، بل هو العبادة بنص قول الله تعالى: ﴿ (٢) وبنص قول النبي فيما رواه النعمان بن بشير: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ »(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله :

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (١٥).

(٢) سورة غافر، الآية (٦٠).

(١) صحيح، أخرجه الترمذي في السنن (١٩٤/٥) رقم (٢٩٦٩)،وأبوداود في السنن =

«ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء» (١).

وكم يكون الدعاء جميلاً وحسناً ومقبولاً حين يتوسل الداعي إلى الله تعالى بما يحب ويرضى أن يتوسل به إليه سبحانه، وفي هذه الآية الكريمة توسل الأب الداعي بصلاح ذريته إلى ربه بتأكيد توبته إليه، وإسلام الوجه له دليلاً على أن حصولهما من الأب يوصلُ إلى حصول صلاح الذرية، وقدمت التوبة في الذكر لأنها هي بداية الطريق لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه.

وهذا المنهج القرآني العظيم يدل المسلمين على الطريق الموصل إلى صلاح الذرية، وهو طريق التوبة وإسلام الوجه لله تعالى، ولا يتوب إلى الله تعالى توبة نصوحاً، ويسلمُ وجهه إليه سبحانه، إلا من خافه واتقاه؛ وعلى ذلك فإن التَّقِيَّ مُبَشَّرٌ من الله سبحانه بأن يجعل له من أمره يسراً. قال تعالى: ﴿[illegible]﴾ (٢) الآيــــة.

أي: يسراً في أمره كله: في نفسه، وزوجه، وذريته، وعمله، وعلمه، وكسبه وحاله كله ظاهراً وباطناً، عاجلاً وآجلاً.

فما استعين على صلاح الذرية بأحسن من تقوى الله تعالى، والتوبة

= (١٦١/٢) رقم (١٤٧٩)، وابن ماجة في السنن (١٢٥٨/٢) رقم (٣٨٢٨). وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الأرناؤوط في تحقيقه لجامع الأصول.

(١) حسن، أخرجه الترمذي في السنن (٤٢٥/٥) رقم (٣٣٧٠) واللفظ له، وابن ماجة في السنن (١٢٥٨/٢) رقم (٣٨٢٩). وحسنه الأرناؤوط في تحقيقه لجامع الأصول.

(٢) سورة الطلاق، الآية (٤).

إليه وإسلام الوجه له سبحانه؛ والحق أن التوبة لله تعالى وإسلام الوجه له سبحانه تلزمان المسلم في كل أحواله، وليس في حال طلب صلاح الذرية فحسب، وذلك يدل على مدى التلازم في العلاقة بين القيم الإيمانية، وبين حركة الحياة بكل أحوالها وأشكالها الظاهرة والباطنة، والقرآن الكريم يؤكد هذه العلاقة في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، وفي آيات أخرى كثيرة، وبالمقابل فإن التلازم في العلاقة قائم بين الانحراف عن هذه القيم، وبين حركة الحياة فيما شاهده الناس ويشاهدونه من أحوال هذه الحياة، وأشكالها الظاهرة والباطنة التي تبين خطر الانحراف عن القيم الإيمانية.

قال ابن قيم الجوزية -رحمه الله - : «وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خيرٍ، وأن أضدادهما هي الجالبة لكل شر، فما استُجْلِبَتْ نعمُ الله تعالى، واسْتُدْفِعَتْ نِقَمُهُ بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه، وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبَّب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع»(١) .

وهذه المعاني قد أدركها، ويظل يدركها كل من له قلب حي بالإيمان، أو

---

(١) الجواب الكافي : (١٧).

ألقى السمع وهو شهيد؛ وكل مسلم فطنٍ يعرف مداخل نفسه، ويحس بأثر ما كسبه، وما عملت يداه، ويجد صداه وأثرهُ ماثلاً في حياته، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر، وقد عبر عن هذه الحقيقة أحدُ أسلافنا الصالحين حين قال: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي (١)، أي أنه يجدُ أثر هذه المعصية في أخلاق وسلوك زوجته، صعوبة، وضيقاً ومخالفة، كما يجدُ أثر ذلك في دابته صعوبة.

قال ابن قيم الجوزية: «ومن تفقَّه هذه المسألة وتأمَّلها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القَدَر جهلاً منه، وعجزاً وتفريطاً وإضاعة فيكون توكله عجزاً، وعجزه توكلاً، بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة»(١).

فعلى المسلم الفطن أن يوازن بين توبته ومدى صدقه فيها، وإسلام وجهه لخالقه ومدى إخلاصه فيه، وبين ما يراه من أثرٍ في صلاح ذريته، والله يهدينا إلى صراطه المستقيم.

---

(١) نفس المصدر : (٩٥).

(١) الجواب الكافي: (١٨-١٩).

المعلم الحادي والعشرون: أن التوبة هي توفيق الله تعالى لعبده أولاً، فهي ليست بالإدعاء ولكنها بالدعاء إليه سبحانه أن يوفق عبده إليها، وذلك يكون بتوبته سبحانه على عبده ليتوب إليه، فهو سبحانه وتعالى إذا أراد

أن يتوب على عبدٍ فتح له باب التوبة ليسير فيه، قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾[1]، قال العلامة السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ [illegible] ﴾: «أي أذن في توبتهم ووفَّقهم لها، ﴿ لِيَتُوبُوا ﴾ لتقع منهم، فيتوب الله عليهم ﴿ [illegible]

(١) سورة التوبة، الآيتان (١١٧، ١١٨).

@ÖŁ$¥~ỹ ﴾ أي كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلات والنقصان ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ وصفة الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين في جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية»(١). ثم علَّق على الآيات فقال: «وفي هذه الآيات دليلٌ على أن توبة الله على العبد أجل الغايات وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده وامتن عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها»(٢).

المعلم الثاني والعشرون: أن الله تعالى خص نفسه بقبول توبة عباده التائبين، فلم يجعل بينه وبينهم في ذلك وسائط، فلا نبي مرسلاً، ولا ملك مقرباً، ولا ولي، ولا صالح، ولا أحد من المخلوقين - مهما كانت منزلته عند الله تعالى - يكون واسطة بينه وبين عباده التائبين، وفي ذلك دليل ساطع وبرهان واضح، على مدى تكريم الله تعالى للإنسان ومدى عنايته سبحانه به، ولو وكل الإنسان في هذا الأمر إلى مخلوق سواه، لانتهى أمره إلى فساد كبير وشر مستطير، كما هو الحال عند بعض الطوائف المسيحية، حيث لا تقبل توبة المذنب إلا بواسطة الكاهن أو القسيس، وذلك بالجلوس على ما يسمى بكرسي الاعتراف، حيث يعترف المذنب بكل شيء اقترفه بين يدي ذلك

---

(١) تفسير السعدي: (٢٨٥/٢).

(٢) نفس المصدر : (٢٨٥/٢).

الكاهن أو القسيس حيث يعطي هذا الكاهن عندها التوبة للمذنب نيابة عن الله حسب زعم أصحاب هذه الطوائف فساء ما زعموا، وبئس ما فعلوا، وتعالى الله عما يزعمون ويقولون علواً كبيراً.

وإنها لمكانةٌ عاليةٌ شريفة للإنسان في دين الإسلام العظيم حين يحفظ عليه أسراره وغدراته وفجراته، فلا يبوح الإنسان بها لأحد من خلق الله مهما كانت منزلته، وإنما يتوجه إلى الله خالقه والعليم بأمره كله يتضرع، إليه ويطَّرِح بين يديه نادماً على ما سلف منه، معلناً عن توبته إليه، طامعاً في مغفرته وراجياً عفوه ورحمته؛ وهو جل جلاله يتفضل بقبول توبة من تاب وأناب إليه، فهو سبحانه واسع المغفرة، ورحمته وسعت كل شيء، وكم تكون سعادة العبد المذنب حين يعلم أن ربه هو الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فذلك من فضل الله ورحمته وإحسانه؛ قال تعالى: ﴿[illegible] (٢٥) [illegible]﴾(١) وفي هذا البيان الإلهي الكريم دعوة للمذنبين في أن يأووا إلى حمى ربهم، وهذا هو وعده الصادق بقبول توبتهم والعفو عن

---

(١) سورة الشورى، الآيتان (٢٥، ٢٦).

سيئاتهم، فلا داعي للقنوط واللِّجاج في المعصية والخوف مما أسلفوا من الذنوب، فهو سبحانه يعلم ما يفعلون، يعلم التوبة الصادقة ويقبلها، كما يعلم ما أسلفوا من السيئات ويغفرها.

قال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره: «وهذا الإخبار تعريضٌ بالتحريض على مبادرة التوبة، ولذلك جيء فيه بالفعل المضارع الصالح للاستقبال، وهو أيضاً بشارة للمؤمنين بأنه يقبل توبتهم مما كانوا فيه من الشرك والجاهلية، فإن الذي من شأنه أن يقبل التوبة في المستقبل، يكون قد قبل توبة التائبين من قبل، بدلالة لحن الخطاب أو فحواه، وأن من شأنه الاستجابة للذين آمنوا وعملوا الصالحات من عباده، وكل ذلك جَرْيٌ على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب وعكسه، وهذا كله يتضمن وعداً للمؤمنين بقبول إيمانهم، وللعصاة بقبول توبتهم»(١). ثم يقول: «وابتناءُ الإخبار بهذه الجملة على أسلوب الجملة الاسمية لإفادتها ثبات حكمها ودوامه، ومجيء المسند اسم موصولٍ لإفادة اتصاف الله تعالى بمضمون صلته وأنها شأنٌ من شؤون الله تعالى عرف به ثابتٌ له لا يتخلف؛ لأنه المناسب لحكمته وعظمة شأنه وغناه عن خلقه»(١).

وفي هاتين الآيتين الكريمتين اللتين يتواصل حديثنا حولهما بيانٌ لمدى

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: (٨٩/٢٥).
(١) تفسير التحرير والتنوير : (٨٩/٢٥).

ترفق الله تعالى بالتائبين، حيث ذكرهم بوصف (العباد) دون غيره، وأضافهم إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، فهو جل وعلا الإله المعبود بحقٍ، والخلق عبيدٌ له، وهم يحملون وسم العبودية ظاهراً لكل ذي بصيرة نيرة، ولا يلغي حقيقة هذه العبودية أو يصادمها ما عليه كثيرٌ من الناس من الفسوق، وذلك أن دلائل الإلهية، والقدرة والعظمة والربوبية لله جل جلاله واضحة وضوح ضوء الشمس في رابعة يومٍ صيفي على كل جزءٍ من أجزاء هذا الكون، ومنها الإنسان، والخلق صنعة الله الخالق الكريم، والخالق الصانع يحب صلاح مصنوعه. والروعة البالغة في الدلالة على رفق الله تعالى بعباده التائبين إليه تظهر من خلال الوعد الإلهي الكريم بقبول توبتهم، وبالعفو عنهم وذلك بعدم مؤاخذتهم بما فعلوه قبل التوبة، وبزيادتهم من فضله تعالى، والزيادة هنا تشمل ما أمَّلُوه من دعائهم وعملهم وأكثرُ من ذلك، فهو سبحانه سيعطيهم من الثواب أكثر مما عملوا من الصالحات، وسائر الطاعات والقربات. وعدي الفعل (قبل) بـ (عن) مع أنه يمكن تعديته بـ (من) ونظائر تعديته بـ (من) مذكورة لمعان ذكرها المفسرون.

وهذا كله بيانٌ لسعة رحمة الله وجوده، وكمال كرمه وتمام لطفه، وعظيم رفقه وعنايته بعباده التائبين إليه وما ذلك إلا لمكانة وفضل التوبة عنده سبحانه؛ وإذا كان الله تعالى هو الذي يقبل التوبة عن عباده التائبين ويعفو عن سيئاتهم فهو جل جلاله قابل التوب لا غيره. قال تعالى: ﴿ ØŠ (|)

[illegible] ﴾(١) فالله سبحانه هو قابل التوب لا غيره، وهذه صفة قائمة بذاته عز جلاله، وهذه اللفظة ﴿قَابِلِ التَّوْبِ﴾ لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة فليس لها مشابه في لفظها، واللفظ يشعر بأن الله تعالى هذا شأنه في كل زمان ومكان، كثرت فيهما ذنوب العباد أو قلَّتْ، فهو سبحانه قابل التوب على كل حال. والروعة والجمال أن هذه الصفة لله سبحانه سُبِقَت بصفةٍ أخرى لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة وهي قوله تعالى ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ وذلك لإفادة الجمع – للمذنب التائب – بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وبين أن يجعلها محَّاءة للذنوب، كأنه لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول(٢).

لقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه بأنه العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذو الطول، وهي أوصافٌ جليلة عظيمة كريمة توسطتها صفتان هما: غافر الذنب، وقابل التوب، ولهذا التوسط معانيه ودلالاته القريبة والبعيدة، المتصلة برحمة الله تعالى بعباده التائبين. قال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره: «وتقديم ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ على

(١) سورة غافر، الآيات من (١) إلى (٣).

(٢) تفسير النسفي : (١٩٨/٣).

﴿ قَابِلِ التَّوْبِ ﴾ مع أنه مرتب عليه في الحصول، للاهتمام بتعجيل الإعلام بـه لمـن اسـتعد لتـدارك أمـره، فوصـف ﴿ÔŠÝÛÙg ßPö@ÐÈÝ‰ @ÖéÜ ﴾ تعـريض بالترغيـب وصـفتا: ﴿ÝÚ‰ãe@ŸÿŸÜ÷ g ÷Ÿ÷ @ÑéÐÖ ﴾ تعريض بالترهيـب، والتـوب مصـدر تـاب، و(التـوب) بالمثنـاة و(الثـوب) بالمثلثـة و(الأوب) كلهـا بمعـنى الرجـوع: أي الرجـوع إلى أمـر الله، وامتثاله بعد الابتعاد عنه، وإنما عطفت صفة ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ بالواو على صفة ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ -ولم تفصل كما فصلت صفتا ﴿العليم، غافر الذنب ﴾ وصفة ﴿ÝÚ‰ãe@ŸÿŸÜ÷ g﴾- إشارة إلى نكتة جليلة، وهي إفادة أن يجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعةً، وبين أن يمحو عنه بها الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها، فيصبح كأنه لم يفعلها وهذا فضل من الله»(١).

«والمراد بـ (غافر) و (قابل) أنه موصوف بمدلوليهما فيما مضى، إذ ليس المراد أنه سيغفر وسيقبل، فاسم الفاعل فيهما مقطوع عن مشابهة الفعل، وهو غير عامل عمل الفعل، فلذلك يكتسب التعريف بالإضافة التي تزيد تقريبه من الأسماء وهو المحمل الذي لا يناسب غيره هنا»(١).

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأسٍ شديد من

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : (٢٤/٧٩-٨٠).

(١) تفسير التحرير والتنوير: (٢٤/٧٩-٨٠).

أهل الشام، فسأل عنه، فقيل له: تتابع في هذا الشراب -أي شراب الخمر-، فقال عمر لكاتبه: اكتب: من عمر إلى فلان، سلامٌ عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ Øš (!) Ôÿ¥ŽŽV ĝ ŸÞÿÖ@ÅŠÿÝ (2) ġ~ÕŽŽ@ÆÿÆŽŽ@Ÿ @ÝÝ Ÿ ŸŽŽŽ@ ,ŽŽŽŽŽŽŽ,ŽÝéð Ö@÷ Ÿ ġ †ÝŽŽ@ŸÿŸŽV ġ éŽ@ÕŠÿÎŽV ŠŸ ŽŽ@ŸŽŽŠ ﴾ (١) وختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً، ثم أمر مَن عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذرني عقابه؛ فلم يبرح يرددها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع، وحسنت توبته، فلما بلغ عمرَ رضي الله عنه أمرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم قد زلَّ زلة فسددوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه(٢).

وهذه القصة تدلنا على ما كان عليه السادة الصحابة رضي الله عنهم، من تقدير للرجال والسؤال عنهم. فهذا الرجل - الذي أوقعه الشيطان اللعين في شَرَك المعصية فأدمن على شرب الخمر - كان من الرجال ذوي البأس الشديد في الحرب، ومثل هذا الرجل الشجاع لا يغفل عنهم عمر الملهَم وهو

---

(١) سورة غافر، الآيات من (١) إلى (٣).

(٢) تفسير القرطبي : (٢٩١/١٥)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١٢٨/٧).

في منصب الخلافة، فهم في ذاكرته رغم مشاغل منصب الخلافة.

إن الاهتمام بالرجال وتقديرهم لا يصدر إلا عن ذوي النفوس الكبيرة والهمم العالية، ثم إن الزلة بالذنب من أحد هؤلاء الرجال ينبغي ألا تجعله منسياً، أو مُلْغًى في المجتمع المسلم، بل على هذا المجتمع أن يذكره بكلام الله تعالى فهو أشرف كلام، والمجتمع - في قيامه بواجب التذكير- لا يجرح ولا يهجر، بل يقدر لرجاله رجولتهم وبأسهم، فهو يذْكرهم ويذكِّرهم في عبارة تتعانق زماناً ومكاناً، متناسبةً مع ظاهر الحال حانية مقدرة، واختيار عمر الوقت الذي ينبغي أن تسلم فيه الصحيفة إلى الرجل، يدل على بصَر عمر ومعرفته بأحوال النفوس، فشارب الخمر مغيب العقل، فلا معنى لأن تسلم إليه الصحيفة والحالة هذه، فلابد من الانتظار حتى يصحو من غيبوبة الخمر وبعدها تسلم إليه الصحيفة التي تحوي الموعظة العمرية؛ إن عمر t لم يوبخ الرجل في موعظته تلك أو يحقره من خلال صنيعه، بل قال له: «سلامٌ عليك، وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو»، إن اختيار الكلام المناسب للمقام يدل على فهم وعقل صاحبه، ولقد اختار عمر t آيات كريمة كانت في غاية المناسبة للمقام، فهو لم يختر آيات العذاب مثلا، حتى لا ييأس الرجل، بل كان اختياره لهذه الآيات التي جمعت بين الترغيب والترهيب، وغلب فيها جانب الترغيب إطماعاً للعباد في رحمة الله تعالى. ولقد أدرك الرجل ذلك فعبر عنه قائلاً: «قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذَّرني عقابه».

إن موقف عمر t في الاستعانة بالله تعالى بدعائه بتيسير التوبة لهذا الرجل، وأمره لمن حضر عنده بالدعاء بذلك، دليلٌ واضحٌ على مدى شفافيته ورحمته بالرعية، فإن الدعاء للأخ المسلم بظاهر الغيب دليلٌ على خيرية الداعي ورقته ورحمته وصدقه، فإن الدعاء هو خير وأعز وأبقى ما يهدى ويقدم من المسلم لأخيه المسلم، فالدعاء المقبول لا يُسْرق ولا يتقادم أو يبلى، ولا يصادر، أو يستولى عليه من أحد، ولا يتناقص مع الزمن ولا تطويه الأيام، بل يتألق مع الزمن قوة ونماءً وامتداداً وخيراً وبركةً. إن الناس وهم يتعاملون بمنطق المصالح في هذه الدنيا، قد يعطى الواحد منهم الآخر عطاءً مادياً كثيراً في شكل هبة أو دينٍ، ولكنه لا يمكن بحال أن يعطيه - صدقاً من قلبه - دعواتٍ صالحة، وذلك لأن الدعاء دليل المحبة الصادقة والود الخالص، وذلك لا مجال له في عالم التعامل بمنطق المصالح، فعمر رضي الله عنه بهذا الموقف الكريم بالدعاء لهذا الرجل بالتوبة، يؤكد موقفاً كريماً من مواقف خليفة خليفةِ رسول الله في العطف والرحمة، والعناية بالرعية والرفق بها، فرضي الله عنه وعن صحابة رسول الله جميعاً. وما أحوجنا نحن المسلمين اليوم إلى تَمَثُّل مقالة عمر التي تدل على الرفق بمن زل من المسلمين، تمثلاً يجعلنا حقاً صادقين في هذا الرفق تجاه من زل من إخواننا المسلمين، فلا نحقره ولا نعين الشيطان عليه، بل نذكِّره بما يدل على رحمتنا وعنايتنا به، وندعو الله تعالى له أن يتوب عليه؛ إنه المنهج العمري الراشد في الصلاح والإصلاح، والتوجيه والتزكية

والتربية والبناء، وهو المنهج الذي استمد أصوله من مدرسة النبوة الطاهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

إنَّ رب البَشَر جميعاً جل جلاله هو الذي وصف نفسه بأنه ﴿[illegible]﴾(١)، وهو عز وجل لم يصف هذا الذنب بأي وصف آخر فدل بذلك على أنه تعالى غافرٌ لكل ذنب مهما كان إذا تيب منه، وهو سبحانه قابل لكل توب ولا يرد من تاب إليه.

المعلمُ الثالث والعشرون: أن الله تعالى كتب محبته لعباده التائبين المتطهرين، وذلك دليل مكانتهم وشرفهم عنده سبحانه وتعالى، وذلك بسبب توبتهم وتطهرهم، فدل ذلك على مكانة التوبة والتطهر عند الله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٢) الآية، وجاء التعبير القرآني الكريم بوصف التائبين بـ (التوابين) — وهي صيغة فعَّال — دليلاً على مداومة التوبة وكثرتها، فكلما أحدثوا ذنباً أحدثوا له توبةً، وعطف سبحانه وتعالى في هذه الآية تأكيد محبته لعباده المتطهرين فقال جل وعز: ﴿[illegible]﴾ بإعادة لفظ ﴿ويحب﴾ - مع أنه يمكن أن يقال: ويحب التوابين والمتطهرين - تأكيداً لمحبة الله تعالى لعباده

---

(١) سورة غافر، الآية (٣).
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٢٢).

المتطهرين، ومحبته سبحانه للتطهر في ظاهره وباطنه.

قال العلامة السعدي في تفسير قول الله تعالى: ﴿ñ ÏBÉÈ @ÏdÖÖÒ ÿyÎ Û f﴾ أي المتنزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث، ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً؛ لأن الله تعالى يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً شرطاً لصحة الصلاة والطواف وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة والأفعال الخسيسة»(١).

والعلاقة بين التوبة وبين الطهارة والتطهر علاقة وطيدة، فإذا وجدت التوبة وجد معها التطهر الظاهر والباطن؛ وديننا الإسلامي العظيم هو دين الطهارة والتطهر، والتوبة والصفاء والنقاء ظاهراً وباطناً، والمؤمنون بدين الإسلام ظاهرهم طاهر كباطنهم، فهم ليسوا ممن يتظاهرون بالتوبة والطهارة، بينما قلوبهم قلوب الذئاب والثعالب والضباع، وكان مما تلقاه المصطفى عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل في بداية نزول الوحي عليه بغارِ حراءٍ أمرهُ العظيم له بقوله سبحانه: ﴿ÿVÿY ÿVÐ ÕÜ ÿÖ﴾ (١).

قال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره: «وللثياب إطلاق صريح وهو ما يلبسه اللابس، وإطلاق كنائي: يكنى بالثياب عن ذات صاحبها،

---

(١) تفسير السعدي: (١٥٦/١).

(١) سورة المدثر، الآية (٤).

كقول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه

كناية عن طعنه بالرمح؛ وللتطهر إطلاق حقيقي: وهو التنظيف وإزالة النجاسات، وإطلاق مجازي: وهو التزكية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (١) والمعنيان صالحان في الآية فتحمل عليهما معاً» (٢).

ومحبة الله تعالى لعباده التائبين يتبعها العزّ والرِّفعة، والحفظ والستر، والتوفيق والهداية، والرعاية والعناية، واللطف، والتيسير من الله تعالى في كل الأمور؛ كما ينشأ عنها: قوة القلب ونورانيته، وبهجة الروح، وسعادة النفس، وانشراح الصدر، وصلاح الحال والمآل والنشاط في العبادات والقربات والطاعات، ومحبة ما أحبه الله ورسوله ﷺ من الأعمال والأقوال والأحوال، والأمكنة والأزمنة والأشياء، ومحبة من يحبه الله ورسوله ﷺ من الخلق، والأنس بالنصر والتأييد من الله تعالى، والأنس بمعيته وعونه وتوفيقه، فيا له من خير وفير كثير، عاجل وآجل، ظاهر وباطن، يناله العبد التائب لمحبة الله تعالى له. والله ذو فضلٍ عظيمٍ.

المعلم الرابع والعشرون: أن توبة الكُمَّلِ الفضلاء تقترن بما يدل على

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٣).

(٢) تفسير التحرير والتنوير: (٩٧/٣).

تعظيم الله تعالى وتقديسه وتنزيهه وتسبيحه، فهم يطرقون هذه الأبواب ليعلنوا توبتهم إليه، وذلك هو ما سجَّله القرآن الكريم في شأن موسى عليه السلام حين كلمه ربه، وطلب أن يرى ربه فلم يستجب له؛ لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق في الدنيا، وأمره بالنظر إلى الجبل، وكان من شأنه ما قصه القرآن الكريم في الآية التالية: ﴿[illegible]﴾(١)

وموسى عليه السلام حين كلَّمه ربه بما كلَّمه من وحيه وأمره ونهيه، تشوَّق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه واشتياقاً لرؤيته، فأعلمه ربُّه أنه لن يقدر الآن على رؤيته، فإنه سبحانه وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤيته سبحانه، وليس في ذلك ما يدل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد تعددت النصوص في القرآن والسنة على رؤية أهل الجنة ربَّهم، وتمتعِهِم برؤية وجهه الكريم؛ لأنهم وقتها ينشئهم الله نشأة

(١) سورة الأعراف، الآية (١٤٣).

كاملة باقية فيقدرون معها على رؤية الله تعالى (١).

أما الكفار فهم ممنوعون من ذلك بنص القرآن الكريم من قول الله تعالى: ﴿ ... ﴾ (٢).

قال العلامة السعدي: ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل فقال مُقْنِعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية: ﴿ ... ﴾ (٣)، ثم قال ما ملخصه: فلما تجلى الله تعالى للجبل الأصم الغليظ انهار الجبل واندك من رؤية الله وعدم ثبوته لها، فلما رأى موسى عليه السلام ذلك خَرَّ وسقط مغشياً عليه، فلما أفاق من ذلك تبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله فموسى أولى أن لا يثبت، واستغفر ربه لمِاَ صدر منه من السؤال الذي لم يوافق موضعاً، ونَزَّه ربه وعظَّمه عما لا يليق بجلاله، وأعلن توبته بين يدي ربه جل جلاله (١).

المعلم الخامس والعشرون: أن الله تعالى إذا تاب على عبده جمع له مع

---

(١) تفسير السعدي: (١٤٩/٢) بتصرف.
(٢) سورة المطففين، الآية (١٥).
(٣) سورة الأعراف، الآية (١٤٣).
(١) تفسير السعدي: (١٤٩/٢) بتصرف.

التوبة عليه الرحمة به، وهذا من عظيم فضل الله وكرمه وإحسانه وبالغ عطائه، فهو سبحانه التواب على عباده التائبين الرحيم بهم، وهو جل وعلا توابٌ رحيم يقبل توبة من تاب إليه، ويرحمه ولا يرد عن بابه من التجأ إليه، وأقرَّ بذنوبه بين يديه وطمع في توبته ورحمته، وجاءت صفة (الرحيم) مقترنة بصفة (التواب) قبلها بالتعريف في كليهما في القرآن الكريم في ستة مواضع: منها أربعة مواضع في سورة البقرة(١)، وموضعان في سورة التوبة(٢)؛ كما جاءت صفة (تواب) مقترنة مع صفة (رحيم) بعدها بالتنكير في كليهما في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم: منها موضعان في سورة النساء(٣)، وموضع في سورة الحجرات(٤)؛ وذلك كله يدخل في باب الترغيب للعباد في التوبة إلى الله التواب على عباده التائبين إليه، فهو الرحيم بهم.

المعلم السادس والعشرون: أن إعلان التوبة لله تعالى وطلبها منه عند تمام كل نعمةٍ من نعم الله تعالى أمرٌ يستشعره المؤمنون، ويفزع إليه الأوَّابون إلى ربهم، فإن حصول النعمة عندهم وتمامها يستوجب ذلك الإعلان، لأن الذي أعطى النعمة ويسَّرها وأقدر عليها هو الله تعالى، فما شاء الله تعالى

---

(١) في الآيات رقم: (٣٧)، (٥٤)، (١٢٨) و (١٦٠).
(٢) في الآيتين رقم: (١٠٤) و (١١٨).
(٣) في الآيتين رقم: (١٦) و (٦٤).
(٤) الآية رقم (١٢).

كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿ŸÙŸÈÂšÙÂP ŸÚØ®ÑŠŸ†ÙÙV
@ Ÿ ﴾(١) وشأن المؤمنين في كل زمان ومكان أنهم يعظمون نعم الله تعالى تعظيماً لمن أنعم بها عليهم، فكل نعمة من العظيم فهي عظيمة، وإن بدت في عيون الغافلين صغيرة.

وأعظم نعم الله تعالى على عباده المؤمنين - بعد هدايتهم لدينه الحق - أن يوفِّقهم لطاعته، ويعينهم عليها، ويُطيِّب نفوسهم لحبها والإقبال على فعلها، ويشرح صدورهم بها، والسادة الأنبياء - عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام - هم خير من عرف نعم الله عليهم، وهم يعرفون عظم هذه النعم، والقرآن الكريم بين ذلك في قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام حين رفع مع ابنه إسماعيل عليه السلام القواعد من البيت: ﴿ ŒE~ÌÁ@ÝÚ ŸÝÉ ÉÝ@ñ ÎÅ.ÉÑŠÍÏÉŸV ¢ÌÂV
ñ~ÕŠ@Õ~ÙŸÓÖ@ŒE ßÍÐ ÞÅÍ†ÞÝ ÔÑÝŸ†ÝŸVÔ~ÅŸÌª ÑÂV
à†ÞÉÑ†ÞÝÑÑ ŸÝÉV Ð Ü ÑÙÕÓ †ÑÅ~@V †ÝŸV (١٢٧)
ŒE ßÍÐ ÞÅÍ†ÞÕÉVp ŠÉV†ÑÕŸ†ÑÚ†ÝŸÑÉVÐ Ÿ àÙÕÓÖ
@ÉÙ ‡@ÛÌŠ~ñ ﴾(١) فإبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - قد أكرمهما الله تعالى بنعمة رفع قواعد بيته العتيق وخصهما بهذا الشرف

---

(١) سورة النحل، الآية (٥٣).

(١) سورة البقرة، الآيتان (١٢٧، ١٢٨).

العظيم، فلما أتمَّا القيام بذلك توجها إلى الله تعالى بالدعاء بقبول العمل، كما سألاه أن يجعلهما مسلمَين له سبحانه، ولم ينسيا ذريتهما من ذلك، ثم سألاه بأن يريهما مناسك الحج وأن يتوب عليهما؛ لأنه هو التواب الرحيم.

وهذا معلمٌ قرآني كريمٌ خالدٌ في توجيه الأمة على طريق التربية الإيمانية لكي تعي هذا التوجيه، فلا تغفل عن طلب التوبة من الله تعالى، خاصة عند حصول تمام نعمةٍ من نعم الله تعالى عليها، والله تعالى وجَّه خير خلقه سيدنا رسول الله إلى أهمية التنزيه والتسبيح له جل جلاله، واستغفاره والتوبة إليه عند حصول فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وذلك هو اكتمال نعمة الإسلام؛ قال تعالى: ﴿ [illegible] (1) [illegible] (2) [illegible] (3) ﴾(١)، ولما كان مبعث التوبة الإلهية على العباد رحمة الله التي وسعت كل شيء، ناسب أن يقترن اسم الله (الرحيم – رحيمٌ) باسمه سبحانه (التواب – توابٍ) وقد جاء ذلك في مواضع تسعٍ من كتاب الله تعالى، أشرنا إليهما فيما مضى، وذلك لأن التوبة من الله تعالى تتضمن معنى الرحمة والعطف، كأن الرحمة الإلهية تبتعد عن المذنب باقترافه أسباب العقوبة، فإذا تاب عادت إليه وعطف ربه عليه.

---

(١) سورة النصر، الآيات من (١) إلى (٣).

«والتوبة تختلف باختلاف درجات الناس، فخادمك يتوب إليك من ترك ما أمرته بفعله، أو فعل ما أمرته بتركه، وصديقك يتوب إليك ويعتذر إذا هو قصَّر في عملٍ لك فيه فائدة عمَّا في إمكانه واستطاعته، وولدك يتوب إليك إذا قصَّر في أدب من الآداب التي ترشده إليها ليكون في نفسه عزيزاً كريماً، وكذلك تختلف توباتُ التائبين إلى الله تعالى باختلاف درجاتهم في معرفته وفهمهم أسرار شريعته.

فعامة المؤمنين لا يعرفون من موجبات سخط الله تعالى، وأسباب عقوبته، إلا المعاصي التي شددت الشريعة في النهي عنها، وإذا تابوا من عمل سيءٍ فإنما يتوبون منها، وخواص المؤمنين يعرفون أن لكل عمل سيء لوثة في النفس تبعد بها عن الكمال، ولكل عملٍ صالحٍ أثراً فيها يقربها من الله وصفاته، فالتقصير في الصالحات يُعَدُّ عند هؤلاء من الذنوب التي تهبط بالنفس وتبعدها عن الله تعالى، فهي إذا قصَّرت فيها تتوب، وإذا شمَّرت لا تأمن النقائص والعيوب، ويختلف اهتمام هؤلاء الأبرار لأنفسهم باختلاف معرفتهم بصفات النفس وما يعرض لها من الآفات في سيرها، ومعرفتهم بكمال الله جل جلاله ومعنى القرب منه واستحقاق رضوانه، ولذلك قال بعض العارفين: "حسنات الأبرار سيئات المقربين"، ومن هنا نفهم معنى التوبة

التي طلبها إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى آلهما الصلاة والتسليم»(١).

المعلم السابع والعشرون: يوجِّه القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية الصدقة بين يدي التوبة، لما للصدقة من شأنٍ عند الله تعالى، وهي سبيل لمرضاة الله تعالى وإطفاء غضبه على العبد، وهي كذلك سبيل إلى تطهير النفس من البخل والشح، وتعويدها على البذل والإنفاق؛ قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾(٢) الآية، والصدقة هنا تشمل صدقة الفرض (الزكاة) وصدقة التطوع، والآية تبين أن الصدقة سبيلٌ إلى تطهير المتصدقين بها من دنس البخل والطمع، والقسوة على الفقراء البائسين، وأنها كذلك سبيلٌ إلى تزكية أنفسهم، ورفعهم إلى منازل الأخيار الأبرار، وذلك يدل على عظمة المنهج الإسلامي العظيم في البناء والتربية، لأن الصدقة تطهر نفوس الأفراد من أرجاس البخل والأثرة والطمع والجشع وتبعدهم عن أكل أموال الناس بالباطل، من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك، فإن من يتعود بذل بعض ما في يده، أو ما أودعه في خزائنه في سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته ومغفرته، يكون أرفع نفساً من أن يأخذ مال غيره بغير حق.

وفي الجمع بين التوبة والصدقة في القرآن الكريم أبلغ دليل على وسطية

---

(١) تفسير المنار: (٤٧١/١-٤٧٢).

(٢) سورة التوبة، الآية (١٠٣).

المنهج الإسلامي العظيم في جمعه بين مصالح الفرد والجماعة، والمواءمة بين مطالب الروح والجسد، فالتوبة إصلاح فيما بين العبد التائب وربه، وفيها صلاح نفس هذا العبد وروحه. والصدقة إصلاح فيما بين هذا العبد وبين إخوانه المسلمين المحاويج، وفيها صلاح معاشهم، وفي الجمع بين الإصلاح والصلاح في الميدانين إشاعةٌ ونشر لهما في شتى جوانب حياة المجتمع الإسلامي. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

وفي هذه الآية الحض على التوبة والصدقة والترغيب فيهما، ومجيء ذكر الصدقة بعد ذكر التوبة دليل على أهمية تقديم الصدقة بين يدي التوبة، فالله تعالى يقبل التوبة عن عباده، ويتقبل صدقاتهم ويثيبهم عليها ويضاعف الثواب لهم.

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كلٌّ منها يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقةٍ من كسب حلالٍ فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه، فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحدٍ، كما جاء بذلك الحديث عن

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٤).

رسول الله ، كما قال الثوري ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله قال: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مُهْرَه، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحدٍ»(١)، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ÜK ÿÿÿ Åÿ ÕÚ ÌéÜ@ÙÜ ÜV éê ÿÿ Á@Ô ÜÿÐ ëŠ ÌÌÌ ÿàÆÆ ÝÆ ÿ ÿ †Yà -﴾ ﴿ ÿÿ Š Ž @ Ö Ü ÿÿ ÿÿ Ü Ö﴾(٢) وقوله: ﴿ ÿÿ ÙÜÿ Ò@ Ò@ ÿÿ Ï﴾ ﴿ ÿÿ Ö ŽÿÖ @ Ö ÿÿ Ü Ö g﴾(٣).

وبعد الحديث عن هذه المعالم بشيء من التفصيل والتي جاء الحديث فيها عن سبعة وعشرين معلماً، بقي أن نورد الحديث عن المعالم القرآنية في التوبة إجمالاً، وذلك الإجمال يشمل ما سبق وما عداه فيما يلي:

١- التوبة لا يستغني عنها أحد من البشر، فأبو البشر آدم — عليه السلام — تاب الله عليه بعد توبته، قال تعالى: ﴿ÿÿ Ýø ÿ ÿ ŠS ÝÝ ÿÿ ÌÙ ÿÛ Ü ÿÿ † Ö ÿ ÿ ÿÿÿ ÿ ÿÿ ÿ Ü @ ÿ@ Ü ÿ Ö @ ÿ ~Ø

---

(١) صحيح، أخرجه الترمذي في السنن (٣/٥٠) رقم (٦٦٢). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/٣٨٦) رقم (١٩٠٢).

(٢) سورة التوبة، الآية (١٠٤).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٧٦). وانظر: تفسير ابن كثير: (٤/٢٠٨).

﴾(١). وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٢).

٢- التوبة هي سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٤).

٣- التوبة قبل أمة محمد r كانت تتم بنوع من التكليف الشاق، قال تعالى: ﴿[illegible]

(١) سورة البقرة، الآية (٣٧).
(٢) سورة طه، الآية (١٢٢).
(٣) سورة النور، الآية (٣١).
(٤) سورة التحريم، الآية (٨).

[illegible] ﴾(١).

٤- جاء الترغيب في التوبة في القرآن من خلال محاور متعددة:

أ- وعد الله تعالى بأنه يتوب على من تاب وأصلح، قال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٢).

ب- التائب موعود بالمغفرة والرحمة، قال الله تعالى: ﴿[illegible]﴾(٣).

ج- التائب موعود بالجنة، قال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٤).

د- التائب موعود بتبديل سيئاته حسنات، ﴿[illegible]

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٥٤).

(٢) سورة المائدة، الآية (٣٩).

(٣) سورة الأنعام، الآية (٥٤).

(٤) سورة مريم، الآية (٦٠).

﴿ †Ù~¥ÖQ ¤éŠÏ£V ß @Ü†Ò¥V ÆE Ì¥ÑÁV ØŒÝÑQ ﴾ (١).

٥- في التوبة الفلاح، والتائب موعود بأنه يكون من المفلحين، قال الله تعالى: ﴿ ÏÙ‡V ‡Û ŸÁÏ¥V †™_ŸÃV ÔÙ¥V ÝÚŸéV ‡ †Ì ŸÚ ŸÎV ÙÐ ø ﴾ f û kŸ™ŸÉÙ@ÝÚ ÙéÑÙÜK ﴾ (٢)، وبالمقابل فالخسارة في الإصرار والاستمرار على الخطيئة.

٦- التوبة لا تكون من الله لعباده في حال توبتهم من الخطيئة فقط، بل تكون منه لعباده المؤمنين رفعة لهم وقبولاً، وعفواً، وتجاوزاً، قال الله تعالى: ﴿ ŸÚ Ÿ‡ ß @ŸÏ V Ÿ® @Ÿ ÷Ï¥V Ü€ V ÏŸ fÛ
ÝÚ ÙÆ ÁV Á ÝÆŸ@ fÛ ŸÝ ÙÆ ¥V ÏÁ@ ÿÙÝ
‡ †ÌŸ R ŸÝŸÚ ÜŸÁV ‡ éŸÝÎ ŸÁ ÜŸÝ ‡ ÏV ÚŸÏV
ÝÙ ¥V ÙÏ ÝÙŸ ÙÆ ÁŸÝ ŸÎÇ ~¥ÖQ ﴾ (٣)، وهي تعني توفيق الله لعبده.

٧- توبة الله على عبده هي الأساس والمنطلق لتوبة العباد، قال تعالى: ﴿ Ü ÚŸÑ Ü ÆŸÝ ÝÆÝ ÏŸ fÛ ŸÝÙÆ Ü Ï ÝÙÆÎ ÙÏ ŒE

(١) سورة الفرقان، الآية (٧٠).

(٢) سورة القصص، الآية (٦٧).

(٣) سورة التوبة، الآية (١١٧).

[illegible] ﴾ (١).

٨- التوبة من الله رحمة ولطف، قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ (٢)، وقال سبحانه: ﴿ [illegible] ﴾ (٣).

٩- باب التوبة مفتوح أمام البشر جميعاً: الكفار، المنافقين، اليهود، النصارى، المحاربين، أنواع العصاة، من يفتنون المؤمنين عن دينهم، من يرمون المحصنات، المرابين، قال تعالى: ﴿ [illegible]

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٨).

(٢) سورة المائدة، الآية (٧١).

(٣) سورة التوبة، الآية (١١٧).

[illegible] ﴾(١).

١٠- لم ينف قبول التوبة إلا مرة واحدة في كتاب الله وعلى صنف واحد من البشر؛ وهم الكفار الذين ماتوا مصرين على كفرهم، قال الله تعالى: ﴿[illegible] ﴾(٢).

١١- التوبة لا تأتي إلا بالخير لصاحبها، وفيها الخير، قال الله تعالى: ﴿[illegible] ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿[illegible] ﴾(٤).

١٢- المعرض عن التوبة ظالم، قال الله تعالى: ﴿[illegible] ﴾(١).

١٣- ملائكة الله الكرام الحاملون لعرشه تعالى تدعو للتائبين، قال تعالى: ﴿ [illegible]

(١) سورة الزمر، الآية (٥٣).
(٢) سورة آل عمران، الآية (٩٠).
(٣) سورة التوبة، الآية (٣).
(٤) سورة التوبة، الآية (٧٤).
(١) سورة الحجرات، الآية (١١).

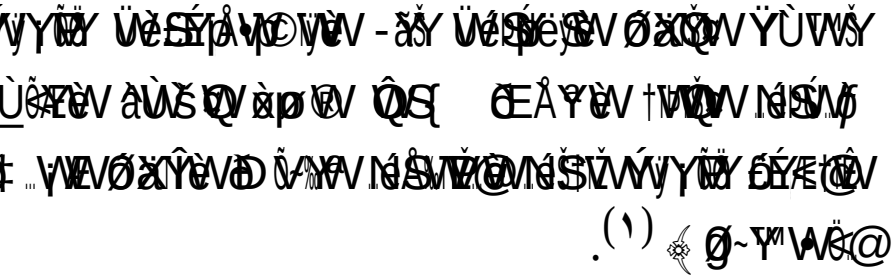

١٤- التوبة سبيل صلاح القلوب وإصغائها لسماع الحق، قال تعالى: ﴿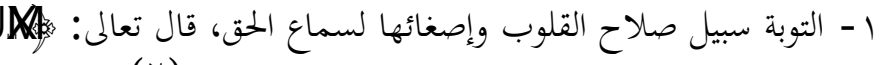﴾ (٢).

١٥- طلب التوبة هو سبيل الصالحين والمصلحين، قال تعالى: ﴿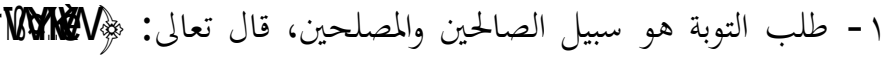﴾ (٣).

١٦- التوبة سبيل الحياة الطيبة المستقرة، قال تعالى: ﴿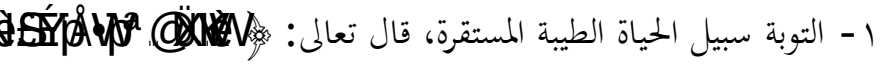﴾ (١).

١٧- وهي سبيل تحصيل القرب من الله تعالى وإجابته دعاء الغائب، قال

---

(١) سورة غافر، الآية (٧).
(٢) سورة التحريم، الآية (٤).
(٣) سورة البقرة ، الآية (١٢٨).
(١) سورة هود، الآية (٣).

تعالى: ﴿ t^ yÆÎVø ŸÖVÜKÃÝ ÜXÍdÎ ŠéŠ ǰ R šè£Ýþ¦Ŵ*ª @ÊV ﴾
t^ ~¥ ÚŠ ﴿(١).

١٨- وهي سبيل حصول القوة، ووفرة الخيرات، قال تعالى: ﴿ ¥éÎÝÑVÈV
ø¦ÙÙC© 0 @Œ¥ éÐŠ ã ÜXÍdÎ ŠéŠ ǰ RØÑŸÖVÈ Nè£Ýþ¦Ŵ*ª @
,VèVØÑ ŸÈŠ øÜXÍ{ŠÈŠ ØS{ `¥ÝVèV_¤_ ŸVÜ ØS| ~ÑÝEV
(٢) ﴾ f û kÜÝ• ŠÑéÑÈWŽV.

١٩- وهي سبيل تحصيل الرحمة والود من الله تعالى، قال سبحانه:
﴿ ø ŸÖVÜKÃÝ ÜXÍdÎ ŠéŠ ŸŠR ØS| ŸÖVÈ Nè£Ýþ¦Ŵ*ª @ÊV
(٣) ﴾ bè Šè Vç ~¥ VV.

٢٠- ليست هناك واسطة بين الله تعالى وبين عباده التائبين، فهو سبحانه الذي يقبل التوبة عن عباده، وهو جل وعلا قابل التَّوْب لا غيره، قال سبحانه: ﴿ -ãY†ÌW ŸÝVÈ ÝŠéRŸ@Ô ŸÝ ŸV÷ ŸŸ@éŠèV ﴾(١)، وقـال تعالى:
﴿ ØÃ~ÑÈVõ éŠ¥VèKèp ÐV ÝÚ ¦Ô@ŸÝ Ð ÜV ð Ì~V ﴾

---

(١) سورة هود، الآية (٦١).
(٢) سورة هود، الآية (٥٢).
(٣) سورة هود، الآية (٩٠).
(١) سورة الشورى، الآية (٢٥).

(١)، وقال عز من قائل:

﴿ Øš (1) ŽŽŽ ... (2) ﴾

÷ Y ... V

@ Ö ... S ﴾ (٢).

٢١- الله حبيب التوابين، قال تعالى: ﴿ ... V ﴾ f Û (٣).

٢٢- التوبة مرحلة إيجابية يرتفع بها التائب إلى تحصيل صفات أخرى جليلة يحبها الله تعالى ورسوله r، قال تعالى: ﴿ @ ... é û f

@ ... é û f @ ... è û f @ ... è û f

@ ... è Ç

Ž @ ... é û f

V ... f û ﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿ V ... ﴾ (٢).

٢٣- التوبة إلى الله تعالى هي الباب الذي نلج منه إلى أعمال ترضي

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٨).

(٢) سورة غافر، الآيات (١-٣).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٢٢).

(١) سورة التوبة، الآية (١١٢).

(٢) سورة التحريم، الآية (٥).

الله تعالى ورسول، وهي إن صحت جاء ما يتبعها من الأعمال والصفات الحميدة، وهي طريق التصالح مع الله تعالى، قال سبحانه:
﴿ [illegible] ﴾ (١).

٢٤- وهي تمثل فضل الله تعالى على خلقه ورحمته بهم، قال تعالى:
﴿ [illegible] ﴾ (٢).

٢٥- التسبيح لله تعالى واستغفاره يجلبان التوبة من الله، قال تعالى:
﴿ [illegible] ﴾ (١).

٢٦- التوبة الكاملة هي التوبة المصحوبة بالعمل الصالح، قال الله تعالى:
﴿ [illegible]

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٢).
(٢) سورة النور، الآية (١٠).
(١) سورة النصر، الآية (٣).

﴿مَتَابًا﴾(١).

٢٧- التوبة من الله تعالى مقرونة بالرحمة،قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

٢٨- وهي كذلك مقرونة بعفوه سبحانه، قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٤).

٢٩- التوبة مع إقامة الصلاة تستوجب فتح باب عقد الأخوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١).

٣٠- وهي أيضاً تعصم الدم، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٧١).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٠).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٨٧).

(٤) سورة الشورى، الآية (٢٥).

(١) سورة التوبة، الآية (١١).

ö@ WaãÏǾ ØSã¤ÏǾ ﴾ .(١)

٣١- التوبة تدرأ الحد قبل القدرة على الصائل، قال تعالى: ﴿ ŸwÎ) tûïÏ%©!$# (#qç/$s? `ÏB È@ö7s% br& (#râÏø)s? öNÍkön=tã ((#þqßJn=÷æ$$sù ¨br& ©!$# Ö@qàÿxî ×LìÏm§ ﴾ .(٢)

٣٢- إرادة الله تعالى في التوبة قبل إرادتك، قال تعالى: ﴿ ª!$#ur ßÌã É>qçGtƒ öNà6øn=tæ ﴾ (٣)، وقال عز وجل: ﴿ ßÌãƒ ª!$# tûÎiüt7ãÏ9 öNä3s9 öNä3tÏöktur z`oYß tûïÏ%©!$# `ÏB öNà6Î=ö7s% z>qçGtƒur öNä3øn=tæ ﴾ .(٤)

٣٣- التوبة متاحة قبل الغرغرة بالموت وليست بعدها، قال الله تعالى: ﴿ ÏMt6ó¡ø‹s9ur èpt/öqG9$# tûïÏ%©#Ï9 tbqè=yJ÷ètƒ ÏN$t«ÍhŠ¡¡9$# #Ó¨Lym #sŒÎ) uŽ|Øym ãNèdy‰tnr& ßNöqyJø9$# tA$s% ÎoTÎ) àMç/è? z`»t«ø9$# ﴾ .(١)

٣٤- وهي كذلك متاحة للكافر قبل موته، قال تعالى: [ŸwÎ)ur tûïÏ%©!$#

---

(١) سورة التوبة، الآية (٥).

(٢) سورة المائدة، الآية (٣٤).

(٣) سورة النساء، الآية (٢٧).

(٤) سورة النساء، الآية (٢٦).

(١) سورة النساء، الآية (١٨).

ØšŠ †ŴŸ †ŴEK Ð ЖĤĚR ë†ŔŞ{ ØŜŠV f û éŠéŠŲV
†ŢŮ~ŎŔ†Š ŸŴEV ﴾ (١).

٣٥- التوبة المطلوبة هي التوبة المتصلة بالمعصية، قال تعالى: ﴿ŶR
ØǠ~ŨEV Ŝ @Ŵ‡ éŠŸŴ Ð ЖĤĚŔĚV ŵ ÿĔŴ ÝŶ f û éŠŜŠV
ŴV ŸŴ{ ŴV†Ŭ~ŨEV Ŝ @ŵ †ŢŮ~ŸÏ ﴾ (٢).

٣٦- كل من عصى الله تعالى فهو جاهل، قال الله تعالى: ﴿ŨŴĚ†
ŷé†Ŝö@ŴéŠŴÅŷŴ f Û †ÿŸŴ Ÿ @øŨV Šf†Šé Ŵ@
ñ‡ éŠŸŴ Ð ЖĤĚŔĚV ŵ ÿĔŴ ÝŶ f û éŠŜŠV ŶRàŨŴŴ
@ØǠ~ŨEV Ŝ @Ŵ†Ŵ{ ŴV †Ŭ~ŨEV Ŝ @ŵ †ŢŮ~ŸÏ ﴾ (٣)، وقال
الله تعالى: ﴿R ŴŴ Ð ŸŴ@ŴŨŴ ŷé†Ŝö@ŴŨŴ àŨŴŴ
ŶR ŴŠŴ ŶÝ ŸÅŴ ŶÝ Ð ŨŴ ŴŴ ŴŨŴ Ð ŴŴ ÝŶ
ŴV ÅŴ†ŴŴ ŴéŜŴ Ŝ~Ø ﴾ (١).

٣٧- الصيام المقرر في كفارة قتل الخطأ توبة، قال الله تعالى: ﴿ŴŴ Ŵ†Ŝ
ŴŴ ŷÝŸŜ Ĝ•ŴŴŴŴ Ŵ Šf Ŵ@ Ÿ ŴV Ŵ{ŴŴ@ Ŝ

(١) سورة النساء، الآية (١٨).
(٢) سورة النساء، الآية (١٧).
(٣) سورة النساء، الآية (١٧).
(١) سورة النساء، الآية (١١٩).

﴿[illegible]﴾(١).

٣٨- التوبة استقامة لله تعالى، قال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٢).

٣٩- الأمر بالتوبة وَرَدَ بخطاب الجمع، ﴿[illegible]﴾(٣).

٤٠- التوبة لا بد أن تكون نصوحاً، ﴿[illegible]﴾(١).

٤١- التوبة معروضة على الكفار، قال تعالى: ﴿[illegible]

---

(١) سورة النساء، الآية (٩٢).

(٢) سورة هود، الآية (١١١).

(٣) سورة النور، الآية (٣١).

(١) سورة التحريم، الآية (٨).

﴿ ÿ~ŸÑÒëé ÉÒÆ ÕÑ ÍÓ@ ÑÍ ÏÑÕëÉÝÅ ÑÙ ÖÑ ŸÑÄ @ðÛXI ﴾(١).

٤٢- التوبة تفتح باب الأخوة الإيمانية للمنافقين، قال تعالى: ﴿ ,ÑÛXI
ãÑÕÒ ÑëÙÝÜÑÉ@ÕÀ ÑëÙÒÑÓÕ ÑÀ ÑëÙÔÕ fÛ ÏÿŸÑ@
f û ÌÓÞéÙëÛ@ÑÝÕÐ ÍÑÛéÏÑÉ ãÑÕ ÿÙÑ ÑëÙ ÕÑ ÑÀ
ÏÙ~ŸÑÆ£—ÑÙÞÓÝéÙë@Õ @ÿ ëŠÒÇ ëÉÑÀ ﴾(٢).

٤٣- التوبة من الله عز وجل تأتي بعد الاعتراف من العبد بذنبه وطلب المغفرة من الله تعالى، وذلك دليل رحمة الله تعالى بعبده المذنب، قال الله تعالى: ﴿ ÑÛÑÑÏÆÙÕ -ãÑÝÒÝ ÿ ÑÕ ø ÑÛÑÑ ‡Ð
ÑÙÕÑÑ ÍÕÑ@ÕÑ ÑÝÑ@‡ ÑŸ~Ø ﴾(٣).

٤٤- القرآن الكريم يوضح أن التوبة طريق لما بعدها، وأن ما بعدها لابد أن يكون عملاً صالحاً، وصلاحاً، وإصلاحاً، وإيماناً، وبياناً، واعتصاماً، وإخلاصاً، واهتداء، قال الله تعالى: ﴿ ,ÑÛXI@ÑŸÝÝ ÑëÙÔÕ
ÏÑÕÑ ØÝ~ÑÀ ñ‡ éÝÑÐ ÍÑÛéÏÑÉ ÑëÙÒÑÕ ÑëÙÒÑÓÕ ÑÀ
@ÑÝ‡@ÑÝ~ŸÑ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ ÑÛXI@ÑŸÝÝÑëÙÔÕ
ÝŸÝ ŸÅÑÀ ÏÑÐ ÑÀ ÑëÙÒÑÓÕ ÑÝÑ@ÑÕ ÉÒÆ ëéÑÒ~ŸÿÑ

(١) سورة المائدة، الآية (٧٤).
(٢) سورة النساء، الآية (١٤٦).
(٣) سورة البقرة، الآية (٣٧).
(١) سورة البقرة، الآية (١٦٠).

﴾(١)، وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٣)، ﴿[illegible]﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾(١)، وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿[illegible]

(١) سورة آل عمران، الآية (٨٩).
(٢) سورة النساء، الآية (١٦).
(٣) سورة النساء، الآية (١٤٦).
(٤) سورة المائدة، الآية (٣٩).
(١) سورة الأنعام، الآية (٥٤).
(٢) سورة الأعراف، الآية (١٥٣).

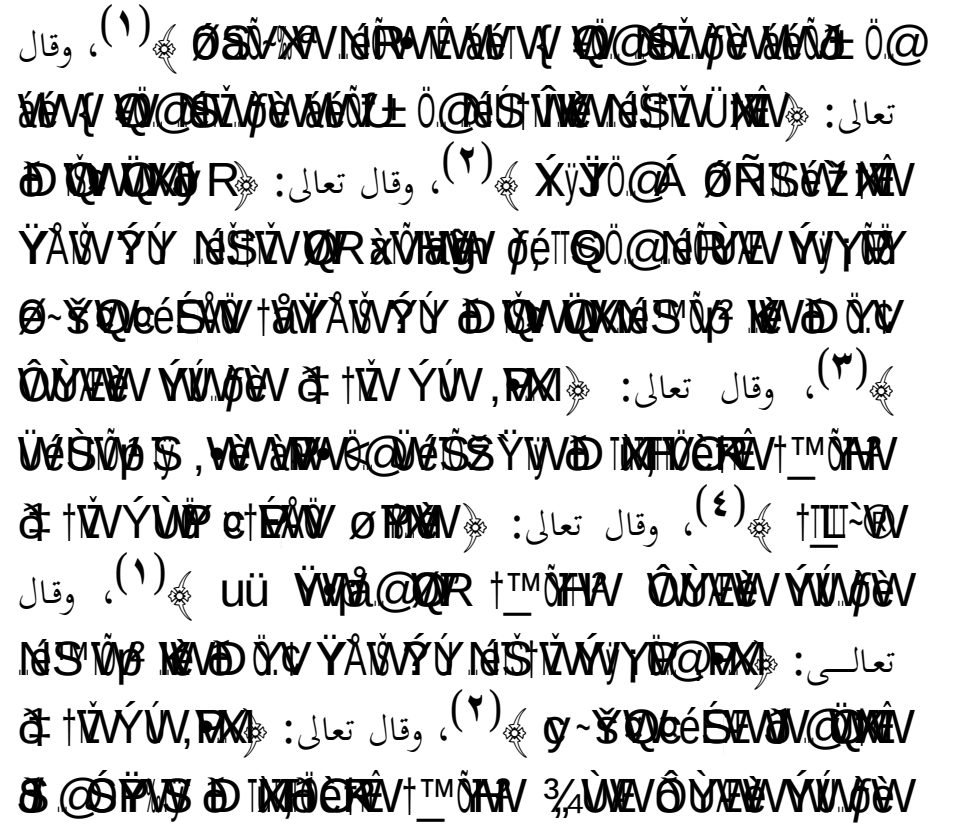

---

(١) سورة التوبة، الآية (٥).
(٢) سورة التوبة، الآية (١١).
(٣) سورة النحل، الآية (١١٩).
(٤) سورة مريم، الآية (٦٠).
(١) سورة طه، الآية (٨٢).
(٢) سورة النور، الآية (٥).

[illegible] ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾(٣).

٤٥- الجهاد باب واسع من أبواب التوبة، مَنَّ الله تعالى به على عباده المجاهدين، قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ [illegible] (٤) [illegible]

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٧٠).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٧١).

(٣) سورة القصص، الآية (٦٧).

(١) سورة التوبة، الآية (١١٧).

[illegible] ﴾(١).

٤٦- الله تعالى برحمته هو الذي يتدارك عباده بالتوبة قبل أن تزيغ القلوب، قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ (٢).

٤٧- التوبة إلى الله تعالى من أسباب صلاح الذرية، قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ (١).

٤٨- التوبة دليل يقظة القلب وتذكره، قال تعالى: ﴿ [illegible]

---

(١) سورة التوبة، الآيتان (١٤-١٥).
(٢) سورة التوبة، الآية (١١٧).
(١) سورة الأحقاف، الآيتان (١٥-١٦).

Xû ƙŴǍŤÚŴêKžŹŽŲÚz†ŸŴŔS{ Á f û éŠŸŴÉŞ ỳ ŜŦŘK
ŴQŘ,ŴŠêŠŴ,Ŵû é f ŴŴêŸ ,ŜØŸŴŔ {ŘŠè û f ﴾ (١).

٤٩- التوبة من الله تعالى قد تكون بالتخفيف من بعض التكاليف، رحمة من الله تعالى بعباده، قال تعالى: ﴿ŴŴŠŠŤŸŴ @ŴŴÛ~Ŵ@ŴŴŴ ŠŠ @ŴŴŴ
ŴŴŔŴŴÜŸŴ ŠŠ™ Š èŠŠ ŴŴ†ŢŤŴŴ~ŔŸỳ ﴾ (٢)، قال تعالى:
﴿ ŴŴ®ŴŸŴŠŠØ ŴÜ ŠŠŴŴŠŠ ŴŴŠŴ ŴŸŴ ǂ ŴŴŠŴŴŴ ŔỳŸ
ŴŴŴŠ ŴŴŴ ŴÜŴ Ťŷ ŠŠŢÉŠŴŠ ŴŴ† ŢŠ@ŠŠ ŴŤ~ŔØ
ŴŴŤ~ŠŠ@0 ŢŴŠŠ ŴŴŠŠ ŠŠ@ŴŴ } ŠŠ ŴŴŸ~ŠŠ@ŴŴ
ŴŴŠŠ ŠŠŠŠ@ ŠŠ ŴŴŴŠŠŸ ŴŴŴŴŠŠŴŴÀ ŴŴŴŴ ﴾ (٣).

٥٠- التوبة ترفع بعض الحدود، قال تعالى: ﴿ŴŴŴ@Ŵŷ ġŴŴŴŴŴŴŴ†
ŸÞ |ŠØ ŴŴŴŴŠŠŠŠ† ŴŴŴ û ŴŴŴŤ† ŴŴŴ ŜŠŢÛ™ŢŢf†
ŴŴŴŴ ŠŠ|ŸŠŠŴŤŠ ŠŠŴŠ@ŴŠ ŠŴŴ ŠŸŴŴ ŠŠ_ŠŤŤ ŴŠŠ~Ŵ[† ﴾ (١).

٥١- التوبة من الله تعالى – رحمة منه سبحانه لعباده- قد تأتي بعد اختبار وابتلاء، قال الله تعالـى: ﴿ŴŴŸŴŴŴŠŠ {ŠŠ@ ŠŠ ÁŴŴ ŴŸŸ
ŴŴŴŴŴŴŴŴŠŠ ŠŠŴŠŢŠ ŴŴŴŠŠŴŴŴ• |ŠØ ŴŴŴ |ŠØ ŴŴŴŴØ

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٢٦).
(٢) سورة المزمل، الآية (٢٠).
(٣) سورة المجادلة، الآية (١٣).
(١) سورة النساء، الآية (١٦).

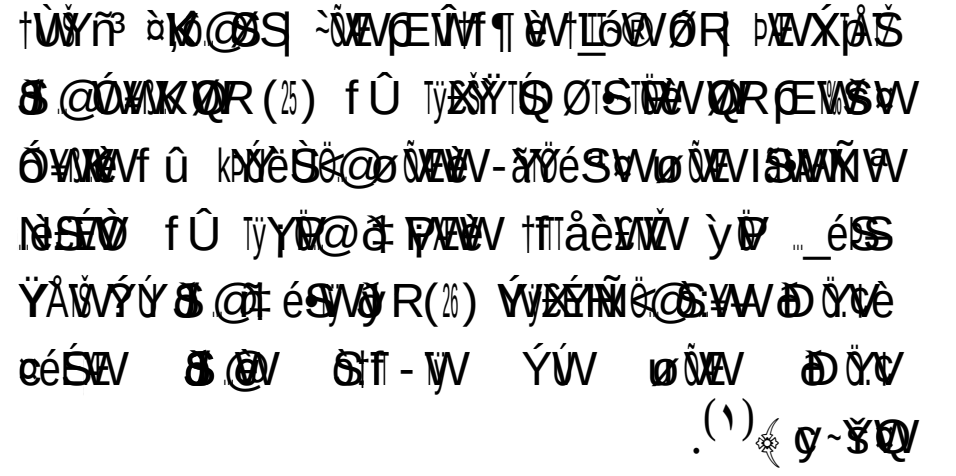

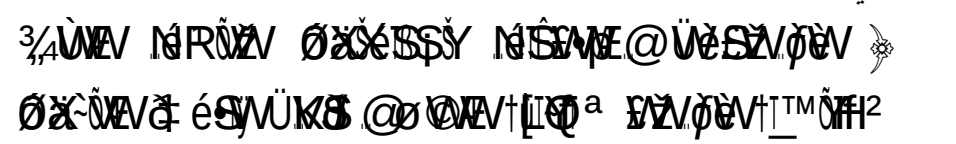

†ÙŠŸñ³ ¤Kß@ØS| ˜ŒŒV¢EÛŸf¶ ëV†[_ÓŒV ØR| ÞŒVX¡åŠ
ŒS @ÚŒKKØR (25) fÛ Ïÿ¥ŠŸÏÔ Ø†ŠŒŒV ØR¢EŒŠW
Õ¥ŒŒV fû kÞŸèÙ@øŒŒV-ãŸéŠWø ŒŒV I ŠŒÑ V
ÑŠŒÒ fÛ ÏÿYŒ@ŠŒV †fåèŒŒV ÿŒ _éŠ
ŸÅŒÝÝ ŒS @‡ éŠŒR(26) ÝŒÝÑ@ŠŒV ÐŸŒ
øéŠŒV ŒS @V Š†-ŒV ÝÚV øŒŒV ÐŸŒV
.(١)﴾ Ç~ŠÝV

٥٢- التوبة من الله تعالى لمن أكثر من العمل الصالح، وإن خالطه عمل سيء، فرحمة الله واسعة لمن اعترف بذنبه وأناب لربه، قال تعالى: ﴿ ¾ÙŒV ÑŒRŒV ØŒŠŠY ÑŠŒ@ÜŠŒV¢ŒV
ØŠ~ŒV‡ éŠÜKŒS @øŒŒV†[Ô ª ŒV¢ŒV†_™Ñ²
ؘ~ŠÝøéŠŒ ŒV@ÑKI ﴾(١)، وذلك دليل على أهمية الإسراع بالإنابة والاعتراف بالذنب والاطراح بين يدي الله تعالى طلباً لرحمته وتوبته.

٥٣- إن عدم الإسراع في الإنابة والاعتراف بالذنب سبب في تأخير التوبة من الله تعالى، قال تعالى: ﴿èŠŒV¢ŒV fû ÜŠŒÓ ÜKŒ @ŒŠ

---

(١) سورة التوبة، الآيات من (٢٥) إلى (٢٧).

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٢).

ϕ~Y| ŠV}y~ÜKVŠ @ÖØä~ÜKVi‡ é•ŠVÚÜKVØäŠŠPÅŠ †ÚÜKI
﴾(١)، وتقديم الوعيد بالعذاب في الآية ينبغي أن يكون محل تأمل كل عاقل.

٥٤- القرآن يبين أهمية الصدقة بعد التوبة، قال تعالى: ﴿ÜKÛŠÙÕÅŠVŠÜK
ŞŠŠVŠ -ÄY†ŠV ŸÜKV ŠVTTTŠèŠ@ÔŠVŠVŠVŠ ÜV@ÜK
Ö@ ŸŠVŠVŠ ÜV@Û ÜŠ@ŠVŠ ‡@ÖŠ~Ÿñ ﴾(٢).

٥٥- متاب العباد لا يكون إلا لله - تعالى- ربهم وخالقهم، قال تعالى:
﴿ ÙÝÛ ÐŠŠVŠVÐ ŠVÜŠÕŠŠ ÜÛŠ†VÛŸ ÇŠÜV ŸÝÝŠV†
ØÚŠ ŠVŠVŠ ŠVÜŠ@ÛŸ ‡V ŠVÜK† ÜKI~Ü ÐŠVŠØ
ŠVŠÃŠ ŠVŠ@ŠÜ ŠÝÝŠ ÒŠ ŠVÜØ VŠŠŠŠŠ, ŠVŠ
ŠVÜŠ~ÜŠÜ }ŠŠÜŠÜ~ÜŠ† ‡ϕ ﴾(١).

٥٦- التقوى لله تعالى تجلب توبته تعالى على المتقين ورحمته لهم، ﴿
ŠV@ŠÜŠV@ÜŠVŠV ÜŠ ‡Ü~ŸØ ﴾(٢).

٥٧- ديدن الأخيار أنهم يفزعون إلى طلب التوبة من الله تعالى عند اكتمال

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٦).
(٢) سورة التوبة، الآية (١٠٤).
(١) سورة الرعد، الآية (٣٠).
(٢) سورة الحجرات، الآية (١٢).

نعمة من نعم الله تعالى عليهم في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿[illegible]﴾(١).

٥٨- التوبة إلى الله تعالى هي ملاذ الأخيار في كل حال، قال تعالى: ﴿[illegible]﴾(١).

٥٩- شروط التوبة ورد شيء منها في القرآن الكريم، وذلك على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿[illegible]

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٨).

(١) سورة الأعراف، الآية (١٤٣).

﴿[illegible]﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿[illegible]﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾(٤).

٦٠- من استغفر له الرسول ﷺ في حياته وجبت له من الله التوبة والرحمة، قال تعالى: ﴿[illegible]﴾(١).

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٣٥).

(٢) سورة النساء، الآية (١٧).

(٣) سورة النساء، الآية (١٧).

(٤) سورة التحريم، الآية (٨).

(١) سورة النساء، الآية (٦٤).

الخاتمة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى.

لعل القارئ الكريم أدرك بعد قراءة هذا البحث مدى سهولة التوبة ويسرها في الإسلام. ولاشك أن هذا يدل على سعة الرحمة الإلهية العظيمة، وهي الرحمة التي وسعت كل شيء، ومن مظاهر هذه الرحمة فتح باب التوبة أمام المكلفين من الثقلين، ولعل ذلك يفتح الآفاق أمام المسلمين تدبراً، وتفكراً في قيمة ما أُكرِموا به من نعمة الإسلام، ليكون ذلك دافعاً لهم إلى التمسك بدينهم، والاعتزاز به.

والتوبة تعكس مدى الرحمة واليسر والخير في دين الإسلام العظيم، ومدى التكريم الإلهي للتائبين. فليس في التوبة في الإسلام عنت أو مشقة على التائب، وليس فيها طقوس، أو مراسيم معينة، أو وسائط من أي نوع تكون. بل هي الرحمة الواسعة التي يتلمسها المسلم التائب وهو يسمع نداء ربه الكريم وهو يناديه بكل الحنو والرأفة والرحمة بقوله تعالى: ¼ ÔŠ$
ÝÚ NéRÞÏŽÅ, WØãX©ÉŠKÎo ÎÏE ÑéŠ£ÎA KÓÝY ÏB@ Ÿ Y†T‰ÅYÎW
ÏÆŠ IšÏÏX†[Å~Ý— ãÉ éŠR©Ü@ ÜÏÝþÅ ÏW ÜÏ@ÜKÏÝ @ÏÜÙŠ ÏQ
@ÏÝÏ@ÑéÉÍÝÜ ÏØ~ÝŠ (53) « [1]، ولفظ العباد في الآية يشمل المكلفين

(١) سورة الزمر، الآية (٥٣).

من المسلمين، وغيرهم.

وهذا البحث يهدف إلى إبراز التوبة مظهراً من مظاهر تلك الرحمة الإلهية الواسعة التي وسعت من نسب لله اتخاذ الولد، ومن قال عنه: إن يده مغلولة، ومن وصفه بالفقر، ومن قال عنه: إنه ثالث ثلاثة، ومن حاربه، وصد عن سبيله، ومن قتل تسعاً وتسعين رقبة وأكملها بمائة، ومن أوغل في الذنوب والمعاصي، كل أولئك وسواهم وسعتهم رحمة الله، ودعاهم سبحانه إلى التوبة والأوبة إلى باب رحمته الواسع، فهم عبيده وخلقه، وهو الرحيم بهم جميعاً.

فسبحان من وسعت رحمته كل شيء. وصلى الله على خاتم عباده الذين اصطفى سيدنا محمد الرسول المصطفى وعلى آله وصحبه أجمعين.

q q q

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أحكام القرآن. لأبي بكر بن العربي (ت٥٤٠هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
- إحياء علوم الدين. للإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
- الأدب المفرد. للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، حقق نصوصه ورقم أبوابه وأحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعته المكتبة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٧٥هـ.
- بدائع التفسير. لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، جمع وتوثيق وتخريج: يسري السيد محمد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، دار ابن الجوزي، السعودية.
- تعظيم قدر الصلاة. لمحمد بن نصر المروزي، تحقيق وتعليق وتخريج: د/ عبد الرحمن الفريوائي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة، السعودية.

- تفسير ابن عطية المسمى: المحرر الوجيز، تحقيق وتعليق: عبد الله الأنصاري/ السيد عبد العال السيد، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، قطر.
- تفسير ابن كثير. لإسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الإصدار الثاني، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، نشر: دار طيبة، الرياض، السعودية.
- تفسير التحرير والتنوير. للطاهر بن عاشور، نشر: الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- تفسير الطبري المسمى: جامع البيان. للإمام محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: د/ عبد الله التركي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة.
- تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ)، تحقيق: د/ مصطفى مسلم محمد، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، السعودية.
- تفسير الفخر الرازي. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، طبع ونشر: دار الفكر، بيروت، لبنان.
- تفسير القاسمي المسمى: محاسن التأويل. للعلامة محمد جمال الدين القاسمي، تصحيح وترقيم وتخريج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت.

- تفسير القرطبي المسمى: الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثالثة، عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- التفسير الكبير. لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق وتعليق: د/ عبدالرحمن عميرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- تفسير المنار. لمحمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، نشر دار المعرفة ، بيروت.
- تفسير النسفي. تحقيق وتخريج: يوسف علي بديوي، مراجعة وتقديم: محيي الدين ديب مستو، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار ابن كثير، بيروت، لبنان.
- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان. اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، بيروت، لبنان.
- تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به من الأباطيل وردئ الأقاويل. للشيخ عبد القادر شيبة الحمد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية.
- التوبة النصوح. لمجدي فتح السيد. نشر: دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر. طبع: مطبعة دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- التوبة لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ). تحقيق وتخريج: صابر البطاوي، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، نشر وتوزيع: مكتبة السنة، القاهرة.
- التوبة للحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة، مصر.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. لعبد الرحمن السعدي، طبع: دار الفكر، بيروت، لبنان ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، نشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.
- جامع الأصول من أحاديث الرسول. لابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ)، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٨٣م، الناشر: مكتبة الحلواني، ومطبعة الملاح، ومكتبة دار البيان.
- جامع العلوم والحكم. لابن رجب ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط/ إبراهيم باجس، الطبعة السابعة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، الناشر: دار الندوة الجديدة، بيروت، عام: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الفكر، بيروت.

- الذريعة إلى مكارم الشريعة. للراغب الأصفهاني (ت). الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين. للإمام النووي (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق وتعليق وتخريج: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- السلسلة الصحيحة. للألباني، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.
- سنن أبي داود. تعليق: عزت الدعَّاس/ عادل السيد، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩- ١٩٧٠م، الناشر: دار الحديث، سوريا.
- سنن ابن ماجه. تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- سنن الترمذي. مراجعة وضبط وتصحيح: صدقي محمد جميل العطار، دار الفكر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- سنن النسائي (المجتبى) . تحقيق : عبدالفتاح أبي غدة، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا.
- صحيح ابن حبان ، لمحمد بن حبان البستي (ت٣٥٤هـ)، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- صحيح الأدب المفرد. لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، دار الصديق، الأردن.
- صحيح البخاري. تحقيق: د/ مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، لبنان.
- صحيح الجامع الصغير للألباني، الناشر: المكتب الإسلامي ١٣٨٨-١٣٩٢هـ/ ١٩٦٩-١٩٧٩م، دمشق، سوريا.
- صحيح سنن الترمذي. للألباني، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، الناشر: مكتب التربية لدول الخليج االعربي، الرياض، السعودية.
- صحيح مسلم. للإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة الحلبي، القاهرة.
- الفتاوى، لابن تيمية، جمع وترتيب/ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب.
- في ظلال القرآن. لسيد قطب، الطبعة العاشرة، دار الشروق ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، بيروت.
- كتاب التوابين. لابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، عام: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- الكشاف. للزمخشري (ت٥٦٧هـ)، الناشر: دار المعرفة ، بيروت.
- لسان العرب. لابن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت.
- مدارج السالكين. لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد

الفقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، عام: ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

- المستدرك على الصحيحين. لمحمد بن عبد الله المعروف بالحاكم (ت ٤٠٥هـ)، توزيع: دار الباز للنشر والتوزيع، عباس أحمد الباز، مكة المكرمة.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.
- المعجم الكبير. لسليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، الطبعة الثانية ١٤٠٤ – ١٩٨٣، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، العراق.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

q q q

فهرس الموضوعات

الموضـــوع الصفحة

المقدمة ..... أ
شأن التوبة ١
شرف التوبة ومكانتها عند الله ٥
تعريف التوبة وحكمها ٩
شروط التوبة ١١
ملخص شروط التوبة ٢١
سبب استخفاف الناس بالذنوب والمعاصي ٢٧
مكانة التوبة عند المسلم وأثرها في نفسه ٣٠
من صفات التائبين ٣٤
التوبة وحقائق القرآن ٣٩
حاجة المكلفين إلى التوبة ٤٧
التوبة تهدم اليأس ٥٢
التوبة تمكن صاحبها من تخطي عقبات الشيطان ٥٧
التوبة نجاة وفلاح ٦٥
التوبة رحمة من الله وسعة ٦٩
فوائد التوبة ٧١

أهمية معرفة أسماء الله وصفاته في حصول التوبة ٧٦
التوبة طريق الفرار إلى الله ٨٣
أقسام الذنوب ٨٦
الأسباب التي تلحق الصغائر بالكبائر ٩٤
أقسام العباد وأنواعهم في التوبة ١٠١
معالم الهدي القرآني في الحديث عن التوبة ١٠٧
المعلم الأول ١٠٧
المعلم الثاني ١١٠
المعلم الثالث ١١١
المعلم الرابع ١١٢
المعلم الخامس ١١٢
المعلم السادس ١٦٧
المعلم السابع ١٦٩
المعلم الثامن ١٧٣
المعلم التاسع ١٧٨
المعلم العاشر ١٨٢
المعلم الحادي عشر ١٨٣
المعلم الثاني عشر ١٨٤
المعلم الثالث عشر ١٨٥
المعلم الرابع عشر ١٨٦
المعلم الخامس عشر ١٨٧

المعلم السادس عشر ١٨٩
المعلم السابع عشر ١٩٤
المعلم الثامن عشر ١٩٧
المعلم التاسع عشر ١٩٩
المعلم العشرون ٢٠٠
المعلم الحادي والعشرون ٢٠٨
المعلم الثاني والعشرون ٢٠٩
المعلم الثالث والعشرون ٢١٨
المعلم الرابع والعشرون ٢٢١
المعلم الخامس والعشرون ٢٢٢
المعلم السادس والعشرون ٢٢٣
المعلم السابع والعشرون ٢٢٧
المعالم القرآنية في التوبة إجمالاً ٢٢٩
الخاتمة ٢٤٨
فهرس المصادر والمراجع ٢٥٠
فهرس الموضوعات ٢٥٧

q q q